لجنة التأليف والترجمة والنشر

أندريه موروا
عضو الأكاديمية الفرنسية

فن الحياة

ترجمة الأستاذ
يوسف مظهر بك

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٧

ترجمة المؤلف

ملخصة عن مذكراته

أسرته

أبوه إرنست هرزوج ، وهو ألزاسي حضر حرب السبعين وهو في السادسة عشرة ، وكانت أبرز صفاته الشجاعة والكتمان والتواضع والأمانة والبعد عن التحيز . لم يكن يتعلق إلا بأربع : وطنه فرنسا ، ومسقط رأسه الألزاس ، وصناعته ، وأسرته ، اشتغل منذ حداثته بصناعة الصوف في مصنع لأخواله في بيشفلر من أعمال الألزاس كان به ٤٠٠ عامل .

وفي سنة ١٨٧١ عندما ضمت الألزاس إلى ألمانيا أصبحت الأسرة في موقف مؤلم ، فنقل آل هرزوج مصنعهم بآلاته وعماله إلى مدينة إلبوف عاصمة مقاطعة السين السفلى بالقرب من مدينة روان ليحتفظوا بفرنسيتهم . وسمع المترجَم وهو صبي في السادسة من رفيق له أن أسرتهم كانت على دين اليهود ، فسأل أباه في ذلك فأجابه : « حقاً يا ولدي قد كان أجدادنا يهوداً ولكن راعياً بروتستانتيا كان صاحب عقيدة جميلة تمت بالقرابة والبنوة إلى اليهودية دعاهم إلى النصرانية فتنصروا على المذهب البروتستانتي

ونشأنا على دينهم . وكانت جدتهم على مذهب المتطهرين (البيوريتان) فأخذوا عنها مذهبها ، فكان إرنست وإخوته على خلق عظيم مع ميل إلى الجد والصرامة .

لم يكن إرنست وأخوه إدمون شركاء فى المصنع ، ولكنهما كانا روحه وعماده . واختص إرنست بإدارة المصنع وتفرغ إدمون لتصريف منتجاته . وفى سنة ١٨٨٠ وُعدا بإشراكهما فى ملكية المصنع ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد زمن طويل . وكان إرنست مهيبا محبوبا يرجع إليه العمال فى شئونهم المهنية والخاصة وتوفى سنة ١٩٢٥ بعد أن أصبح من الشركاء فى المصنع .

نشأته وحياته

كان اسمه الأصلى إميل هرزوج ، ولد فى مدينة البوف سنة ١٨٨٥ وتعلم القراءة والكتابة والتاريخ المقدس من أمه ، ثم قرأ كل قصص الأطفال الشهيرة كما قرأ قصص چول ڤرن . ثم انضم إلى بضعة رفقاء من سنه كانوا يتمون دراستهم الأولية عند سيدتين فى مدرسة خاصة ، ورتب له والداه فى نفس الوقت دروساً فى الموسيقى على يد معلم خاص ليعلمه العزف على البيانو ، فلم يظهر مهارة فى العزف فكان المعلم يقضى معه وقت الدرس فى عزف ألحان شوبان وباخ ، فحبب إليه الاستماع إلى الموسيقى ، وكان فى نفس الوقت يتلقى دروساً فى مبادئ اللغتين الإنجليزية والألمانية ، كما تعلم ركوب الخيل على مدرب خاص ، ثم دخل مدرسة البوف الابتدائية

الملحقة بمدرسة الليسيه بروان فبدأ ميله للإنشاء والأدب يرتسم فيما يعالجه من الموضوعات، وتنبأ له معلمه بأنه سيكون مؤلفاً يوماً ما. وأخذ يتعلم مبادئ اللاتينية، ولما بلغ الثانية عشرة انتقل إلى الليسيه بروان وكان قد قرأ كثيراً مما فى مكتبة الأسرة من كتب الإتباعيين «الكلاسيك» والابتداعيين «الرومانتيك» فضلا عما كان يهديه إليه والداه فى مختلف المناسبات من الكتب الأدبية والتاريخية، فاطلع على الكثير مما وضعه أعلام الكتاب من القصص، فأثارت أحاسيسه قصص الحب، ولما كان والداه محافظين لم يكن يجرؤ على سؤالهم عن شىء مما أهاجه، فاضطر أن يكوّن لنفسه صورة خاصة عن علاقة الرجل بالمرأة وأخذت طبيعته الروائية تتفتح شيئاً فشيئا.

كان الأول فى الليسيه فى جميع العلوم بين أربعين طالبا، وتغلب على ضعف بنيته بمزاولة الألعاب الرياضية حتى نال فيها مدالية كان سروره بها أعظم من سروره بنجاحه بتفوق فى البكالوريا. وكان أثناء دراسته بروان يذهب أيام الإجازة إلى باريس عند خالاته، وكن شغوفات بالشعر والتمثيل فشهد معهن التمثيل وحفلات الغناء والموسيقى فزاده التمثيل تثقيفاً فى الأدب وتعاونت الموسيقى والشعر على تهذيب خياله وشعوره.

وانتقل إلى السنة النهائية من تعليمه الثانوى بقسم الفلسفة، وكان أستاذه إميل شارتييه الذى اتخذ لتوقيع مؤلفاته اسم «آلان» يميل إلى طريقة سقراط ويطبقها ليثير عقول تلاميذه ويدفعهم إلى التفكير ودقة البحث، فتأثر المترجَم به فى تفكيره

وذوقه الأدبى ، قال : « لقد علمنى بغض النفاق والرغبة فى الفهم واحترام الخصوم » . ونال المترجم جائزتين فى مسابقتين متتاليتين فى الأدب والفلسفة ، وتعشق مهنة التدريس فأراد أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا فى باريس ، فنصحه أستاذه آلان ألا يفعل لأن له فى الأدب مستقبل زاهر ومهنة التدريس تجعله فى عزلة لا تمكنه من دراسة أخلاق الناس ، وأشار عليه أن يشتغل بالصناعة مع والده حتى يختلط بالناس ، ويدرس طبائعهم وميولهم ، فوافق أبوه على هذه الخطة ، وأذن له فى إرضاء ميوله الأدبية فى ساعات الفراغ ، ولكنه فضل قبل دخول ميدان الصناعة أن يفوز بفترة تغيير ، وكان فى استطاعة الشاب المتعلم وقتئذ أن يلتحق بالجيش فيما يسمى فرقة « المعافين » إذا كان فى سن الثامنة عشرة لمدة سنة واحدة بشرط أن يكون حاصلا على درجة جامعية ، فاستعد لامتحان الليسانس فى الآداب « قسم الفلسفة » ونجح بتفوق ، فكافأه والداه بسياحة مع عمه إلى إنجلترا .

ولما أتم تدريبه العسكرى فى فرقة المعافين بمدينة روان التحق بالمصنع وتمرن فى جميع أدوار العمل ، كما تدرب على تصريف المنتجات . وكان المصنع يمنحه إجازة شهر كل سنة يقضيه فى السياحة ، فتعرف بفتاة روسية فى جنيف وتوثقت بينهما الروابط فتزوجها ورزق منها ببنت وصبيين .

وعندما أعلنت التعبئة العامة فى أغسطس سنة ١٩١٤ ألحق

بالحملة البريطانية بمهمة مترجم اتصال بين القيادة البريطانية والسلطات الفرنسية ، فتعرف بكثيرين من الضباط البريطانيين ودرس أخلاقهم واستمد من محاوراتهم موضوع قصة سماها « صمت الكولونيل برامبل » أذنت له السلطات البريطانية فى نشرها بشرط أن يتخذ اسما مستعاراً ، فاتخذ اسم ابن عم له قتل فى الحرب يدعى أندريه وتلقب بموروا وهو اسم قرية صغيرة بالقرب من كمبريه ، فصار اسمه أندريه موروا وقوبل الكتاب بالترحيب والثناء فى فرنسا وإنجلترا ، وتلقى المؤلف خطابات التشجيع من كثير من رجال الأدب منهم أناتول فرانس وكپلنج ، ومن قائد الحملة البريطانية والمارشال ليوتى والمسيو كليمنصو وغيرهم وعلى أثر عقد الصلح عاد إلى عمله بالمصنع مع عكوفه على الاشتغال بالأدب ، ولكن الأحوال الاقتصادية العالمية مالبثت أن اضطربت كما تزعزعت أسس النقد وحلت الأزمات المالية .

وفيما بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ دعاه أصدقاؤه من الضباط الإنجليز إلى زيارة طويلة لإنجلترا ليتعرف إلى الشعب الإنجليزى ، فتهيأت له دراسة الحياة الإنجليزية والعقلية الإنجليزية والنظم الإنجليزية واتصل بالكثيرين من أعلام الأدب ورجال السياسة والبحرية ووقف على أسرار ثبات النظم والقوانين الإنجليزية ، وفى سنة ١٩٢٣ أخرج كتابا عن شلى الشاعر الإنجليزى ، وفى تلك السنة توفيت زوجته فحزن عليها حزنا شديدا ، فعطف

عليه أصدقاؤه الإنجليز مرة أخرى فدعوه إلى زيارة قصيرة ، وكان بسبيل هجر الصناعة والتفرغ للأدب. حيث أخرج كتاب « محاورات عن الحكم والقيادة » فكان لظهوره أثر فى اتصاله بكثير من رجال الحكم فى فرنسا ؛ وفى يوم من أيام نوفمبر سنة ١٩٢٤ إبتدره ناشر كتبه جراسيه بقوله : « هل لك فى مقابلة المرشال بيتان والتحدث إليه ؟ فقد قرأ المرشال كتابك « المحاورات » وأعجب به وسنتناول العشاء معاً يوم ٢ ديسمبر على مائدة صديقتنا مدام كاياڤيه وسيكون معنا أيضاً بول ڤاليرى وقد طلبت إلىّ السيدة أن أدعوك . ولم يكن اسم مدام كاياڤيه غريباً عن موروا فهى الصديقة القديمة لأناتول فرانس ، ولكنه فى يوم الدعوة قُدم إلى شابة جميلة ذكرته كثيراً بزوجته ولو لم تكن تشبهها ، ثم اتضح له أنها حفيدة السيدة صديقة فرانس وهى شابة كاملة الثقافة تزوجت أثناء انعقاد مؤتمر الصلح بأحد رجال السلك السياسى الأجنبى ورزقت منه بابنة ولكنها طلقت منه بعد أن عاشرته ٣ سنوات . كانت هذه المقابلة فاتحة تعارف وتآلف وحب انتهى بزواجها بموروا فى أواخر سنة ١٩٢٦ .

إلى هنا اقتصرت معرفة موروا على إنجلترا .

أما أمريكا فلم يكن زارها ، ولكنه عرف فيها بكتبه . « برامبل » ، « أرييل » و « حياة دزرائيلى » فزارها ومكث بها شهرين تعرف فى خلالها ببعض الجمعيات الأدبية الفرنسية

الأمريكية وألقى بها بعض محاضرات أدبية .

وفى سنة ١٩٢٧ دعاه المسيو رنيه دوميك عضو الأكاديمية الفرنسية ومدير مجلة العالمين إلى إلقاء محاضرات أدبية عن ديكنز الروائى الإنجليزى . ثم زار إنجلترا زيارة طويلة خرج منها بكتاب ممتع عن بيرون الشاعر الإنجليزى . ودعى إلى أمريكا سنة ١٩٣٠ ليشغل كرسى اللغة الفرنسية بجامعة پرنستون ، ولما كانت إقامته ستطول رافقته زوجته فى هذه الرحلة وعاد إلى فرنسا بعد انتهاء مهمته . وفى الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧ أخرج كتابه تاريخ إنجلترا ولكنه شكا فى مذكراته من أن أوقاته فى تلك الفترة كانت موزعة بين جمعية المحاضرات التى يرأسها المسيو دوميك وجماعة مجلة الأنال التى ترأسها مدام بريسون ابنة فرنسيسك سرسيه ويأسف لعدم استطاعته التفرغ لإخراج مؤلفات باقية . حقا لقد كانت أوقاته ومجهوداته مبعثرة موزعة بين الجمعيات الثقافية والجامعات الشعبية . وفى تلك الفترة زار مصر وألقى سلسلة من المحاضرات بمدرسة الليسيه الفرنسية بالإسكندرية .

وفى سنة ١٩٣٨ نال أعظم شرف يتمناه رجال القلم حيث انتخب عضواً بالأكادمية الفرنسية .

وفى سنة ١٩٣٩ سافر إلى الولايات المتحدة براً بما وعد به من الطواف بالمدن الكبيرة وإلقاء محاضرات بها ، ثم عاد فى نفس السنة إلى فرنسا وكان الجو السياسى فى أوربا قد تسمم ، فلما بدأت

الحرب العالمية الثانية تقدم ليكون ضابطاً فى الجيش الاحتياطى ، ولكنهم ألحقوه بقوميسارية الاستعلامات وهى هيئة فرنسية للدعاية لم تكن لها ميزانية فما كاد يشكو من عقم أعمال هذه القوميسارية حتى تسلم خطابا من القيادة البريطانية تدعوه إلى الالتحاق بالقوة الإنجليزية فى فرنسا ليقوم بمهمة شاهد عيان فرنسى رسمى .

وبعد كارثة دنكرك انتقل إلى إنجلترا حيث اشتغل بالإذاعة للجمهور الإنجليزى وسكان الدومنيون ليوقفهم على حقيقة الحال .

ولما كان قد تعهد بأن يلقى فى أكتوبر سنة ١٩٤٠ سلسلة محاضرات فى مدينة بوستن بالولايات المتحدة حتى ولو لم تنته الحرب فى ذلك التاريخ ولما كان ذلك التعهد قد تم بالاتفاق مع وزارة الحرب الإنجليزية فقد سافر إلى الولايات المتحدة لهذا الغرض . ولمساءت الأحوال فى فرنسا من جراء الاحتلال الألمانى ظل موروا يتنقل فى مدن الولايات المتحدة الشهيرة للتدريس أو إلقاء المحاضرات وعاد إلى وطنه عقب انتهاء الحرب .

مؤلفاته

أخرج أندريه موروا أكثر من عشر قصص طويلة ترجمت منها إلى اللغة العربية قصة « وازن الأرواح » .

ومن التراجم أكثر من ست ترجم منها إلى اللغة العربية « حياة دزرائيلى » .

ومن الرسائل أكثر من اثنتى عشرة غير هذا الكتاب .

ومن التاريخ كتابا واحداً وهو تاريخ إنجلترا . وقد ترجم أخيراً إلى اللغة العربية .

أسلوبه

أندريه موروا أديب ومؤرخ وفيلسوف . عبارته سهلة ولكنها ليست خالية من الدقة والتعمق . أسلوبه رقيق محبب إلى النفس « كتب فى التراجم والتاريخ كتبا تفيض بالحياة لما تتضمنه من صور الحياة . وكتب قصصاً خيالية هى صور صادقة من الواقع ، وهو فى تراجمه وكتاباته التاريخية يصوغ بعض أحاديثه فى قوالب قصصية خيالية تصور ما يريد قوله أصدق تصوير ، ولو أنه أرسل هذه الآراء فى عبارات صريحة واقعية لأثار الخواطر وآلم بعض الأمزجة ، ومن هنا كان من الحق أن نقرر أن قصصه تشتمل على فلسفة عميقة مستورة بستار ناعم شفاف » .

All the book is interesting
Shields

١ – الكون والفكر

أرانى فى هذه اللحظة أدير عينىّ إلى نافذة مكتبي فيختلط فكرى برهة بهذه الصور التى تبدو كأنها منقوشة على زجاج النافذة . ومن وراء هذه الشبكة الهندسية الحديدية التى تحيط بشرفة نافذتى أرى أمواج الغابة الخضراء تسبح فى الضباب الرقيق اللازوردى : ضباب أصباح باريس ويبدو فى الأفق صف من التلال ، وعلى جبل ڤاليريان المغطاة جوانبه بأشجار داكنة يقوم مستشفى يذكرنا بدير فلورنتينى قديم تحيط به أشجار السرو القاتمة ؛ وفى الجو الحائل تسبح سحب شفافة وتمر أسراب من عصافير السنونو . وهنـاك فى الفضاء البعيد من ناحية ڤرساى تدور وتئز طائرات تثير فى ذهنى أفكاراً عن الحرب وقذف القنابل من الجو ، وتذكرنى بالمنذرات التى تخور فى سكون الليل ، ثم تغيب عن نظرى صور تلك الأشجار كما تغيب عن سمعى أصوات تلك الطيور المغردة ، ثم ينصرف ذهنى إلى التفكير فى حضارة زالت ، ثم فى نهاية الدولة الرومانية ، ثم فى مدينة صغيرة على ساحل بلاد الجزائر كانت حوالى القرن الثالث بعد الميلاد ثرية فاتنة ، وبعد مائة عام لم تكن سوى خرائب حزينة مهجورة فأفكر فيما عسى أن تكون أطلال عواصمنا يوما ما . وهكذا ليس المنظر الحالى

All the book is very good.

للعالم هو وحده مادة هواجسي بل تتداعى إلى صور هذا الحاضر صور من بلاد بعيدة وذكريات من أحداث قديمة ، وتتصل بهذا كله فروض ونظريات عن مستقبل هو فى طيات الغيب فيبدو أن عقلى فى تلك اللحظة هو عالم باطنى ينعكس عليه العالم الخارجى الفسيح الذى لا يحده زمان ولا مكان .

يطلق الفلاسفة اسم « ميكروكُسم » على هذا المثال المصغر وهو عقلى ، واسم « ماكروكُسم » على العالم الحقيقى الجبار الذى نعيش فيه ونتطلع إلى فهمه واستغلاله لمصلحتنا ، وقديما كتب رجل من المشتغلين بعلم الكيمياء القديم فى العصور الوسطى يقول :

« مثل العقل كمثل الملاك يحيط بكل شىء فى الماكروكسم » يريد أن العقل يحاول أن يلم بكل شىء وأن العالم ينعكس فى ذهننا مشوها كما تنعكس صور السماء والأزهار على صفحة كرة معدنية ، غير أن فرقا واضحا يفسد هذا التشبيه ويشوشه وهو أن المرآة (الميكروكسم) والمرئى (الماكروكوسم) كلاهما فى حركة دائمة ؛ وليس هناك سوى صورة واحدة يلوح أنها واضحة بعض الوضوح وهى صورة سياج شرفتى وهذه الأشجار وهذه التلال وهذه الطيور التى تكون الوضع الحالى من حيث الزمان والمكان . أما ما كان مجرد ذكرى أو توقعا أو تدليلا عقليا فكلها صور تماوج على هوى أمواج ذلك البحر الباطن وهو العقل . إن جهالاتى وشهواتى وأخطائى كل أولئك تشوه حقائق الأشياء على حين أن

هذه الأشياء نفسها تتخـذ فى ذاتها فى كل لحظة أشكالا جديدة عجيبة ؛ فما الـكون الفسيح فى ذهننا سوى خريطة قد تشوهت أطرافها واعوجت خطوطها ، ومع هذا لا بد لنا فى كل لحظة من أن نتخذ على هذه الخريطة اتجاها معينا . إن رغبتنا فى التفكير تفرض علينا وقفة طويلة وبحثا دائما ولـكن حاجتنا إلى العمل تتعجلنا : فإذا لاحظنا مثلا أن أحد أبنائنا آخـذ فى الضعف والذبول ، قلنا : « ماصرضه ؟ أجسمانى هو أم نفسانى ؟ ومَنْ مِنَ الأطباء يجب علينا أن نستشيره ؟ وما قيمـة الطب ؟ أهو علم حقيقى ؟ وما العلم ؟ » .

إن دراسة هذه المسائل دراسة جدية تستغرق العمر كله ، ولـكن ماذا نصنع ؟ لا بد من الإجابة فإن مريضنا يخطو إلى الموت . ليس لدينا من الوقت ما يكفى لارتياد العالم الخارجى والصورة الوحيدة التى نستطيع أن نسترشد بها هى تلك الصورة الضئيلة المضطربة التى يقدمها لنا العقل .

إن ما نسميه تفكيراً هو ما نبذله من جهد حين نزاوج بين الصور والرموز لنميز ونتوقع آثار أعمالنا فى الأشـياء الواقعية . فـكل فكرة إن هى إلا صورة تخطيطية لعمل من الأعمال ، وعلى هدى هذه الصورة نرسم برامج حياتنا . فلـكى نصوّب أعمالنا يجب علينا كما قال بسكال : « يجب أن نجوّد تفكيرنا بأن نجعل من مثالنا الباطنى الصغير للعالم صورة أكثر ما تكون

مطابقة للعالم الخارجى الحقيقى . فإذا طابقت قوانين عالمنا الباطن الصغير قوانين العالم الحقيقى الكبير على وجه التقريب أى إذا كانت خريطتنا الداخلية قد رسمت بدقة نسبية للبلدان التى قدر لنا أن نجوس خلالها ونمشى فى مناكبها كان من حظنا أن تجىء أعمالنا منطبقة على حاجاتنا ورغباتنا ومخاوفنا . فهل هناك طرق تسمح للإنسان بأن يوجه تفكيره بحيث تجد أعماله طريقاً ممهداً لها بين الناس والأشياء ؟ وهل فى طاقة الإنسان أن يرسم فى ذهنه خريطة صحيحة للعالم ، وأن يقود سفينته طبقاً لهذه الخريطة نحو أهداف محددة حتى يصل سالما إلى المرفأ المختار ؟ هذا هو موضوعنا . .

٢ – التفكير بالجسم

يظهر أن أكثر الأفكار انطباقا على عالم الأشياء هى تلك الأفكار المنقوشة فى الأجسام الحية على شكل غرائز وعادات . فالقط يثب على منضدة عليها أشياء كثيرة ويستقر عليها برشاقة ومن غير مجهود ظاهر ، فلا يكسر فنجانا ولا يهز آنية مع أن هذه المجموعة من الحركات تتطلب حسابا صارما للمجهود اللازم واختبارا دقيقاً لنقطة الوصول ، ولكن لا هذا الحساب ولا ذلك الاختبار كان من عمل الوعى ، فإن القط قد فكر بعضلاته وبعينيه وتخيل ، على هدى هذه الصورة الماثلة أمامه ، حركات جسمه

القبلة فأثارت صور هذه الحركات بدورها جميع الأوضاع التي يجب أن يتخذها رأسه وظهره وأرجله فى كل لحظة . إنه يفكر بجسمه بنفس الطريقة التى يفكر بها لاعب التنس ولاعب الكرة ولاعب الشيش والبهلوان . فإن لاعب الشيش مثلا ليس لديه الوقت الكافى لأن يحدث نفسه فيقول : « يهجم مبارزى مرتين ثم يتنحى فأرد عليه بالمفاداة مرتين ثم بالهجوم مرة أو مرتين ، بل إنه يفكر بسلاحه وأصابعه . لعبت فى صباى الجمباز على الآلات وكنت أعرف أننى لن أستطيع أن أقوم بتنفيذ تمرين على العقلة أو على المتوازيين إلا إذا تخيلته بدقة تامة ، أى إذا رأيت بعين الخيال جسمى وهو يتأرجح وقست مدى تأرجحه ، فإذا عرفت من خلال هذا التفكير الذى يسبق العمل الجزء من الثانية الذى يستغرقه انقباض عضل الذراع أو رفع الساق نحو العقلة حتى تكون الوثبة مدعمة صارت جميع هذه الحركات سهلة كأنما حدثت بمعجزة . أما إذا وُجِدَتْ على هذا الشريط المصور أقل فرجة أو إذا كانت الصورة غير واضحة ولو فى بضعة مليمترات فإن توافق الحركات يضطرب ويبدو التنفيذ مستحيلا . والمثَّال لا يعمد إلى زيادة تحديب قوس الفخذ مثلا بعد تدليل عقلى ولكن بين عينيه المركزتين على مثاله وبين أصابعه التى تداعب التمثال يحدث اتصال مباشر . وشبيه بهذا ما يحدث للاعب الجمباز والصانع الماهر والفنان . بل إن بعض الكائنات الحية تفكر بأجسام غيرها

فكل حيوان فى القطيع يفكر بأجسام أترابه ، فعند ما يتولى الذعر قطيعاً من الغنم أو الخيل يتبع كل منها الفرد الذى أمامه لا لأنه يعرف سبب الذعر أو يفهمه ولكن لأن تجربة النوع المنقوشة على صفحة غرائزه علمته أن الفرد الذى لا يتبع باقى القطيع سيكون تحت رحمة أعدائه .

وعلى مثال هذه الحيوانات نرى الآدميين الذين ظلوا قريبين من حالة الوحشية وكذا الأطفال والجماهير كل هؤلاء خاضعون لتفكير غريزى جسمى .

رأيت على باخرة كانت تجتاز بنا الأطلنطى صبيا فى الرابعة أو الخامسة من عمره عهد به إلى ربان السفينة وأذكر أنى لا أعرف فتى مراهقا كانت له قدرة هذا الصبى على التميز بكل إحكام بين ما يكنه له البعض من المحبة وما يساور البعض الآخر من الضيق به ، فكان يحب من يجب أن يحبهم ويجانب من يجب أن يبتعد عنهم ، ولا شك فى أنه كانت لديه علامات تخفى علينا هى التى تهديه فى تصرفاته . راقب حبيبين يتصالحان بعد خصام فلن تسمع منهما إيضاحات شفوية تهدئ من غضبهما وإنما تصعد فجأة زفرة تتولد عنها ابتسامة ، وتتلاقى النظرتان ويتقارب الجسمان وإذا كل منهما بين ذراعى الآخر وكل منهما موقن بهذا الوفاق أكثر مما لو جاء الصلح على أثر مناقشات وخطب طويلة .

٣ — التفكير بكلمات

نخرج مما تقدم بأن هناك تفكيراً جسديا يوجه أعمالنا توجيها عجيب الإحكام ، ولكن المدى الذى يصل إليه هذا التفكير ليس بعيداً فالخلد (الفأرة العمياء) يفكر جيداً بأرجله ولكن تفكيره هذا لا يصل إلى أبعد من المدى الذى تصل إليه هذه الأرجل فهو لا يعرف ولا يفهم أن أكوام التراب المتعددة البشعة التى تتكون على الحشائش الخضراء إنما هى نتيجة لحفره هو فى أرض البستان كما لا يفطن إلى حقد البستانى عليه ولا يتصور عواقب هذا الحقد على أبناء جنسه . ويأتى الطيار بأعمال غير إرادية فى منتهى الدقة ترشده إلى وقت النزول وتمكنه من الهبوط إلى الأرض سالما . هذا إلى أنه من المؤكد أن أيدى الطيار ليست هى التى اخترعت الطائرة .

أما رجل الدولة المكلف إدارة شئونها المالية فإنه لا يستطيع أن يفكر بجسمه ولا يستطيع أن يكتفى بتكوين صور فى ذهنه لما سيقوم به من الأعمال كما فعل لاعب الجمباز ، لأن الصور التى تثار فى الذهن فى هذه الحالة لا يكون لعددها حصر ، فإذا كان عليه أن يقوم بتحسين الحالة الاقتصادية لملايين من الناس فلن يستطيع أن يقول : « سأعمل كذا لأجل التاجر الفلانى أو الفلاح

الفلانى أو الماطل الفلانى بل لا بد له أن يستعيض عن هذه الصور المعينة المحدودة للناس والحقول والبيوت والأعمال برموز وإشارات تمثل تارة إنسانا أو شيئاً وتارة طبقة بأكلها من الناس هذه الرموز والإشارات هى الألفاظ والأرقام .

إن الرجل الذى يفكر بيديه كالصانع والحاوى ولاعب الجمباز إنما ينقل أشياء ثقيلة ذات مقاومة كالأحجار والكرات أو ينقل جسمه بالذات ، أما الرجل الذى يفكر بكلمات فإنه لا ينقل سوى أصوات أو إشارات مما يجعل عمله الجسمانى يسيرا إلى درجة عجيبة خذ مثلا : أنت جالس فى الفندق صباحا ، فتدق الجرس وتنطق بكلمة « شاى » فلا تمضى بضعة دقائق حتى يكون أمامك فنجان وصحن وملعقة وخبز ولبن وشىء من المربى وأبريق الشاى وماء ساخن . فكر فى تلك الأعمال الواقعية المعقدة التى استلزمها تقديم كل هذه الأشياء اليك واستحضر فى ذهنك صور أولئك الصينيين يزرعون الشاى وينتقون أوراقه ، والسفينة التى حملت الشاى إلى بلدك وربان هذه السفينة وبحارته وسط إعصار من أعاصير المحيط الهندى صمدوا له وجالدوه ثم صورة ذلك الفلاح الذى قاد أبقاره إلى المرعى وجامع اللبن من القرى ثم الخباز الذى صنع لك ذلك الخبز والقرويات اللائى جمعن البرتقال الذى صنع منه هذا المربى . إنها كلمة مركبة من مقطع واحد جعلت كل هذه المخلوقات فى خدمتك . إن أثر الرجل الذى يفكر بيديه فى الكون

محدود فهو لا يستطيع أن يؤثر إلا فيما يلمسه أما الرجل الذى يفكر بكلمات فإنه يستطيع بغير مجهود أن يحرك جيوشا بل أمما بل قارات بأكملها . فينطق رئيس دولة من الدول أو رئيس حكومة من الحكومات بكلمة « تعبئة » وإذا بهذا المجهود الضئيل الذى لم يتطلب سوى حركة من شفتيه لا تكاد تلحظ قد أخرج رجال أوروبا من ديارهم وانتزعهم من أسراتهم وإذا به قد أطلق فى الجو أسرابا من قاذفات القنابل تدمر مدنا عاشت ألوف السنين فكأنه بذلك قد قضى بدمار عالم وعمل على فناء مدنية . فإذا ما فكرنا فيما يستطيع الإنسان أن يحدثه بكلمة واحدة من الآثار البعيدة عرفنا لم كان للغة عند الشعوب البدائية تأثير سحرى .

كان الهنود الذين رسمهم كپلنج فى قصصه يبحثون عن الكلمة التى تكون لها السيادة والتى تمنحهم السلطان على الناس والأشياء . وكان فاوست يتصفح كتب الكيمياء القديمة ليعثر على التعاويذ السحرية التى تُستحضر أو تُصرف بها الشياطين . ويحدثنا القصاص فى كتاب ألف ليلة أن كلمة « سمسم » كانت كفيلة بفتح الأبواب المغلقة الضخمة . نعم إن هذه مجرد أسطورة ولكنها أسطورة تمثل الواقع ، ففى كل جماعة بشرية توجد كلمات تفتح الأبواب المغلقة وكلمات تطلق أبالسة الشر من عقالها . فالخطيب يهيج سامعيه بكلمة من طراز كلمة « سمسم » وتوقظ الفتنة النائمة بكلمة من كلمات السيطرة ذات السر العظيم .

إن الرجل الذى يفكر بيديه ينقل أشياء ثقيلة كما قدمنا فهو ينقلها حجرا حجرا وحركة فى إثر حركة لحرصه مضمون بصعوبة أعماله نفسها وحاجته إلى ضمان هذا الحرص فى إنجازها . ولا مفر له من مراعاة ذلك التوافق بين عالمه الباطنى والعالم الخارجى الذى رأينا أنه الضمان لسلامة التفكير ، لأنه إذا لم يلتزم مراعاة هـذا التوافق تهشمت يداه بثقل الأحجار أو أفلتت الكرة من يديه أو سقط من العقلة التى يلعب عليها . أما الرجل الذى يفكر بألفاظ فإن الأعمال بالنسبة له سهلة ، والفترة التى تنقضى بين خطئه وظهور نتائج هذا الخطأ عادة طويلة لا تجعله يقدر مسئولياته ؛ فهو إذ يلعب بهذه الرموز الخفيفة لا تخطر بباله الأثقال الرهيبة التى يجرها وراءه كل رمز من هذه الرموز فهو كما قال ليبنتز « تصرفه سهولة النطق بالكلمات عن إدراك حقائق الأمور » ويحسب أنه متى نطق بتلك الكلمات فقد تم كل شىء ، وعلى أحسن حال . ومصدر بلائه كله أن الأشياء تأبى أن تخضع خضوعا مطلقا للكلام ، والقول أمر يسير على كل حال فقد قال نابليون الثالث . « لا بد أن يحترم مبدأ القوميات » ولم تكن هذه سوى قالة ولكن هـذه القالة المطلقة — التى كانت تبدو كأنها حق لأنها لم تكن تثير فى الذهن صورة دقيقة — قد مزقت أوروبا الحديثة .

وقد يجلس الاقتصادى إلى مكتبه ويتناول قلمه ويكتب : « زيادة الأجور تستتبع زيادة قوة الشراء وتقضى على الأزمة » . هذه

ألفاظ تنسجم فيما بينها انسجاما كاملا ويبدو عليها طابع الأفكار السليمة فينطق بها ذلك الاقتصادى فى أتم اقتناع . ولكن الحركات التى استتبعتها هذه الكلمات لم تضع فى الواقع حدا لهذا الاضطراب الاقتصادى . لماذا ؟ لأن الميكروكسم (العالم الباطنى) الذى صدرت عنه لم يستطع أن يرغم الماكروكسم (العالم الخارجى) على متابعته إذ كان هناك خلاف بين الكلمات والواقع إذ كانت الكلمات بسيطة مسرفة فى البساطة فى حين كان الواقع معقدا تعقيدا لا يتفق مع بساطتها .

٤ — المنطق والتدليل العقلى

إذا كانت وسيلتنا إلى الحكم على صحة الأحكام والقوانين هى انتظار ما يترتب عليها من السعد أو النحس فإن ذلك يكون فى منتهى الخطورة ، لذلك كان من الطبيعى منذ بدء الحضارة أن يبحث العقلاء عن طريقة مأمونة لتناول هذه الرموز (أى الكلمات) القابلة للانفجار فعمد الناس إلى تنظيم حركة الألفاظ كما ينظمون اليوم حركة المرور . هذه الطريقة هى ما سموه فيما بعد علم المنطق . أرادوا أن يكون هذا المنطق هو الفن الذى يتبع عند تحريك الكلمات على مقتضى قواعد معينة تكون فى ذاتها هى طريق الأمان ، لأنها قواعد العالم الباطنى التى تتفق مع قواعد العالم الخارجى . فما نسميه قواعد العقل الإنسانى هى بضعة ضوابط

للفكر تكون صحيحة بالنسبة لجميع الناس فى جميع الأزمنة ، وبعض هذه القواعد بديهى كقاعدة عدم التناقض : فالشىء وضده لا يمكن أن يكونا فى نفس الوقت شيئاً واحدا فلا يمكن أن يقال « إن اثنين واثنين أربعة » ، ثم « أن اثنين واثنين خمسة » ولا يمكن أن يقال : « ان هذا الثوب أبيض وأسود فى نفس الوقت » . أو : « أريد أن يكون هذا البلد حراً » وفى نفس الوقت . « أريده أن يكون مستعبدا » .

وقد اتجهت آمال الإنسانية زمنا طويلا إلى استنباط « نحو » للفكر يعصمه من الخطأ . هذا « النحو » هو الذى عرف فى العصور القديمة باسم منطق أرسطو وفى العصور الوسطى ، باسم منطق المدرسيين ، وقد كان فى ذاته علما جديرا بالاعتبار لأنه يعصم تفكيرنا من بعض الأخطاء ولكنه لا يكفى وحده لأن يكون فنا للتفكير واليك السبب :

لن يستطيع المنطق أن يخلق شيئاً جديدا ، فقد قضى عليه أن يكرر إلى الأبد أن « ا » هى « ا » واذا أضاف شيئاً فلن يستطيع أن يستعير هذا الشىء إلا من التجربة أو من الإلهام وكلاهما لا يخضع لسلطانه لأن هذا المنطق يجعلك قادرا على أن تقول « إن هذا ثوب » ولكن التجربة وحدها هى التى تمكنك من أن تقول ، « إن هذا الثوب متين » أو « أنه سريع البلى » أما أن تنتظر أن العقل المجرد يستطيع أن يستغنى عن التجربة فهذه خرافة

قضى عليها الفليسوف كانت بقوله : « لما كان العقل مدفوعا عليه إلى توسيع أفق معلوماته لثقته فى قدرته الذاتية فقد خيل إليه أنه محيط بعالم اللانهاية الذى ينفسح أمامه . فمثله كمثل الحمامة ، وهى الخفيفة الوزن عندما تشق الهواء بطيرانها السريع وتشعر بمقاومة ذلك الهواء لها فيخيل لها أن طيرانها فى الفراغ سيكون أسهل » . وعلى نحو شبيه بذلك ضاق أفلاطون بعالم الحس الذى يحصر العقل فى حدود ضيقة فاندفع مخاطرا فيما وراء ذلك من آفاق التفكير المطلق ولم يدرك أنه لن يتقدم برغم مجهوداته إذ تنقصه نقطة الارتكاز اللازمة التى لا مفر له من الاعتماد عليها ومنها يمكن أن ينتقل إلى مجال العقل المطلق . ويضطرب الكثيرون من مصلحينا السياسيين بغير جدوى فى فضاء العقل المطلق وهو ليس فى الواقع سوى فراغ .

لا جدال فى أن المنطق قد روض العقول وألانها وأكسبها سرعة لم تكن لها من قبل ولكنه أورثها فى الوقت نفسه عادة خطرة وهى أنها اعتقدت أنها تستطيع أن تكسب كل شىء متى جاءت بدليل عليه مظاهر الصدق . ولكن تاريخ المذاهب يدلنا على أن الناس قد استطاعوا على توالى العصور أن يبرهنوا على صحة كل شىء تقريبا ، فقد أثبتوا صحة فلسفات متناقضة ، ثم أثبتوا خطأها ، كما أثبتوا لزوم الديمقراطية ، ثم أثبتوا استحالتها ، وأثبتوا تميز الأجناس البشرية ثم اثبتوا اختلاطها . قال الفيلسوف

آلان : « ليس عندى لأى دليل قيمة أو اعتبار » وفى الواقع يمكن إقامة الدليل على صحة أى شىء متى كانت الكلمات المستعملة لم تحدد معانيها بوضوح .

فى علم الجبر يكون البرهان دقيقا لا ينقض ، لأن كل تعبير محدد بدقة تجعل المدلل لا يستطيع أن يضيف شيأ من عنده إلى ما يفهمه السامع من هذا التعبير ، فالمتطابقات هى متطابقات صحيحة حقا . ولكن الألفاظ التى تصلح للتعبير عن المشاعر وعن سياسة الدول وعن شئون الاقتصاد هى الفاظ مبهمة يمكن استعمالها عند التدليل بمعان مختلفة فمثل التعبير بلغة غير محكمة الوضع كمثل القياس بأوزان مزيفة .

٥ — طريقة ديكارت

هى محاولة لتخليص التدليل المنطقى من بعض أسباب الخطأ .

قال ديكارت : « كانت لى رغبة شديدة فى أن أتعلم كيف أميز الخطأ والصواب لأتبين أعمالى بوضوح فأسير بأمان فى هذه الحياة »

فلنستعرض الآن تلك القواعد الشهيرة التى هى جماع فن تفكير هذا الفيلسوف .

Imp.

أولى هذه القواعد هى : « لا تقبل شيئاً على أنه حقيقة ما لم تتبين بداهة أنه كذلك » . ربما خيل إليك أن هذه القاعدة غاية فى البساطة فقلت : « كيف أقبل شيئاً على أنه حقيقة إذا كنت

لا أعتقد أنه كذلك ؟ »

فيجيبك ديكارت بقاعـدة أخرى وهى : « إياك والتسرع ثم إياك والتحيز » . أما عن التسرع فلأن الإنسان لا يستطيع أن يفهـم الصعب بسهولة ، فالطالب الذى يتخطى صفحات بأكملها من كتاب فى الهندسة سيظل جاهلا بعلم الهندسة . ولـكن الناس خلقوا عجلين : بعضهم بضغط الضرورة ، فهؤلاء طلبة عليهم أن يؤدوا امتحانا فى ميعاد معين ، فعليهم أن ينتهوا من دراسة علم من العلوم أو عصر من عصور التاريخ من الآن إلى أن يجىء يوم الامتحان ؛ وهذا خبير حدد لتقديم تقريره يوما معينا والحـكومة فى انتظار هذا التقرير فإذا تأخر تقديمه اضطر رجال الدولة إلى اتخاذ قرارات مرتجلة ، فالأفضل فى هـذه الحالة أن يقدم تقرير ناقص عن ألا يقدم تقرير بالمرة . وهذا صحفى يود لو يفسح له فى الوقت بضع ساعات لدراسة موضوع جديد غامض ولـكن عمال المطبعة يستعجلون مقالته عن هذا الموضوع ويجب أن تدرك الجريدة القطار فى وقت معين . وبعض الناس يتسرع بدافع الغرور : يكبر عليهم أن يعترفوا بجهلهم للأمور : هذا أحصائى يرى العار أن يقول : « سأبحث » أو « سأستعلم » .

أنصت إلى ما يجرى فى المجالس النيابية وفى الصالونات وفى مجالس النقابات تر كيف يحكم الناس على الأمور بلهجة الاقتناع فواحد يحدثك عن تشيكوسلوفاكيا أو أتيوبيا أو المجر وهو لم يزرها بل لم

يطلع على تاريخها ولم يدرس أخلاق أهلها . وثان يحقر من شأن سلاح الطيران فى بلاده ولا يعلم عنـه سوى ما سمعه من أقاويل استقاها ممن لا يوثق بهم وثالث يقع فى عرض امرأة فيحدثك عنها بكل ثقة أحاديث ويقص عليك روايات كلها كذب وبهتان مع أنه من الميسور أن ترتفع هذه الأحاديث عن مستوى هـذا الإسفاف باستعمال كلمتين اثنتين : « لا أعرف » أو تلك العبارة الأثيرة عند لويز الرابع عشر : « سأرى » فلو أننا عاهدنا أنفسنا على ألا نتخذ قرارا على أثر دهشة أو نندفع فى إصدار حكم جرىء لخطونا خطوات واسعة نحو حكمة ديكارت . وليس الاندفاع وحدة هو سبب الخطأ بل هناك سبق الظن أو التعصب أو الميل مع الهوى ، فنفوسنا ليست مرايا مستوية بل هى مرايا مشوهة لا تستقبل الأمور بصفحة نقية بل بصفحة قد اختلطت عليها تقاليد الأسرة والنعرة الحزبية ثم هناك الطبع والوراثة والتربية وكلها تفرض علينا أحاسيس معينة .

أتحب أن تقف على مدى تأثير الأهواء الحزبية فى عقلك ؟ استعرض لنفسك تلك الأحكام المتتالية التى كنت تصدرها على كليمنسو وكايو ودلادييه تبعاً لما كانت تخلعه عليهم جرائد حزبك من لون إن ابيض فابيض وإن أسودَ فأسودُ . لقد كنت تعبدهم أو تحقد عليهم بسلامة نية لا بسلامة نظر .

ومصلحتنا ، هى الأخرى سبب من أسباب ميلنا مع الهوى

قال بسكال : « لو أن الهندسة كانت تتعارض مع شهواتنا بقدر ما تتعارض السياسة مع هذه الشهوات لما وصلت البراهين الهندسية إلى هذا الإحكام » . أين هم الذين إذا عرض عليهم مشروع قانون بفرض ضريبة من الضرائب لا يحسبون ما ينالهم من هذه الضريبة قبل الموافقة على القانون المطروح للمناقشة ؟ إنهم أقل من القلة فكل ما يساير أميالنا وشهواتنا نراه حقا وعلى العكس كل ما يعارضها يغضبنا . أمعن النظر مثلا فى حياة شاتوبريان السياسية ، تر أن الثورة الفرنسية جعلته وهو فى منفاه من أنصار الملكية الدستورية على النمط الإنجليزى ولما عادت الملكية إلى فرنسا وحاول لويس الثامن عشر أن يجعل حكومة فرنسا على هذا المثال كان المنتظر من شاتوبريان أن يؤازر مجهودات الملك من كل قلبه ، ولكنه كان منقاداً لشهواته وكان حاقدا لأنهم لم يعهدوا إليه بتنفيذ هذه السياسة ولأنهم عاملوه معاملة غير عادلة ولهذا حنق حنقا شديدا على الملك وعلى ديكاز وعلى قليل من بعده . ومن ثم نراه قد انساق إلى محاربة عقيدته الأولى نفسها ببراهين كانت تبدو مقنعة لما فى أسلوبه من بلاغة ولكنها براهين بغيضة فى الواقع . وليس يجر المرء إلى السخف والتناقض شىء مثل الهوى . فمتى تحكم الحب أو البغض سار العقل فى ركابه واصطنع من الأسباب مايبرر حماقاته ما دام فى استطاعتنا أن ندلل على كل شىء بالقوة متى شئنا .

يظن البعض منا أنه مستقل عن رأى أهل بلده أوالوسط الذى

يعيش فيه لأن الحوادث التي صادفته فى حياته قد أوحت إليه بشعور من التمرد ولكن المداوة ليست ضمانا لاستقلال الرأى بل هى على النقيض من ذلك حالة حادة من حالات التحيز . ترى الكاتب الذى ذاق مرارة طفولة معذبة ينزع إلى التفاخر بحرية الفكر بأن يطعن فى الأديان وفى روابط الأسرة ولكن ثورته على هذه النظم لن تكون إلا كثورة العبيد . ويخيل إلى المهاجر الذى يترك بلده أنه يصدر فى تصرفه عن استقلال فكر بطعنه فى ذلك الظالم الذى هجر البلد فرارا من ظلمه ، ولكن هل له الصفة التى تخوله الحكم على بلد أساء إليه وعلى طريقة الحكم فى هذا البلد ؟ هذا ما لم يكن ليسلم به ديكارت ، فإن بعض الناس يفكر متأثرا بعصبيته وبعضهم يفكر بعكس هذه العصبية والشكلان مختلفان ولكنهما متساويان فى التحيز والذى ينصحنا به صاحب كتاب « مقالة المنهج » (وهو ديكارت) هو أن نخلص عقلنا من الشهوات قبل كل شىء ثم نحسن استعماله بعد ذلك ، ووضع لنا ديكارت لذلك بعض القواعد مثل : (١) أن نلتزم الترتيب فى قيادة أفكارنا فنسير بها من أبسطها إلى أعقدها (٢) أن نقسم الصعوبة ما أمكنت التجزئة (٣) أن نحصى كل جزئية ونستعرض الموضوع استعراضا شاملا حتى نتأكد من أننا لم نغفل شيئا .

وقد أدت هذه الطريقة إلى نتائج باهرة : (أولا) فيما يختص بديكارت نفسه ، ثانيا فيما يتصل بالعلماء المعاصرين له الذين ساروا

على منهاجه فقطعوا شوطا بعيدا فى الرياضيات والميكانيكا والفلك وفى جزء كبير من علم الطبيعة. وما زالت هذه القواعد قائمة. وقد صدق بيجى حين قال: « لم يقض كانت على ديكارت كما قضت عجلات المطاط الجوفاء على عجلات المطاط الصماء. ولقد ظلت طريقة ديكارت ناجحة نجاحا عجيبا سواء أكان على العقل أن يكشف عن قوانين نفسه كما فى الرياضيات أم كان عليه أن يدرس ظواهر بسطها التعميم وقياس الأبعاد كما فى علم الفلك ولم ير أحد أنها عديمة الفائدة بل كان أقصى ما لوحظ عليها أنها لا تكون كافية عندما يراد تطبيقها على علوم أخرى أكثر تعقيداً. فى جزء كبير من علم الطبيعة وفى الكيمياء والطب والبيولوجيا (علم الحياة) وفى السياسة والاقتصاد لا تمكننا طرق ديكارت من حل الصعوبات ولا تكفى لتوجيه أعمالنا ولو أنها ما زالت تعتبر ضابطا ضروريا. فكيف نسير بأفكارنا بالترتيب عندما يكون عامل الوقت هو العامل المسيطر فى الموضوع مثلا؛ ثم كيف نستطيع أن نقسر أنفسنا على ألا نستبعد شيأ إذا كانت عناصر المسألة تفوق الحصر؟ إن طريقة ديكارت ترسم فى أذهاننا عالما صغيرا من البللور والصلب تتشابك أجزاؤه بإحكام عجيب، ولكننا نعلم أن العالم الخارجى الفسيح لم يخلق على صورة هذه الساعة الدقيقة الشفافة؛ فأوراق الشجر التى تلعب بها الرياح وهذه السحب التى تكتسحها العاصفة وأعمال الحقول وأهواء سكان المدن لا موضع لها فى هذه الطريقة

٦ – الطريقة التجريبية

هـذه بذرة تفاح . فأى تدليل عقلى مهما كان محكما وبعيداً عن التسرع مبرءا عن التحيز سوف يعيننا على تقدير ما ستكون عليه الشجرة التى ستخرج منها أو طعم الثمار التى ستحملها ؟ وهذه جرثومة (ميكروب) غير معروفة ، فهل هناك قياس منطق أو نظرية تجعل فى قدرتنا أن نصف المرض الذى ستحدثه فى جسم الشخص الذى سيصاب بها ؟ هذه أسئلة لاتوجه إلى العقل بل توجه إلى الطبيعة نفسها أى إلى عالم الأشياء . إن الطريقة التى جعلت للإنسان منذ قرنين تلك السيطرة على العالم الخارجى إنما هى مزيج من المنطق والمشاهدة والتجريب . وهى لا تخلو من التدليل العقلى ولـكن نتائج هـذا التدليل يجب أن تقارن دائمـا بالواقع المحسوس فإن طابقته كانت مقبولة وإن تعارضت معه كانت مرفوضة بغير هوادة .

تنسب الطريقة التجريبية أحيانا إلى بيكون إذ ربما كان هو أول من وضع قواعدها ولـكن الواقع أن الناس كانوا يمارسونها منذ القدم من غير تفكير ، فـكل إنسان من المتوحشين كان يقوم بعملية التجريب دون أن يشعر كما كان المسيو چوردان يتكلم بالنثر من غير أن يعرف . وليس منا من لا يمارس طريقة التجريب عدة مرات كل يوم . هذا مكتبى قد هاجمته الزنابير فى الصباح ، ماذا أصنع ؟ إننى أبحث أولا عما عساه يجتذبها إلى ناحية المكتب .

ربما كانت هى رائحة تلك القرنفلات التى على المنضدة . ثم يعن لى صدفة أن أخرج الأزهار من الحجرة فأفعل فتختفى الزنابير فى بضع دقائق . ثم أعمد إلى البرهان العكسى بأن أضع نفس الأزهار فى الحجرة المجاورة ، وإذا الزنابير تعود . وعلى ذلك أكون قد اكتشفت أحد قوانين الطبيعة فآمر بناء على ذلك ألا توضع هذه الأزهار على منضدتى فى مثل هذا الفصل من السنة .

والطريقة التجريبية بسيطة جدا متى اقتصر الإنسان منها على العناصر الأساسية ، وتنحصر هذه العناصر كما قال كلود برنار « فى إخضاع أفكارنا بنظام إلى امتحان الحوادث » فإن مشاهدات خاصة توحى إلينا بفروض خاصة عن العلاقات بين الظواهر . ولتحقيق صحة هذه الفروض يقوم العالم نفسه بمشاهدات جديدة أكثر دقة . ويقول كوڤييه : « أن من يقوم بالملاحظة يصغى إلى الطبيعة فى حين أن من يجرى التجارب يستجوبها ويرغمها على كشف قناعها ، يغير علة ظاهرة من الظاهرات مثلا ويسجل أمامى أما يطرأ على النتيجة من تغير فإذا لاحظ علاقة ثابته بين العلة والنتيجة تحقق من وجود رابطة بينهما . ولكن الخطأ محتمل الحصول يفوتنا أن هذا الأمر قد أعقب حدوث ذلك فيكون قد حدث بسببه إذن » بديهى فى ظاهرة ولكنه كثيرا ما يكون قاعدة صحيحة فإذا تصادف وقوع حرب عقب كسوف للشمس فلا يكون ذلك دليلا على أن الكسوف قد سبب الحرب . ومن طريف

ما يحكى فى أكسفورد قصة ذلك الطالب الذى كان يجرع كل ليلة عدة كؤوس من الويسكى بالصودا يجد أن ذهنه قد تشوش بعدها فترك الويسكى وصار يتعاطى البراندى بالصودا فوجد أنه مازال يسكر ، ولم تتغير الحال عند ما شرب لجن بالصودا ، فقال : « لم يعد هناك شك . أنها الصودا الملعونة » . ولوأن هذا المخدوع بتجربته كان أكثر تعقلا لحاول امتحان النتيجة التى وصل إليها بحذف الصودا وتناول الويسكى فالبراندى فالجن على التوالى وا كتشف ما وقع فيه من الخطأ . فالعالم هو شخص يستنتج من مشاهداته ومن تجاربه فروضا عن الروابط الثابتة بين الظواهر ، فإذا امتحن هذه الفروض بكل التجارب التى يمكن إدراكها وثبت له اطرادها اعتبرها بصفة مؤقتة قوانين طبيعية . مثال ذلك أننى كلما تركت شيئا فى الهواء على مسافة من الأرض رأيته يسقط عليها وقد ظهر أنه يمكن أن تقاس سرعة سقوطه وأن « عجلة » السقوط فى مكان معين ثابتة ، وعلى هذا نسلم بوجود قوانين لسقوط الأجسام . وليس يعد العلم — الذى هو مجموع أمثال هذه المشاهدات — تفسيرا للكون بحال ، وإنما هو كما قال . فاليرى « مجموعة وصفات نجحت » ومن الجائز ألا تنجح هذه « الوصفات » فى المستقبل . فإذا حدث فى هذه اللحظة مثلا أننى تركت الكتاب من يدى فصعد إلى السقف بدلا من أن يسقط على الأرض فإنى سأدهش لذلك ولكن العلم فى الوقت نفسه لن ينقلب رأسا على عقب ، وإنما

يكون المطلوب أن نبحث عن قانون أكثر تفصيلا يدخل فى حسابه هذه الظاهرة الجديدة .

لا يفرض العلم التجريبى سوى فرض واحد وهو ثبات قوانين الطبيعة ، فإذا لم نعتقد أن العالم يخضع — أو يلوح أنه يخضع — لقوانين ثابتة لم تكن هناك فائدة من ملاحظة الظواهر ، فإذا كان الماء تحت ضغط ثابت يغلى يوما فى درجة ٥٠ ويوما فى درجة ٧٥ ويوما فى درجة ١٠٠ من غير أن نكتشف وسيلة للتنبؤ بهذه التغيرات لم تكن هنالك أية فائدة من دراسة علم الطبيعة : ولكن الأمر ليس كذلك لحسن الحظ . فإن الظواهر الطبيعية تبدى ثباتا عجيبا . لماذا ؟ هنا نجد لكل من الباحث فيما وراء الطبيعة وعالم اللاهوت وعالم الرياضة نفسه تعليلات مختلفة لهذا الموضوع ، أما الباحث التجريبى فلا يدرى عن هذه التعليلات شيئا ، وماذا يهمه من أمر هذه التعليلات ؟ إن لديه أمرا مقررا وهو أن الطريقة التى تنحصر فى مشاهدة الظواهر واستخلاص فروض من هذه الظواهر والتحقق من صحة هذه الفروض بالتجربة وأهمالها إذا لم تثبت صحتها ثم تسيير أعمالنا بمقتضى هذه القوانين الواضحة الثبات ، هذه الطريقة التى قال عنها باكون أنها تتسلط على الطبيعة بالخضوع لها قد أتت بالعجائب .

تسمح الطريقة التجريبية للإنسان أن يكون أقوى من

الإنسان[١] إذ أنها تقيم علاقات ثابتة بين بعض الظواهر التى فى مقدور القوى الإنسانية أحداثها وبين بعض الظواهر الأخرى التى تتطلب من الإنسان قوى فوق طاقته لو أراد أحداثها بطريقة مباشرة. فإذا ضغط صبي بأصبعه على زر صغير لحرك جميع الآلات الموجودة فى أحد المعارض مثلا ، فإن هذا المنظر يكون رمزا لما يضعه العلم من القوم فى خدمة أصغر أبناء آدم ، وهى قوة مدهشة حقا ! إنه لما يستحق الإعجاب أن تصل حشرة صغيرة قذف بها وسط هذا الكون على قطعة من الطين لا إلى قياس البعد بين كرتها الصغيرة والعوالم الأخرى فحسب بل إلى تغيير جو هذه الكرة ونباتها وحيوانها فى بضع سنين . من العجائب حقا أن يصنع هذا المخلوق الضئيل من الآلات ما يطوف حول كرته فى ساعات ، بل من العجائب أن يتغلب على البرد والظلام والجوع .

أعود فأقول . أن الطريقة العلمية لا تفسر أسرار الكون ولن تفسرها أبدا ، ولكن من الطبيعى أن الكثير من الناس يتساءلون — عند ما يرون السلطان الذى يسرته هذه الطريقة للإنسان على الظواهر الطبيعية والكيمائية حتى البيولوجية — لم لا يطبق على الجماعات الإنسانية هذا الفن من فنون التفكير الذى قدر له كل هذا التوفيق عند ما طبق على العالم الطبيعى ؟ لم لا تكون

---

(١) أى أنها تعطى الإنسان قوة فوق قوته .

نفس هذه الطريقة — التى أدت إلى خلق هذه المصانع الهائلة بآلاتها الضخمة من الصلب والنحاس التى حلت محل الأيدى البشرية — صالحة لإسعاد من استغنى عنهم بتلك الآلات؟ لم لا تكون الطريقة التى مكنت من خلق سلالات من الحيوان وأنواع من الزهور كفيلة أيضا بخلق السوبرمان؟ كان اللورد سالزبرى إذا رأى أبناءه يتكلمون بحماسة فى السياسة قال لهم: «فلنحاول أن نفكر فى هذا الأمر بطريقة الكيميائيين» يقصد بذلك: «فلنعامل العناصر الإنسانية كما نعامل العناصر المادية فى تجربة كيميائية: فلا نتعجل الحكم على نتيجة التجربة، بل نضع المواد فى البوتقة ونسخن ونراقب التفاعل، فإذا جاء مخالفا لعقيدتنا تركنا هذه العقيدة» وهكذا تكون سياستنا للناس سياسة علمية. ولكن هل هذه السياسة ممكنة؟ وهل يكون العلم بالنسبة للناس هو الكلمة الأخيرة لفن التفكير؟.

٧ — وجوه النقص فى الطريقة التجريبية

ينبغى أن نقرر آسفين أن الطريقة التجريبية لم تهيئ لنا — بعد عشرات السنين فاضت بالآمال الكبيرة وتوقع رينان فى مطلعها أن يرى كوكبنا وقد حكمه أعضاء من المجمع العلمى وتخيل برتراند رسل فى نهايتها أنه سيأتى يوم تصنع فيه آلة تستطيع أن تحدد على وجه الدقة ما حدث فى يوم كذا وفى ساعة كذا من التاريخ،

وماسيحصل فى يوم كذا وساعة كذا فى المستقبل لم تهيىء لنا إلا النذر القليل من النتائج الموفقة فى ميدان الأخلاق والحياة السياسية والاجتماعية بعد أن منحتنا السيطرة على العالم الخارجى . ومن اليسير أن ندرك الأسباب :

١ — يستلزم التجريب وجود نظام مقفل أى محدود يمكن عزله بطرق صناعية ، فإذا أردنا أن نعرف الشروط التى يجب توافرها لغليان الماء اتخذنا لذلك مجموعة من الأشياء : مصدر حرارى وإناء وماء ، ووضعنا ذلك كله تحت ضغط معين ، وبذلك نكون قد أبعدنا هذه المجموعة عن معظم المؤثرات الخارجية . ولكن كل تجربة من هذا النوع تصبح مستحيلة إذا أردنا إجراءها على جماعات من الناس معقدة التركيب لا نستطيع أن نجزئها لنحصل منها على مجموعة مقفلة يمكن أن تعزل عن باقى الجماعة .

٢ — يقتضى التجريب أن تكون التجربة من النوع الذى يمكن تكراره عند اللزوم ثم اختباره بتجارب مضادة وتجارب مؤيدة ، ويصعب توافر هذه الظروف فى علم النفس ويستحيل توافرها فى علم الاجتماع . فمثلا : من هو السياسى العاقل الذى يحاول أن يحذف من المجتمع طبقة من المواطنين ليرى ما يحدث بعد ذلك وأين هو الشيوعى الأمين الذى يسلم بإعادة الرأسمالية فى سبيل الوصول إلى تجربة مضادة نزيهة ؟ .

٣ — تستوجب الطريقة التجريبية حسن نية المجرب وحياده التام . وهذه فضائل لا تتوافر إلا نادرا فى القائمين بالتجارب العلمية التى يلوح بطبيعتها أنها لا تثير شيئا من الشهوات الجامحة : فهى تصبح فوق طاقة البشر متى لعبت بها الميول والأهواء . يستلزم البحث التجريبي ألا يتشبث العقل مطلقا بفرض من الفروض مدفوعا بشهواته ، فقد قيل : « إذا كان الواجب الأول على العالم أن يكتشف طريقة ما فإن واجبه الثانى هو أن يقف منها موقف المعارض أو أن ينظر إليها من غير تحيز على الأقل . ولكن الإنسان إنسان ، وكل ما يعتقد أنه أوجده لا يعده غريبا عنه . فإن بوشيه مثلا ، لم يكن يريد أن يسلم بأن الحق فى جانب بستور وذلك العالم الذى ظن أنه كشف عن أشعة « ن » لم يكن يريد أن يسلم بأنه أخطأ . وقد يحدث أن الرغبة فى كشف قانون خاص تجر الباحث بغير علم منه إلى الانحراف بنتائج تجربته إلى الوجهة التى يتمناها . وفى ميدان الطب يعتقد كل إخصائى — بحسن نية فى الغالب — أن حالة كل مريض تدخل فى اختصاصه ، فيقول لك الطبيب النفسانى : « إن كل الأمراض على وجه التقريب هى أمراض نفسانية » ويرى الإخصائى فى أمراض الغدد الصماء أن هذه العلة أو تلك منشؤها هذه الغدد ، بينما يرى الإخصائى فى أمراض المعدة أن هذه العلة داخلة فى اختصاصه ، مع أن الطب فى بعض نواحيه هو علم موضوعه جسم الإنسان المحدود الذى يمكن

عزله ولو جزئيا عند التجربة ، ولكن عندما تكون شهوات الملايين من الناس وتفاعلاتهم هى موضوع الفحص والعلاج — كما يحدث فى الأمور الاقتصادية أو السياسية — يستطيع الإنسان أن يؤيد أكثر النظريات تناقضا ، فنى استطاعتك أن تقول إن التجربة قد أدانت الاقتصاد الحر الذى ساد فى القرن التاسع عشر بدليل أن هذه الحرية قد أدت إلى الاشتراكية أو الشيوعية فى الوقت الحاضر ، كما يمكن فى نفس الوقت أن يقال إن التجربة قد أدانت الاشتراكية أيضا ، إذ أن هذه الاشتراكية انتهت مرغمة إلى تعضيد ونشر أشكال من الملكية الفردية بين الجماعات التى كانت تغزوها زاعمة أنها ترمى إلى إنقاذها من الإفلاس الشامل .

فهل فى الإمكان استنباط قوانين من أمثال هذه التجارب ؟ لا بلا شك لأن ما يثبت صحة التجارب العلمية هو كثرتها وإمكان إعادتها ، ولكن كل تجربة فى الاقتصاد تستغرق أعمار أجيال من الناس ، فما يسمونه تجربة روزفلت وتجربة بلوم ما هى إلا بعض أوجه من دورات أبهظ كلفة من أن نمضى فيها باختيارنا وأبعد مدى من أن نحيط بها إحاطة تامة وأشد غموضاً من أن تتعلم منها الأجيال المقبلة التى لن يكون موقفها مماثلا لموقفنا بحال .

وما يصح فى الاقتصاد يصح أيضا فى السياسة ؛ قيل لنا : إن انجلترا قد جربت الديمقراطية وانتهت تجربتها بنتيجة سعيدة . وليس فى هذا الدليل ما يمت إلى العلم بصلة ، لأن الأمم الأخرى

تخالف الأمة الإنجليزية ، وليست الديموقراطية إلا لفظا يخفى تحته حقائق أخرى ، وليست حقائق الحياة فى انجلترا هى حقائقها فى فرنسا وأسبانيا وإيطاليا : إن الديموقراطية الإنجليزية تستلزم ظروف الحياة السياسية الإنجليزية التى من خصائصها : ذوق المناقشة والميل إلى التحكيم وتدفق الحيوية فى انجلترا ؛ والاتفاق بين ارستقراطية صريحة يتسع صدرها فتفسح إلى جانبها مكانا للبورجوازية وائتلاف بين البرلمان والعلية من أهل البلاد ، فهى ملكية دستورية .

والمقابلة بين الديموقراطية والفاشية إن هى إلا مقابلة بين لفظين لا بين حقيقتين أو بين تعريفين محددين ؛ فبين الحرية الكاملة والسلطة المطلقة يمكن أن نتصور أنماطا لا اعداد لها من الجماعات الإنسانية وجودها محقق بالفعل . بربك كيف نستطيع إجراء تجارب يكون الغرض منها معرفة ما إذا كانت الحرية أفضل من السلطة المطلقة ، ونحن نعلم أنه ليس هناك مقياس لدرجة الاستعداد للحرية عند إحدى الأمم ؟ ليس معنى هذا أننا لا نأمل فى أن نجد عند كل أمة قدرا ما من الحرية ، وليس معناه أنه ليست هناك حقيقة سياسية ، وإنما معناه أن هذه الحقيقة يجب أن تكشف بطرق غير طرق العلم .

أنفكر كيميائيا فى المنازعات السياسية والاجتماعية ؟ ربما كان من اللازم أن نحاول ذلك ، ولكن الأمانة تقتضينا أن نسلم بأن

هذا يكون من المستحيل فى أغلب الحالات . لهذا نرى الكثيرين من الرجال معقولين ما داموا يتكلمون فى مهنهم ولكنهم يضلون متى انتقلوا إلى المبادئ . عند ما يكون المطلوب إصلاح إحدى التركيبات الكهربائية فإن العالم الصغير الذى يمثل هذه التركيبة فى ذهن المهندس يكون خريطة على درجة من الدقة تسمح لهذا المهندس بأن ينتقل بين الأسلاك والبكرات بكل أمان ، ولكن عند ما يراد إصلاح بلد من البلاد لا تكون هناك أية خريطة لحياة هذا البلد الاجتماعية تسمح لنا بأن نهتدى إلى طريق السعادة والنجاح . كما أن التدليل العقلى المحض أو الطريقة التجريبية المطبقة بكل دقة لن يرشدا وزيرا أو مدير عمل أو قائد جيش .

ومع كل هذا فلا بد أن يعمل هؤلاء ، وأن ينتهوا إلى قرار . فما هى العوامل التى تجعلهم يختارون بين هذا الطريق أو ذاك ؟ يقول آلان : « إن التنفيذ يجب أن يسبق الإرادة » وهى فكرة عميقة نلاحظها بمجرد شروعنا فى العمل ، فالكلب الذى نلقيه فى الماء يسبح ، يسبح قبل أن يريد السباحة ، ونحن جميعا منذ ميلادنا نكون عبارة عن حيوانات صغيرة ألقى بها فى خضم الأمور فتسبح ، تصيب مرة وتخطئ مرة . فالكاتب الذى يشرع فى كتابة قصة لايدرى ما يريد أن يكتب على التحديد ، إذ لو كان يعرف ما يريد كلمة كلمة لكانت قصته قد كتبت من قبل ، والذى يحدث أنه

يلقى بنفسه فى الماء ، وكل فصل يكتبه يملى عليه الفصل الذى يليه، أى أن التنفيذ يسبق العزم .

قد يكون تصميم المشروع قبل تنفيذه شيئا ضروريا ، ولكن وضع المشروعات ليس هو العمل وإننا لنسمع فى المجتمعات خطباء يعرضون مشرعات مدهشة ؛ فيقول أحدهم : لو كنت رئيسا للوزارة ... أو لو كنت موسولينى ... أو لو كنت وزيراً للطيران ... » .

إن وضع مشروع للسلم الدائم عبث أطفال وقد نجح فيه الدكتور ويلسون على أى حال . ولكن المحافظة على هذا السلم فى أوربا مدى شهرين أو سنتين عمل فوق طاقة البشر . قال جيته : «من السهل أن تفكر ومن الصعب أن تعمل ، وأصعب شىء فى الدنيا أن تعمل طبقا لتفكيرك » . ويقول تولستوى : « كتابة عشرة مجلدات فى الفلسفة أيسر من تنفيذ وصية واحدة » . وفى أغلب الحالات العظيمة الأهمية فى الحياة الإنسانية يكون علينا أن نتعرف طريقنا فى تيه الأعمال بينما تنقصنا كل عناصر الخريطة . فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون إذن فن التفكير ؟ .

٨ — الفكرة والعمل

بينا فى أول هذا البحث أن التفكير الذى يصدر عن الغريزة ، لا يخيب كما بينا ضيق مجالها ؛ فحلم رجل العمل ينحصر فى أن يواتيه

أمان الغريزة فى حالات كثيرة التعقيد . وبعبارة أخرى يكون فن التفكير بالنسبة لرجل العمل هو فن تحويل التفكير إلى غريزة ، ولسنا نريد مطلقا أن نقول إن رجل العمل يجب ألا يعبأ بالعقل . بل من واجبه أن يفكر طويلا فيما يريد عمله ، وأن يتخيل المسائل التى يفرض عليه حلها يوما ما كما فعل بونابرت الشاب فى طولون ، وأن يعنى بملاحظة الكثير من الحوادث ، وأن يستنبط من ملاحظاته قوانين . ولكن هذا التفكير وهذه الملاحظة وهذه القوانين يجب أن تنقش فى جسمه ، يجب أن يصل تفكيره إلى أعماق نفسه بحيث تصدر عنه الأعمال وكأنها ردود أفعال محكمة وبذلك فقط يكتسب فى عزمه تلك السرعة الخاطفة التى تستلزمها الحوادث دائما .

أنظر إلى طبيب قديم وقد أحضر إليه مريض . قد يطلب الاطلاع على بعض تحاليل كما يفعل زملاؤه ، وإن هذه التحاليل لتساعده حتما فى تفكيره بعقله الباطن ، ولكن الغريزه التى تولدت عن آلاف من الحالات شاهدها هى التى ستملى عليه تشخيص المرض . وربما كانت مبررات رأيه فى حالة المريض من الكثرة بحيث يتحير فى التعبير عنها ، وقد يظهر لك هذ الطبيب أقل علما بجانب أستاذ من الشبان البارزين ، ولكن ثق بأنه « على علم » إذ تكون أخطاؤه فى الواقع أقل من أخطاء الآخرين .

والقائد العظيم لا يلجأ إلى التدليلات العقلية الفنية وهو فى معمعان المعركة بل يستلهم الحل من ذكرياته التاريخية وتجاربه

وما يصله من التقادير ، فقد كرر المارشال بيتان فى شمبانيا فى الحرب العالمية الأولى خطة والنجتون . والكاتب الكبير وهو يراجع نصا تراه يمحو جملة أو يحذف نعتا أو ينقل فعلا من موضعه ؛ فإذا أردنا أن نفسر لم أصبحت القطعة أجود بعد هذه التصحيحات وصلنا فى النهاية إلى تعرف أسباب هذا التجويد ، ولكن الكاتب نفسه لم تكن به حاجة إلى هذا التفسير ، وإنما دراسته لأساليب كبار الأساتذة زمنا طويلا قد أكسبته غريزة اللغة . قال ڤاليرى : « ليس المهم أن تجد ما تقرؤه . ولكن المهم أن تتمثل ما تجده » إننا لا نعد مالكين لمعلوماتنا إلا إذا حضرت هذه المعلومات من نفسها فى أذهاننا عند ما نحتاج إليها بغير حاجة إلى قياس أو تدليل يضيق الوقت عنهما . إن الميكروكسم أو العالم الداخلى يكون عند رجل العمل مشتملا على صورة مضبوطة لأجزاء العالم الخارجى الذى يجب عليه أن يعمل فيها . فالسياسى الحقيق يحمل وطنه فى طيات نفسه ويعرف ما سيصدر من مواطنيه من التصرفات فى كل حالة ، ولكى تكون له الدراية التامة بأمته لا بد أن يكون قد فكر ولاحظ وقرأ واختلط بمواطنيه من جميع الطبقات ، فمتى تمت له هذه المعرفة تجلت فى أحكام سريعة صائبة ، أما السياسى الذى حرمته الطبيعة من « أهداب الاستشعار » فيلجأ إلى الإحصاءات والجرائد واللجان ، فإذا ما توافرت له المعلومات أحدثت عنده ثباتا عجيبا ولكن على الخطأ . وذلك لأن الاستعلام غير الثقافة

فى ذهن الرجل المثقف تنتظم الوقائع لتكونّن عالما حيا هو صورة الواقع .

فأما الاحصائى فإنه يُقطِّع العالم ويقتله . بينما الشاعر يكيف العالم ويبث فيه الحياة . ورجل العمل العظيم يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى صاحب الموسوعة ، يمزج عنده الفكر بالعمل كما تمتزج الفكرة عند الشاعر بالصورة . إذا عرفنا هذا أدركنا المعانى العميقة لبعض الأقوال المأثورة مثل « يستطيع الإنسان أكثر مما يعرف » ومثل « يجب أن تعتقد قبل أن تعرف » . وحقيقة يجب أن تعتقد قبل أن تعرف ، لأنه يجب عليك أن تفعل قبل أن تعرف ، فإن فن التفكير هو أيضا فن الاعتقاد ، لأنه لا يوجد إنسان يستطيع بعد مرور آلاف السنين من المدنية أن يعيد النظر فى معتقداته الشخصية والاجتماعية ويضعها موضع البحث من جديد دون أن يتعرض للخطر ومسألة الصفحة البيضاء أى تصفيه أذهاننا من كل معتقداتنا وآرائنا السابقة قبل الإقدام على بحث أمر من الأمور ما هى إلا لعبة ذهنية لا نستطيع أن نلعبها إلا فى أوقات الفراغ . فيجب على الإنسان لكى يعمل ويعيش ، أن يسلم بطائفة كبيرة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية والدينية التى سلمت الإنسانية بضرورتها من قبل . إن عقلنا يتركب من طبقات بعضها فوق بعض تكونت أبعدها غورا من معتقدات الإنسانية القديمة، والتى تعلوها من الديانات الأسيوية واليونانية والرومانية والمصرية القديمة

وتألفت تاليتها وهى أغناها من الديانة المسيحية وتكونت الأخيرة وهى أرقاها جميعا من الأفكار الحديثة عن بناء الكون ، فتألفت ذواتنا من كل هـذا ، فهو منقوش بحذافيره على أعمالنا الفنية وآثارنا واحتفالاتنا وآدابنا وأفكارنا ، فليس تحرر الإنسان من ماضى الإنسانية بأيسر من تخلصه من جسده . والتفكير المتين هـو ذلك البناء الذى تغوص أسسه فى أعمق طبقات الغريزة وتصعد رفارفه وأبراجه إلى طبقات العقل الجلية النيرة ، فيسلم بقوانين المنطق لأنها قوانينه الذاتية فهو يلتزم على قدر الإمكان قواعد البحث العلمى التى أثبتت فضلها بفوزها ، وهو يرتكز على التقاليد الإنسانية الباقية على الدهر فى نفس كل منا ، ويستق الحقائق الثابتة من الفن ومن الدين . وإذا كان لى أن أعبر ببضع كلمات عن العلاقة بين الفكرة الفطرية والفكرة العملية الناشطة ، فإنى سأستعين بالصورة الآتية :

فى معركة حربية يتعاون سلاح الطيران وسلاح المشاة : فيحلق الطيارون فوق خطوط العدو ويفحصون ويضعون فروضا قابلة للتصديق عن استحكامات العدو ويرشدون المشاة إلى الاتجاهات التى يلوح أنه يمكن اتخاذها للزحف . ولكنهم لا يستطيعون احتلال مواقع العدو ، بل لا بد أن يخطئوا فى وصفها أخطاء جسيمة يكتشفها المشاة بعد ذلك ويقاسون بسببها ما يقاسون فى زحفهم الشاق . أما المشاة من ناحيتهم فلا يستطيعون أن يحلقوا

فوق المواقع وعليهم أن يهدموها أو أن يفتحوها ، وبعض هذه العوائق تظهر لهم متى رأوها عن قرب أنها أخطر مما ظن الطيارون وهم يرقبونها من مراصدهم السماوية ، ومتى اقترب المشاة من مواقع العدو وواجهوا استحكاماته وأحسوا باعاقتها لهم وخطرها عليهم لم تعد وظيفة سلاح الطيران هي المضى فى تقدم لا فائدة منه بل المبادرة بالاتصال بالمتقاتلين وهكذا يدرك خطأه ويسألهم عن حاجتهم ، ثم ينطلق مرة أخرى للاستكشاف ، ويكون فى مقدور الجيش إدراك النصر بذلك التعاون المستمر بين المراقب من الجو والمنفذ على الأرض . على هذا النحو يستطيع التفكير الخالص أن يحلق فوق الأقاليم المعادية فيما وراء تلك الأراضى التى تم استعمارها ، إذ يصف ما يظن أنه رآه ، ويفسر الإشارات بفروض . ثم يأتى العمل الذى يستعين بما رسمه التفكير من الخطط ويعمل على احتلال المواقع التالية فينجح أحيانا ، ويفشل أحيانا ، وفى هذه الحالة يعترف العقل بخطئه ويتصل بالحقيقة من جديد . ويضع فروضا جديدة بعد أن يتخلى عن الأوهام التى أظهرت التجربة بطلانها . فبالتعاون الدائم بين التفكير والتجربة والعمل لا نحصل على النصر الدائم الذى ليس فى طبيعة الأشياء بل على فترة من التمهل ووقفة ميمونة فى ظل مخبأ من تلك المخابئ الضعيفة التى تسمى بالمدنيات .

كنا نتساءل فى بدء مقالنا هذا « هل فى إمكاننا أن نرسم فى ذهننا خريطة حقيقية للكون وأن نسير بمقتضى هذه الخريطة نحو

أهداف معينة ، وأن نصل إلى المرفأ الذى اخترناه ؟ . يلوح لى أن جوابنا سيكون : لا يستطيع التفكير الإنسانى أن يرسم خريطة دقيقة للكون كله ، ولا يستطيع أن يجعل هدفه تلك الشواطئ الوهمية البعيدة من تلك المملكة الخيالية « اليوتوبيا » ، ولكنه يستطيع أن يترسم نهج الملاحين القدماء ويستعين بمعلومات الأجداد عن أبراج النجوم والعواصف الهوجاء على تكملة حكمة السلف بالتجربة بملاحظة النجوم والرياح وأوقات المد والجذر وينجو من غرق بعد غرق وينتقل من أرخبيل إلى آخر ، وفى ذلك الكفاية فإن أوليس الحذر لم يكن يسأل الآلهة أكثر من هذا » .

٢ - فن الحب

كان بيكون يقول : « الفن هو الإنسان مضافا إلى الطبيعة » فالطبيعة تقدم العناصر الخامة لإنجاز اللوحة أو التمثال أو القصيدة أو المأساة ، فيحور الإنسان هـذه العناصر ويرتبها لتلائم مطالب عقله ، فإذا ما سلمنا بهذا التعريف البديع أصبح من البديهى أن هناك فنا للحب ، إذ فى موضوع الحب كما فى كل شىء آخر لا تقدم لنا الطبيعة سوى المواد الخامة وهى : انقسام الأنواع إلى أزواج والحاجة إلى استبقاء النوع مصحوبة بجميع الغرائز القوية المعـدة لخدمة هذه الحاجة . ولـكن إذا لم يكن العقل الإنسانى . على ممر القرون قد حور هذه العناصر وألف بينها لما زادت غرامياتنا عن مهارشات الـكلاب . ألق بنظرك فى الحقول وفى الجو وفى ميـاه الأنهار ، وراقب الحيوان فى مغازلاته ثم اقرأ قصة «أميرة كليف» لمدام ده لافايت تعرف مدى الفاصل بين الطبيعة والفن فى الحب . إن معجزة الحب الإنسانى هى أن الإنسان يبنى على تلك الغريزة البسيطة « الرغبة » أعقد المشاعر وأرقها ، فبتأثير أفاعيله السحرية نرى مخلوقين ضعيفين لهما من الأثرة والخجل وقلة الثبـات والوحشية

ما لسائر أبناء جنسهما ، قد توافقا فاختلطا واتصلا أوثق اتصال واعتنقا فكرة واحدة ، وأصبحت عداوة العالم لهما أو عدم اكتراثه بهما ومخاوف المستقبل وأحقاد الطبقات أو عداوات الشعوب فى نظر هذين المخلوقين دخانا مبددا وخيالا زائلا ، لقد مهد لهما عنف الرغبة الطريق لاجتياز عوائق حب الذات ، وأعانهما على التسامح فى الفروق الأخرى . ولكن تلك الرغبة سريعة الزوال ، فكيف استخرج الناس عواطف باقية طاهرة من تلك النزوة ؟ إذا أردنا أن نفهم فن الحب وجب علينا حل مشكلة « تقديس الميل الجنسى » وقبل أن نهاجم هذا الحرم المكنون يلزمنا أن نزيل ما حوله من الأشواك والأدغال .

١ — اختيار المحبوب

لم نختار شخصا بذاته دون غيره بين آلاف الرجال والنساء لنركز عليه تفكيرنا ؟ يمكن بهذا الصدد عرض نظريتين تحتوى كل منهما قسطاً من الحقيقة .

النظرية الأولى : إننا فى لحظات معينة من حياتنا وخاصة فى سن المراهقة وفى ساعة من الساعات التى يخالط دمنا فيها « شيطان الجنوب » ، تكون نفوسنا مهيأة للحب، فنشعر بميل جنسى مبهم يبدأ غير مركز على شخص بعينه ، ويوحى إلينا بشعور انتظار لذيذ ،

هذا هو الوقت الذى فيه يتعشق الشاب مخلوقة من نسج خياله إذا لم يصادف امرأة حقيقية ، وهو الوقت الذى تعشق الفتيات فيه أبطال القصص أو مشاهير الممثلين أو أساتذة الأدب . فالشباب أقوى الأشربة السحرية التى تبعث العشق فى النفوس . قال جيته « إن هذا الشراب يجعلك تتمثل هيلانه فى صورة كل امرأة تراها » وحينما يترقب الجسد حضور المعشوق ، يكون لأول شخصية جذابة تمر الحظ فى إثارة عاطفة الحب ، فقد تكون الصدفة أحيانا ميمونة ، فتخلق من التلاقى قرينين سعيدين ، كما يتفق أيضا أن يجمع الميل لحظة بين الرجل والمرأة ثم تكشف الخلطة بينهما عن أسباب للخلف والكراهية حيث يتولد البغض عن الحب .

كذلك نستطيع أن ندرك ألوانا من الاختيار دعت إليها مجرد مناسبة للقاء ، فقد ينشأ التقارب عن صحبة جبرية بين مخلوقين خجولين لم يكونا يجرآن فى الحياة العادية على الإقرار بعواطفهما أو رغبتهما . وقد لعبت سجون الثورة الفرنسية بقلوب نساء لم يكن يقدر لهن إلا أن يصرن زوجات صالحات فى ظروف أكثر هدوءا فحولتهن إلى عاشقات متيمات . كما أن المكانة بين الناس أو المجد الذى يصيبه الرجل من شأنهما أن يحيطاه بهالة من النور تستر عيوبه عن أعين النساء ، فلحظات الظفر أكثر مؤاتاة لتوليد الحب . وفى بعض الأوقات تخلق الصدفة توافقا وهميا بين عقلين أو بين قلبين فعلى أثر عبارة تصدر من شخص ثالث تتلاقى

النظرتان فتكتشفان انفعالين متشابهين ، وفى ازدحام العربات قد تتلامس يدان فتستطيبان ما تشعران به من السرور وتودان لو بقيتا متلامستين لحظة أخرى فوق ما يستدعيه الموقف ، ويكون فى ذلك الكفاية .

النظرية الثانية — : إن ما يسمونه انقضاض الصاعقة أو الحب من أول نظرة علامة على سبق الاستعداد ، ففى خرافة يونانية أن كل إنسان كان فى البدء يجمع بين خصائص الرجل وخصائص المرأة ، وأن الإله الخالق قد قطع كل مخلوق إلى نصفين ففصل بذلك بين النوعين ، ومنذ ذلك الحين أصبح كل نصف يبحث عن نصفه الآخر ليتصل به ، فإذا تقابل الاثنان نبههما إلى ما بينهما من الصلة صدمة قوية لذيذة هى ما يسمونه انقضاض الصاعقة أو الحب من أول نظرة . ويحمل كل منا فى طيات نفسه « الصورة الأصلية للهيئة الجمالية التى يبحث عنها بين سكان العالم » فإذا صادف إنسانا حقيقيا متحليا بجميع صفات الكمال التى كان يخلعها على ما كان يعشقه إبان مراهقته من المخلوقات الخيالية أسلم نفسه إلى الاسترسال فى حب هذا الإنسان . ومن الناس من يسحر حواسنا بجماله ويرضى عقلنا بلطف حديثه ، فهؤلاء نحبهم دون مجهود أو ندم ، وكل لحظة نقضيها بقربهم تجعلنا أكثر ثقة بكمالهم ، ونعرف أننا لو منحنا القدرة على تغيير ما بهم لما اشتهينا أن نغير أى شىء فيهم ، فصوتهم فى أذننا أعذب الأنغام ،

وحديثهم غير المتكلف قصائد كاملة من روائع الشعر ، وفى الحق إن منتهى السعادة هى أن نعجب بالمحبوب من غير تحفظ . وأهنأ الحب ما بنى على الإعجاب المتبادل بالروح والجسد . وأخيرا هناك رجال ونساء كثيرون لم يستبد بهم ميل عرم ولم تسقهم الصدفة إلى اختيار شركاء حياتهم ، بل كان عليهم أن يختاروا هؤلاء الشركاء بمحض إرادتهم ، أيحتاج أمثال هؤلاء إلى فن الحب يلقنهم بعض قواعد عامة ترشدهم فى اختيارهم ؟ يمكن القول بأن الصبر واعتدال المزاج وعلى الأخص روح الدعابة كلها فضائل تساعد كثيرا على إسعاد الزوجين ، وتنشأ هذه الفضائل غالبا — وليس دائما — عن الصحة ، فينبغى أن تراقب الأسرة التى يختار منها الزوج أو الزوجة زمنا طويلا ، لأن الهناءة تجلب الهناءة ولأن هناك أوساطاً حزينة مقهورة يضعف الحب بينها ويتلاشى سريعا

يلوح أيضا أن المرأة أكثر ما تكون هناءة مع رجل شجاع نشيط ، وأن الرجل أكثر ما يكون هناءة مع امرأة حنون ترتاح إلى قيادته . تقول بعض الفتيات إنهن يفضلن الزوج الذى يستطعن أن يسيطرن عليه ، أما من جهتى فإنه لم يتفق لى أن لاحظت أن امرأة كانت سعيدة سعادة حقيقية مع رجل لم تحترمه لقوته أو لشجاعته ، أو أن رجلا متزنا توافرت له الهناءة مع امرأة مسترجلة . وفى كل هذه الأمور الكثير من التعقيد والتركيب ، لأن أكثر النساء خضوعا لا تخلو من غريزة السيطرة ، فيعجبها

أحيانا أن تجد من زوجها طفلا لا بطلا . وللقدر فى الواقع دور خطير يتعذر معه أن يقع اختيار كل من الرجل والمرأة على قرينه بمحض إرادته الخالصة ، ومن الخير أن يكون ذلك كذلك ، فإن الغريزة برغم كل أخطائها أصوب من العقل . « يسألونك هل من ضرورة إلى الحب فى الزواج ؟ . هذا مالا يسأل عنه ، وإنما يلزم أن يحس » لأن تولد الحب ككل تولد هو من عمل الطبيعة ، أما فن الحب فيأتى تدخله بعد ذلك . وعلينا الآن أن نحدد اللحظة التى يبتدئ الفنان فيها بتكييف الشعور الخام

٢ – مولد الحب

وصف ستندال مولد هذا الشعور وصفا بديعا فى كتابه عن الحب ، وعلى القارئ أن يحفظ المميزات الأساسية التى أتى بها ستندال فى وصفه ، ثم يضيف إليها ما يشاهده فى نفسه وفى غيره .

١ — فى أصل كل حب صدمة تحدث بفعل الإعجاب أو بحادثة تكشف عن وفاق أو تتولد عنها رغبة ، ففى قصة أنا كارنينين لتولستوى ينزل ڤرونسكى من القطار فيقول وهو فى حلم : «إن مدام كارينين هذه جميلة جدا . وماذا كان معنى هذه النظرة ؟ » ويمر شارل جرانديه فى حياة ابنة عمه ، وذات مساء يخلع عليه مرضه ثوبا من الخيال الروائى ، وحينئذ تقع أوجينى فى شرك غرامه ويدوم حبها له طول حياتها ..

٢ — ومتى وجهت الصدمة الانتباه وركزته على شخص أصبح غيابه عاملا مواتيا لإيقاد جمرة حبه فقد كان آلان يقول : « إن الغياب أو التأخر عن الحضور أكبر قوة للنساء ، وذلك أن القرب يكشف عن ضعف من حاز إعجابنا ، أما على البعد فتصور المحبوبة حورية يخلع عليها خيالنا كل صفات الكمال » . هذه العملية هى التى يسميها ستندال « التبلور » ، فبالتبلور يتحول المحبوب إلى إنسان آخر أرق من حقيقته ، وهو ما دعا روست إلى القول بأن الحب أمر ذاتى ، وأننا لا نحب أشخاصا حقيقيين بل نحب من خلقناهم .

أما فى حالة الإعجاب الصادق فلا تتدخل عملية التبلور فإن أعجاب الإنسان بدرة حقيقية ليس فى حاجة إلى أن يتبلور فى الإعجاب بالدرة غير أنه قل بين الدرر ما يتنزه عن العيوب .

٣ — متى انتهت عملية التبلور الأولى يصح أن يقع اللقاء الثانى من غير خطر على الحب ، إذ يكون الانفعال الأول من الشدة بحيث لا نعود نرى إلا مخلوق خيالنا بالرغم من حضور الشخص الحقيقى ، إذ يحل محله الشخص الذى ولده التبلور ، فلا نسمع عباراته الغثة ولا نلاحظ نواحى الضعف فى تفكيره أو فى عواطفه ، إذ أن السرور الذى يغمرنا برؤيته يكون فى مأمن من المفاجآت لأنه شعورنا الباطن .

٤ — طالما بقيت الأمور على هذا الحال فانه لا ينشأ عن الحب إلا الهناء ، ولكن منبع الحرارة لا يدوم اشتعاله بغير وقود ، فتسرع تلك الشعلة الناشئة فى الخمود إذا لم توجهها نسمات جديدة من الأمل ولو كانت نسمات ضعيفة ، وفى باب الإشارات المشجعة ليس الأمر عسيرا فنظرة أو شدة على اليد أو رد حار من شأنها أن تشعل النار فى الحال .

٥ — حينما تكون هذه الإشارات واضحة ثابتة يجوز أن يثبت الحب المتبادل وما أحلى وما أجمل ، غير أنه يحدث أيضا أن الوثوق والأمان يقتلان العاطفة فإن الحب عند البعض يتغذى فى بدايته بالشكوك أو بتعبير آخر بالتناوب بين التشجيع والفتور على أن تعاقب هذه الدلائل لا يقابله فى الغالب تغير حقيق فى الميل ، فالحياء والتصون يفرضان حركات يحسبها الإنسان ناشئة عن الاستخفاف . وربما لاحظنا حركة خفيفة ناشئة عن صداع أو عن مشد فى غير موضعه أو جورب مرتخ فنفسرها بتلك الدقة التى لا تعرف إلا عند العشاق أو رجال الشرطة ، ولا غرابة فالعاشق تثور شكوكه من لا شىء فيروح يحلل النظرات والحركات والألفاظ ويرى فيها معانى خفية ، فيجد فى البحث عما عساه قد بدر منه من زلل استوجب هذه المعاملة القاسية وكلما تعسر عليه الفهم (حيث لا يوجد ما يفهم) زاد تفكيره فى محبوبه وغاص الحب فى أعماق قلبه ؛ مثل الحب الذى ينجم عنه الشك

كمثل تلك الأشواك التي كلما حاولت نزعها أدى مجهودك نفسه إلى زيادة نفوذها في لحمك .

٦ — يبدو أن ذلك مما يسمح لنا بأن نفسر الدلال ، ذلك العبث والتقلب المتعمدين ، ليس إلاّ لعبة تنحصر في مد الطعم ثم سحبه ثم مده ثانية وهي لعبة الغرض منها إيقاظ الحب واستبقاؤه كالقط يستسلم للرغبة في التقاط لفافة الصوف فينقض عليها حين تقدم إليه وإذا بها تسحب ثم يرمى له بها ثم تسحب ، كذلك تستسلم الفريسة الآدمية لمناوشات المحبوبة المدلة ، وهي حركة طبيعية يسهل تفسيرها ، فكل مضنون به مرغوب فيه ، وكل مبذول مرغوب عنه .

٧ — بيد أن الدلال إذا طال أمده قتل الحب ، فإن مدام ريكامييه التي اشتهرت بدلالها وتمنعها قام برأسها يوما أن توقع بنجامان كونستان في غرامها ونجحت . قالت له يوما : «تشجع» فحول الأمل هذا الرجل الناضج إلى طفل ، وقال لنفسه : « هي لا تحبني ولكنني أعجبتها ! » وعندما انكشفت الحقيقة لعينيه ، تألم وقال : «لم أكن عرفت امرأة لعوبا قبلها ... وقال بعد حين : «يا آلهي كم أبغضها !» وحدث عنده ما يمكن أن نصفه بأنه انحلال عملية تبلور الشعور التي مر ذكرها فقال : « وذمتي لقد زهدت فيها . إنها جعلتني أقضي يوما شيطانيا ، إنها حرباء ، إنها سحابة ، ليس لها عقل ، لقد حرمت من كل تمييز وليس لديها عزيز . »

هكذا تغلو المرأة المدلة فى دلهـا فيكون مثلها كمثل سيليمين فى مسرحية « الميزنتروب » (كاره البشر) لموليير إذ لا يكاد ينتصف الفصل الخامس حتى يهجرها كل من تيمه عقلها وجمالها .

٨ — كما يدفع الطبيب إلى رئتى مريضه بتيارات متعاقبة من غاز خانق وأكسيجين ، كذلك تفعل ذات الدلال : تمزج قسوتها بشىء من الرجاء حتى لا تقتل ضحيتها ، وذلك لون قاس من اللعب يكاد لا يقاوم فهل تستحق هذه اللعبة أن نجرب ؟ فى ظنى أن الأفاضل من الرجال والنساء يزهدون — بسبب إخلاصهم فى حبهم أو بسبب طيبتهم — فيما يكسبهم التدلل من المزايا المحققة . إن قول المحب لحبيبته . « إنى أعلم أننى باعترافى لك بحبى أضع نفسى تحت رحمتك ولـكن يحلو لى أن أفعل ذلك » فيه عظمة . فإذا كان القرين غير جدير بهذه الثقة وجب أن يعالج بين حين وآخر بجرعة من التدلل على طريقة : « وداونى بالتى كانت هى الداء » . وإذا كان القرين جديرا بهجر تام فلا بأس بالإعراض عنه وعسى أن يتولد عن هذا الإعراض والهجر حب وثيق متبادل .

٩ — إن الأيام الأولى للحب المتبادل هى أسعد الأيام التى يتصورها الناس ، فيهـا يتضاعف التبلور ولا يعود القرب يؤثر فيه ، إذ ينزل كل من الحبيبين عن ذاته ، وفى ذلك تحقيق لأمنية الآخر ومتى أمكن دوام هذه الحالة وجدت الحياة السعيدة

وحتى فى مثل هـذه الحـالات يندر أن تكون قوة الشعور

المتبادل واحدة عند الطرفين أو أن يظل الحال على وتيرة واحدة . فعلى الكثيرين منا أن يعاودوا غزو الشخص الذى يشتهونه فهو لا يسلم قياده بغير قتال .

٣ — التودد

أيستطيع الإنسان أن يتقرب إلى قلب محبوبه ؟ — ينبغى أن نسأل قبل ذلك : هل من الضرورى أن يتحبب الإنسان إلى من يهوى ؟ أليس الأيسر عندما لا يستجيب الحبيب أن يطلب المحب لذائذ الهوى على الأسلوب الذى كانت تطلب به فى العصور القديمة ؟ فلقد كان الرجل يختطف المرأة التى مال إليها وعندئذ تقع الأسيرة تحت رحمته ، فكان يحدث فى غالب الأحيان أن تنتهى الحال بتعلق الأسيرة به لأنه ميزها على غيرها أو لأنه زوجها أو لأنه جدير بأن يحب . وفى عصور أخرى لعب المال والسلطان الدور الذى كانت تلعبه القوة ، غير أن الغنى لم يكن يحب بنفس السهولة التى كانت تحب بها الشجاعة لأن الغنى صفة ليست ملازمة لذات المحب ومع ذلك كان جوپيتير يتسلل إلى مخدع دانابيه وهو متنكر فى هيئة غيث من الذهب .

إن النفوس الكبيرة المطامع لا تصيب إلا قليلا من السعادة من وراء هوى يمازجه الاستعباد فإننا لا نحب أن نفرض أنفسنا على من نحب بل نؤثر أن نفضل ولا يأتينا تملكنا للمحبوب بمسرات

داعة إلا إذا كان تملكنا له صادرا عن إيثاره لنا بحر إرادته ، عند ذلك تعرض تلك الشكوك وتلك الوساوس وتتعاقب الانتصارات على التعود والملل . تلك الحال دون سواها هى مصدر أكثر الأحاسيس لذة : فإن جوارى القصور الجميلات لا يثرن العشق فى النفوس لسبب واحد : وهو أنهن أسيرات مملوكات ، وعلى العكس من ذلك نلاحظ أن جميلات الشواطئ الأمريكيات لا يعشقن لأنهن قد بلغن الغاية من التحرر . فيا أيها الحب ! أين تكون انتصاراتك إذن ... ما دام لا يستطيع اعتراض غزواتك شىء لا الحجاب ولا التصون ولا الأخلاق ؟ إن الحرية المفرطة لتقيم حول جماعة النساء المبذولات أسوارا شفافة لقصور وهمية (١) .

إن الحب الروائى الخيالى ليتطلب امرأة تحيا حياة تحفظ فى حدود ضيقة من الدين والعادات من غير أن يجعلها ذلك التحفظ بعيدة المنال .

هذه هى الشروط التى حين توافرت فى العصور الوسطى نشأ عنها الهوى العذرى فقد كانت المرأة تعيش إذ ذاك فى قصرها أميرة مشرفة ، وكان العاشق يخرج لغزواته الصليبية ، فيقطع الطرق الطويلة مفكرا فى أميرته ، وعلى وقع أقدام الخيل كانت عملية التبلور تسير سيرها بينما الأميرة ملازمة لقصرها بالقرب من

---

(١) يريد أنها تجعل إدراكهن يبدو سهلا كما يبدو إدراك نساء الحريم الأسيرات ميسورا لكل من يملك الاقتراب منهن .

وصيفها حاضرة أمام عينيه بعيدة عن مناله تثير فى نفسه أحاسيس شوهتها الثورة الفرنسية فيما بعد وجعلتها من نوع أحاسيس چوليان سوربل نحو مدام رينال . وكان المؤدِب كذلك فى نفس مكانة الوصيف وكان مركز المرأة بينهما حرجا ولكن شاروبيم الخادم الحاذق الجرىء كان أوسع فرصة . فى عهد ذلك الهوى العذرى المعذب لم يكن العاشق يسعى إلى التقرب إلى محبوبته ، بل كان يقنع بحبه فى صمت دون أمل . وقد ظلت الحال على ذلك حتى زمان السيد نيمور والأميرة ده كليف . ويحكم بعض الناس على هـذه الألوان من الحب الصافى بأنها خيالية ساذجة ، وقد غاب عنهم أن الأعجاب عن بعد يمنح النفوس الرقيقة لذائذ عنيفة ، ولما كانت هذه اللذائذ ذاتية فهى لا تتعرض كغيرها لتبدد الأوهام وخيبة الأمل . إن للحب الصامت أشواكه ولكن له أيضا حلاوته . تصور فى أى هيمان يكون العاشق وهو يوجه كل أفعاله إلى هدف واحد هو إرضاء محبوبه ! — يدرس نفسه فى كل يوم ليهتدى إلى طريقة إعلان حبه ويقضى فى ذلك من وقته ما نحسب معه أنه سيلتقى بمعشوقته ويحدثها حديث غرامه . ومع ما يتضح له من أن التى تسبب له كل ذلك الاضطراب لا تلقى إليه بالا ، تراه قانعا على الأقل بشعوره بأن كل هذه التقلبات هى فى سبيل شخص جدير بذلك .

إذا أحب شاب ممثلة لم يرها إلا على المسرح خلع عليها كل

الكمالات الروحية التى تبدوله فى وجهها والتى لاتملك شيئاً منها من غير شك ، ويضفى عليها ذلك السحر الذى يكون للبطلات اللائى تمثلهن لأنه شهدها فى أدوار حلم بها ماريفو أوموسيه ، ولم يشاهدها إلا تحت أضواء المسرح الخادعة ، فجهل سنها وتجعداتها ولم يشاركها فى معيشتها حتى يعرف شيئاً عن غضباتها وعن صلفها قال بيرون : « لأن يموت الإنسان من أجل المرأة التى أحبها أيسر من أن يعاشرها » والمعجبة بالكاتب القصصى تخلع عليه بكل سخاء رقة أبطاله ولا يخطر ببالها صرير مفاصله ونوبات سوء هضمه وانفعالاته المرضية ، فما أيسر أن ينال الإنسان الأعجاب وهو بعيد .

هل من اللازم إذن لإنقاذ الحب أن يزهد الإنسان فى التودد للمحبوب والوقوف على أحواله ؟ — لا ، فإن عشق العقول لايدوم مهما كانت أيامه الأولى حلوة . نعم إن صاحب المزاج الرقيق يستشعر اللذة كلما طال طريق الوصول إلى الحبيب ، ولكن هذا الطريق ينبغى أن يؤدى إلى الغرض بعد الكثير من الارتباطات الحلوة ولا يتبدد الأمل فى أرض جرداء حيث ينتهى الحب إلى الموت خمودا . ألا يقل امتلاء النهر إذا لم يسعفه المنبع بالمدد ؟ كذلك تستولى على العاشق إن عاجلا أو آجلا الرغبة الجامحة فى أن يرى نفسه محبوبا .

ماذا نستطيع إذن أن نتعلم من فن الحب ؟ أيرشدنا الى تراكيب وأشربة سحرية أم إلى رقى وتعاويذ ؟ إن الشعر القديم وقصص

الحب لتفيض بأخبار السحرة وأعمالهم ، ولا زلنا إلى الآن كما كنا في عهد تيو كريت أو أوفيد : نسمع كيف تجلجل كل يوم مائة مرة في كثير من جلسات السحر والشعوذة في باريس ولندن ونيويورك في حضرة عجوز شوهاء الاستغاثات التقليدية : « رباه ماذا يجب أن أصنع حتى يحبني ؟ — وردا على هـذه الصيحات تجيب الإنسانية منذ القدم بحفلات وطقوس كما كانت تجيب على ما تقدمها من الصيحات الأخرى .

٤ — المغازلة

مجموع أعمال الحفاوة وأساليب التودد وحيل الملاطفة التي يتوسل بها العشاق إلى التقرب من بعضهم البعض تسمى المغازلة . تقوم الحيوانات والطيور في فصل الأشواق بأعمال التقرب الخاصة بها كما يفعل الناس . ولنذكر بعض أساليب الفتنة مبتدئين بأخسها وهي المشتركة بين جميع الأنواع حتى نصل إلى أشرفها وهي الخاصة بالإنسان .

« ا » التزين ، الغرض من التزين هو لفت النظر إلى المتزين أو المتزينة ، فكما تدعو الأزهار بألوانها الزاهية في زمن الإخصاب الحشرات التي ستحمل إليها حبوب اللقاح اللازمة ، وكما يعلن الذباب الناري والديدان اللامعة بأضوائها أثناء الليل عن الرغبة في الحب إلى أفراد نوعها ، كذلك تتقدم النساء بأثوابهن الجميلة

أو الجريئة إلى الرجال لينلن أعجابهم . ولكل شابة الحق بل من واجبها أن تعجب فكلهن أوجلهن يبذلن الجهد فى ذلك ، أما العذارى الطائشات فيعتمدن على التبذل فى ملابسهن ، وأما العذارى العاقلات فيفضلن ما فى الاحتشام والغموض من الفتنة الباقية . وأغلبية النساء يجرين وراء الأزياء الحديثة « المودة » التى لا غرض منها سوى لفت أنظار الرجال . ويعيش الخياطون والخياطات وتجار الحلى والجواهر على حاجة النساء الدائمة إلى المفاجأة

وهناك بعض نساء يستخففن بقواعد « المودة » تصنعا أو زهدا ، ولكن فى الجماعة التى يخضع فيها كل النساء من العاملة إلى الأميرة إلى نظام الأزياء ، يكون من أكبر البدع مخالفة هذا الإجماع . ويمكننا أن نقول إن أكثر النساء بساطة فى الظاهر أقلهن بساطة ، وإن أقلهن تدللا أمعنهن فى الدلال ، وإن عدم التزين تزين فى ذاته ، ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن الفتيات الإنجليزيات اللاتى كن يذهبن يوم الأحد عند وليم موريس قبيل عهد رافائيل الرسام كن لا يرتدين سوى أثواب من الصوف الأزرق الغفل وعقود الكهرمان الأصفر ، ولكنهن كن يتميزن بذلك عن باقى النساء الحافظات لعهد الحلى الثقيلة والأثواب الزاخرة بالنقوش مما كان شائعاً فى أواخر عهد الملكة فيكتوريا . وقد تبدو الطرافة فى زى البوهيمى بقبعته الصغيرة المستديرة (بيريه) وزى الكاتب الشاب فى سترته الجلدية ، كما كان الأنيق الإنجليزى يلفت

الأنظار بصدريته القطيفية . والذكر هو الذى يلجأ إلى التزين عند بعض أنواع الحيوان . فالطاووس يمثل انتصار الطبيعة على الفن. أما فى النوع الإنسانى فإنه لما كان الرجل يتجنب المسئوليات الاقتصادية كان على المرأة أن تخصص نصيباً أكبر من العناية للتزين . وهذا هو الحاصل فى فرنسا على الأقل .

« ب » الحذق — من دواعى الإعجاب أن يبز المرء أقرانه فيما يصنع كيفما كان . وكل عاشق يسعى إلى إظهار حذقه ، ولا نهاية لتنوع موضوعات هذا الحذق ، فبعض الطيور يغطس فى الماء على مرأى من إلفه ويأتى من قاع الغدير ببعض الحشائش المائية يقدمها تحية له ، وعندما سئل شاتوبريان : « ماذا تبغى من ذهابك إلى الشرق ؟ » أجاب : « أطلب مجداً يقربنى إلى القلوب » وعاد من سياحته فى البحر الأبيض المتوسط يحمل مؤلفات خالدة إلى مدام ده نواى . ولقد كتبت بعض القصص كقصة « المسمار الذهبى » لسانت بوف لشرح بعض العواطف لسيدة بغية التأثير عليها . وكل الموسيقيين على وجه التقريب قد عبروا عن شكواهم أو رغباتهم بألحان مطربة . ويكون الإعجاب بلاعب التنس لمهارته ، وبسائق السيارة لوقفاته الخاطفة ، وبالراقصة لوقوفها على أطراف أصابعها . والحذق فى الحب يحقق لصاحبه أخطر مكانة . وتقاوم العذارى العاقلات هذا اللون من التأثير ، ولكن عند العذارى الطائشات تتغلب رغبة حرمان المنافسة أو حتى الصديقة من عشيق

شهير ، وهـــذا شعور معقد يدخل فيه الزهو وتقدير ذوق النسـاء الأخريات والحاجة إلى الاطمئنان على النفس باحراز انتصارات شاقة .

بدأ دون جوان باختيار عشيقته بنفسه ، ثم صارت العشيقات يتولين اختياره . وقال بيرون : « من عهد طروادة لم يختطف أحد كما اختطفت أنا » . إن الحاجة إلى الأمن والطمأنينة ملحة عند النساء وهى تدفع الضعيفات منهن إلى التعلق بالرجل الذى ينشدن فيه العضد القوى لما له من البأس والسلطان ، فهن فى أيام الحرب ينشدن فى الرجال شارات الغلبة والظفر ، وينشدن عندهم فى أوقات السلم العبقرية أو الغنى . وتعد هدايا الرجل العاشق لمعشوقته وسيلة لتأييد سيطرته ، ولهذا يهدى كل من الغلمون (البنجوين) والرجل الثرى لمعشوقته حصوات تتفاوت فى بريقها . ويقدم الشرشور إلى أنثاه أغصان الأشجار وأوراقها ، كما يهدى الشـاب إلى خطيبته خيوط الصوف فى صورة ستائر وسجاجيد ، وأنثى السنونو والمرأة متى اختارت كل منهما أليفها فـكرت فى العش الذى يأويهما .

« ح » الثناء — ألوان الثناء هى صنوف من الهدايا ، فقصائد الغزل تبنى على المدح أو الشكوى . أما الشكوى فتثير الشـعور ولـكنها لا تلبث أن تمل . أما الثناء فيرضى لأن أغلبية الرجال والنساء حتى أشدهم كبرياء تعانى « مركب النقص » فأحب نواحى الجاذبية التى يسر المرء أن يوصف بها هى تلك النواحى التى يتشكك

فى نصيبه منها ، فإذا ما شك فى نصيبه من الذكاء فلا أحب إليه من أن يوصف بالذكاء ، ومن أمتع ألوان الثناء لديه أن تزيح له الستار عما يتميز به من الصفات المحببة التى يجهلها فى نفسه أو لا يأبه لها ، وبعض النساء الخجولات الحزينات يتفتحن كما تتفتح الأزهار فى حرارة الشمس بفعل الإعجاب . أما الرجال فلا حد عندهم لاشتهاء الثناء ، ومن النساء الدميات المحرومات من الملاحة من ظللن محبوبات طيلة حياتهن لأنهن كن يحسن الثناء على الرجل.

ملاحظة : يسر الناس أن تمدحهم لا لصفاتهم الظاهرة التى يعرفونها فى أنفسهم معرفتك لها ، بل للصفات التى يعتقدون أنها تنقصهم . فلن يحمد لك القائد أن تتحدث عن انتصاراته ، ولكنه يبقى مديناً لك بالشكر مدى الحياة إذا كشفت له عن بريق عينيه . والكاتب القصصى الشهير يمل حديثك إذا حدثته عن قصصه ، ولكن وجهه يشرق فجأة إذا ما تحدثت إليه فى حماسة عن فوز غامض كان فى الواقع بعض فشله ، أو إذا حدثته عما فى صوته من قوة التأثير .

« د » تودد المرأة للرجل — للمرأة وسائلها الخاصة لغزو الرجل . وقد طالما اعتقدنا أن المرأة تنتظر أن يتقدم إليها الرجل فليس هذا سوى الظاهر ، فبرناردشو يقول : « إن المرأة فى الواقع تترقب الرجل ولكن كما يترقب العنكبوت الذبابة » ، وفى عصرنا هذا تنزل النساء المسترجلات إلى ميدان الكفاح عاريات الصدور ،

وقد كان الغرض من الرقص فى جميع الأزمان التغلب على ما فى بعض الرجال من الحياء مع حملهم على ضبط ميولهم ، أما الرقص الحديث فأكثر اتجاهاً إلى إثارة الشهوة من الرقص القديم أو الرقص الريفى ، وهو من أقوى حيل النوع الإنسانى . ومن أبرز وظائف المرأة الريفية أن تكون وسيطاً بين الرجل وبين الطبيعة . وهى وظيفة تعينها على اكتساب حبه . فكثير من الرجال فقدوا الاتصال بالعالم بسبب عكوفهم على أعمالهم فى عزلة ، فالمرأة إذ تنتزعهم من نشاطهم الجنونى فى أعمالهم ترد إليهم مباهج الغابات والمياه والجبال والبحار ، فتتجلى فى أعينهم بكل محاسن ما كشفت لهم عنه من مباهج الطبيعة .

يقول مثل قديم : « خلق الرجل للحرب وخلقت المرأة للترفيه عن المحارب » ، ففن الحب بالنسبة للمرأة هو فى الغالب تسلية وتشجيع وسند فى وقت واحد . وماعليك إلا أن تدرس الأسلوب الذى غزت به مدام ده منتنون لويز الرابع عشر ، لم يكن هناك أمر ميئوس منه أكثر من هذا ، فمدام ده منتنون لم تكن فى سن الشباب ، ولم يكن اتصالها بالملك إلا بصفتها رائدة لأولاد مدام ده منتسپان الجميلة المتسلطة على عقل الملك ، فماذا جرى ؟ لم تقتصر المرأة الوضيعة المسنة على انتزاع الملك من أحضان مزاحمتها الفاتنة ، ولكنها أقدمت على ما لم تجسر مدام ده منتيسپان على تمنيه ، ففازت بالزواج من الملك ، فماذا كان السر فى ذلك ؟ أولاً أنها ظهرت

بمظهر رسول السلام بين الملك وبين عشيقته التى بدأت تضجره بغضباتها الجنونية ، ومن الرجال من يحتمل من المرأة التى يحبها ثورات الغضب أو الغيرة ولكن إلى حين ، ومنهم من يميل إلى الاضطرابات كمن تشوقه عواصف البحار ، ولكن الأغلبية أكثر ميلا إلى الهدوء ، تأسرهم البساطة واللطف واعتدال المزاج ، وخاصة إذا صادفتهم امرأة مجنونة أبرأتهم من الميل إلى العنف ، والسر الثانى لمدام ده منتنون أنها كانت تشهد فى كل مساء اجتماعات الملك بوزرائه عندها ، وتصغى للتقارير دون أن تنبس ببنت شفة ، وإذا سألها الملك رأيها أثبتت بآرائها الصائبة أنها أصغت وفهمت وحكمت . وهـذا موقف سليم للغاية ، لأن الرجل الجدير بصفة الرجولة يحب عمله أكثر من أى شىء ، بل أكثر من المرأة التى يعشقها ، فماذا يحصل إذا حاولت هـذه المعشوقة أن تصرفه عن مهنته لتشغله بنفسها ؟ ربما طاوعها فى أول الأمر مطاوعة لا تخلو من السخط ، ويكون مستعداً لأن يهب نفسه ذات يوم لمن تشعره بأن عمله يهمها وتستعين بذلك فى السيطرة عليه .

« هـ » الثقافة — تصدح الطيور وتغطس فى الماء ، حتى السراطين تقوم بألعابها البهلوانية الغرامية فى البرك والبحيرات . أما الآدميون فقد اخترعوا التأثير والفتنة باستغلال حذقهم فى نقل بدائع فنون الغير . فبدلا من أن ينشد العاشق معشوقته قصيدة من نظمه يقرأ لها شعر بودلير ، والعازف على البيانو يعزف للمحبوبة

ألحانا لشوبان فتنعكس عبقرية الأستاذ على مترجميه والمعجبين به . ولما كانت الأحاسيس التى تثيرها هـذه العبقرية مرتبطة بشخص حاضر فإنها ترفع من قدر صورته وتجلى ذكرياته . والموسيقى إذ تخلع على النفوس جمالها الرائع ومسراتها الفائقة تهيء هذه النفوس للحب ، فكم ألف بتهوفن وموزارت وڤاجنر بين قلبين ، وكم من الروابط الوثيقة بدأت فى المتاحف وعلى أثر قراءة القصص الجميلة بين اثنين ! إنها تخلق لهما مواضيع للحديث ومُثلا للسلوك ، وأفضل هذه القصص هى فى الواقع دروس فى الحب تلقنهما هذه العاطفة على ما ينبغى لها بين من هم جديرون بها . والثقافة المشتركة تعين على بقاء الحب فى مستوى عال من الشوق والهيام وتسهل قضاء اللحظات الصعبة التى تنشأ عن السأم المرير . فالتثقف إعداد للحب .

« و » المشاركة فى العقيدة — دينية كانت أووطنية أوسياسية أو إعجابا بعمل من الأعمال . والاشتراك فى العقيدة يُعزز الحب تعززاً عجيباً ، فإن كل من كانت له عقيدة عنيفة يبعد أن يحب من لا يشاطره عقيدته إلى درجة من الدرجات ، لأنه لما كان الحب هو السرور المصحوب بفكرة الاشتراك فى غرض خارجى ، فإن المخالفة المؤلمة لهذا الغرض هى عقبة فى سبيل هذا الحب . وليس من سبيل لإنقاذ الحب إلا أحد أمرين : إما ذوق سليم وتقدير غير محدودين لمن لا يشاطرنا رأينا أو أملنا فى تحويل صاحبنا عن ميله .

ولا يتم هـذا التحويل غالباً إلا بتأثير الحب نفسه ، ومشاركة الحبيب لحبيبه فى ميوله أو عقيدته بغير تحفظ هى توكيد للسعادة ، عندئذ يندفع الإنسان بقوة العقل والحس فى الاتجاه المطلوب ، فإذا كان كل عمل محبوب شائقاً ، فإن العمل الذى يمتزج بالحب أحلى وأشهى ومن هذا الامتزاج نشأت الزيجات العجيبة كزيجات العلماء والفنانين والرسل التى جمعت بين روابط الزواج وروابط الزمالة ، وحيث لا تـكون هناك حاجة إلى العمل على كسب الحب إذ يحل محله « الإيمان المشترك » .

٥ — تجنب الملل

يولد الحب على أثر فترة طويلة أو قصيرة من التودد ، ولـكن وفيات المواليد فى عالم الحب كثيرة ، فينبغى العناية الدائمة بتربية هؤلاء المواليد ... فالجدة وهى أقوى مقومات الميل هى فى نفس الوقت أسرع الأمور إلى الزوال . ففى بدء الحب تـكون لـكل قرين ألف ناحية يكتشفها فى قرينه . فـكل منهما قد اصطحب من شبابه ذكريات وصوراً وأغانى وقصصاً إذا ما امتزجت كلها بالملاطفة والتدليل جعلت أوقات الفراغ الأولى حلوة بغير تـكلف ، ولـكن هذه المدخرات تنفد سريعاً للأسف ولا تلبث القصص التى كانت تبدو جديدة أن تصبح معادة مملة ، وكم من الرجال والنساء تصبح أحاديثهم أكثر طلاوة إذا ابتعد أحدهم عن صاحبه ، إذ

يستطيع بلا حرج أن يكرر ما سبقت إعادته . ففى المطاعم مثلا راقب قرينين على مائدة واحدة تجد أن مدة صمتهما متناسبة مع زمن حياتهما المشتركة .. يحدث هذا إذا كان المترافقان خاليين من العبقرية ، لأن العبقرية فى الحب ضمان لبقاء الجدة . فالصادق الحب يطيب له التنقل كل يوم بين أفكار حبيبته كما يطيب لقسيس القرية كل مساء أن يرود مماشى بستانه . وبعض الناس قد خلقوا مخلصين وربما كان مردّ ذلك إلى أن لديهم فكرة عالية عن الحب أو أنهم ممن يشعرون بالحياء أو إيثار ملازمة البيت .

وقد قامت سعادة بعض الأسر على النفور المشترك من الكفاح ومن مخالطة الناس وعلى الميل إلى العيشة المنزلية بين من ألفوا من الأشخاص والأشياء، وأخيراً على الرغبة فى الأمان . أما من أحب بعنف فهو يعرف كيف يتجدد عند اللزوم ، ويقول لنفسه إن الإنسان ليستنفد كل يوم طرق الإرضاء ، ولكن لا بد من الإرضاء ولا بد أن ينتهى الأمر بالحصول على الرضا وربما تم هذا من غير جهد مقصود ، فمتى توافرت الملاحة لشخص دام له رضا محبوبه عنه لأن الملاحة لا تمل ، فكل فعل أو قول متعة .

وحتى الشيخوخة نفسها لا تغير الطبائع ، فإن الوجه يشيخ بلا ريب ولكن الإنسان يسره أن يجد تحت الشعور البيضاء النظرة والابتسامة اللتين أحبهما فى ظل الشعور السوداء أو الشقراء

هل هناك فن لتجنب الضجر ؟ أكبر السر فى تجنب الملل

هو ملازمة الإنسان لفطرته ، فكل جلسة متصنعة يشق على المرء أن يحافظ عليها فضلا عن بعدها عن الجمال . من أجل ذلك كان العشاق العقلاء هم الذين يعملون على التزام طبعهم أمام محبيهم. ويزعم بعض الرجال أنهم قادرون على تكييف المرأة وأن يفرضوا عليها أذواقا وأفكاراً بعينها ، فما أجنهم ! إذ لو كانت طبيعتها بعيدة عن ميولنا فما كان أغنانا عن حبها . أما وقد وقع عليها اختيارنا فيجب أن نتركها على سجيتها ، فإن فى الصداقة كما فى الحب لا يرغب المرء فى التردد إلا على من يشعر معهم بأنه فى حل من أن يبق على سجيته دون عناء أو رياء .

يتوخى مهرة العشاق أن يقع تلاقيهم فى الأماكن الجميلة بطبعها . ومن هذا نشأت تلك العادة المعقولة عادة السياحة فى شهر العسل . وليس من الضرورى أن يذهب العروسان بعيداً ، فإن المرأة إذ أحبت عرفت بغريزتها كيف تصنع المكان الجميل ، ويظهر بعضهن ذوقا ساحراً فى الاستعانة بكل مباهج الطبيعة والفن . فيفرقن بين اللحظة التى يميل فيها الحبيب إلى العزلة مع حبيبه واللحظة التى يحتاج فيها إلى النزهة أو سماع الموسيقى .

المرأة لا الرجل هى الأكثر انشغالا بالحياة الاجتماعية فهى التى يجب أن تكون المدبرة لمغانى غرامه .

أما الرجل فواجبه أن يفهم المنزلة التى يشغلها الحب فى حياة المرأة إذا أراد أن تبقى على حسن نيتها وحنانها . فما أحمق الرجل

الذى يتعالى بفلسفته أو مذهبه ، فيزدرى أفكار النساء ، فإن أفكارهن وإن خالفت أفكاره فهى أخص وأبسط وأعقل . فإذا قام خلاف بينه وبين زوجته أو عشيقته فلن يستطيع أن يقنعها بالدليل والبرهان ، ولكنه يستميلها بالحنو والصبر والصمت . يجب ألا ينسى أن المرأة فى أكثر أيام حياتها تكون تحت رحمة أعصابها أكثر منه ، فإذا كان الرجل فى هذه الفترات العصيبة ينسب شكواها إلى روح الشر بينما لا تكون هذه الشكوى صادرة إلا عن ألم جسمانى فإنه بسبب حالة طارئة يوشك أن يهدم بها ما كان وما يمكن أن يدوم بينهما من رباط جميل .

لقد أصبح تشبيه تقلبات نفس المرأة بتقلبات البحر كلاماً معاداً ولكنه حق ، فالزوج العاقل لا يغضب أبداً بل يكون كالملاح وسط العواصف يرخى الشراع وينتظر ويرجو ، ولا تصرفه الزوابع عن حبه للبحر .

ولعل بعض قواعد فن تجنب الملل تصلح للجنسين معاً

الأولى : أن يلزم كل من الإلفين فى أوج الحب ما كان يلزمه من الأدب والتلطف عند اللقاء الأول ، فإن الأدب عند كرام المنبت لا يتعارض مع إرسال النفس على سجيتها حيث يستطيع الإنسان أن يقول ما يريده بعبارة مهذبة . ومن الخلط أن يظن أن الجلافة هى المظهر الوحيد للصراحة .

الثانية : الاحتفاظ بروح الدعابة ، فيعرف الإنسان كيف

يسخر من نفسه ويرى التفاهة فى أكثر الخلافات ولا يعلق أهمية فاجعة على تلك الشكاوى التى تملأ الحياة الزوجية ، ولا خير فى تجسيم كل إساءة حاضرة بذكرى مشاجرات سابقة .

الثالثة : حصر الغيرة فى حدود معقولة بتجنب المجاراة وإساءة الظن على السواء ففى كليهما إهانة .

الرابعة : الاستعانة بالتباعد أحياناً على خلق تبلور جديد ، فالإجازات الزوجية لها خطورتها ولكنها متى كانت قصيرة يتخللها التراسل عادت بالنفع ، فقد يتفق أن يفقد الزوجان بتأثير الكسل والعادة عذوبة الحديث الحنون فيستردانها بالعبارة المكتوبة

الخامسة — والأخيرة : وهى سر الأسرار : استبقاء الهوى ، يقول بعض الناس لنفسه : لماذا أستمر على التودد إليها ما دمت قد ظفرت بها ؟ ويمكن الإجابة على ذلك بأنها : « وإن كانت لك — فهى ليست ولن تكون لك » وذلك موضوع تفكير بديع من أجل امرأة جديرة به .

ولكن اتقاء إضجار المحبوبة لا يكون سوى عمل لا غناء فيه إذا كنا قد سئمنا هذه المحبوبة فعلا . فهل هناك أيضا فن لاتقاء السأم ؟ أم على العكس يجب أن نسلم بأن هناك نوعين من الرجال والنساء : الأمناء والخونة ، الثابتون والمترددون ، وبأنه غير مجد أن يقوم أحد الفريقين بتمثيل دور الفريق الثانى ؟ — أعتقد أنه فى هذه الحالة كما فى كل الأمور تأتى الطبيعة بأمور يكون

من واجب الإرادة أن تنظمها ، فالتردد وعدم الثبات لا يولدان مع الرجل والمرأة ، بل يطرآن عليهما بتأثير الأحداث التى تقع لهما فى مستهل حياتهما الغرامية ، فقد يكون أحدهما ذا طبيعة نارية ثم يقع على شريك بارد الطبع ، فإذا كانا من ذوى الأخلاق الفاضلة محبين للمعاشرة عاشا فى هـذه الحالة تعسين مع الأمانة ، وإن لم يكونا من ذوى الأخلاق الفاضلة عاشا فى شكوك وخيانة إلى أن يجد كل منهما نصفه المنشود ، وإذ ذاك تراهما قد تبدلا فجأة ؛ فكم من أناس عاشوا عيشة كلها مغامرات ثم استقروا بعدها إلى النهاية لأنهم عثروا على الشريك الموافق . هذه حالات تقلقل الفطرة ، وهناك كذلك تقلقل النفس ؛ فقد يحدث أن يكون الدون جوان رجلا قنوعا متواضع المطالب فى حين قد تكون الدونا جوانا امرأة فاترة فغزواتها ومغامراتها ليست فى الواقع سوى لذائذ لكبريائها أو خيالها لا من قبيل لذائذ الشوق والرغبة والكبرياء يتطلب الإرضاء إذا كان الرجل والمرأة فى ريب من نفسه .

عند ما سمع بيرون أول فتاة أحبها تقول : « كيف أستطيع الاهتمام بهذا الفتى الأعرج ؟ » كان قولها بمثابة شرارة أوقدت نفسه فطفق يبحث عن الثأر طول حياته . وكأين من امرأة سمعنا أنها مضت تهدم كيان الأسرة حولها لا لسبب سوى أنها فى صغرها اعتبرت دميمة ، فهى لا تنفك تلتمس الأدلة على سلطانها لرغبتها فى التحقق من قدرتها . ويتولد الخيال الجامح غالبا من

طفولة خيالية أى بعيدة عن الواقع ؛ فقد ظل شاتوبريان يتنقل من امرأة لأخرى لما برح به فى صباه من ألم الرغبة المنيفة والحيلولة بينه وبين النساء اللاتى كان فى استطاعتهن إرضاؤه . فاتخذ فى نفسه للمرأة صورة مثالية من صور حور الجنان وقضى حياته فى البحث عنها دون جدوى بجملته الخيبة الدائمة يتنقل من عشيقة إلى عشيقة إلى أن أرغمته السن على التسامح ، فاستقر مع آخر امرأة خيل إليه أن واحدة من الحور قد تجسدت فيها وهى جوليت ريكامييه .

يستطيع الكاهن أو الطبيب أحيانا أن يكافحا هذا التقلقل النفسى بنجاح لأن المصاب به متى أدرك طبيعته وسببه فقد يبرأ منه . أما إذا رأى أن مرضه غير قابل للشفاء فلا أقل من أن يجتهد فى إلحاق أقل ما يمكن من الأذى بالناس وليحذر من أن يجعل موضوع غرامه الزائل أناسا خلقوا للإخلاص .

إن للنزوات حلاوتها ولكن الجريمة هى إثارة حب باق عند الآخر لمجرد إرضاء نزوة .

٦ — تقديس الرغبة

كما أن القداسة الحقيقية لا تنحصر فى الذهول وتعذيب النفس أكثر مما تنبنى على التواضع واللطف والإحسان ، كذلك لا تعرف حالات العشق الكبيرة بنزعات الاشتهاء المنيفة ، ولكنها تتميز

بالانسجام التام الدائم فى الحياة اليومية .

روى الراهب هوفلين أن راهبة شابة جاءت يوما تسأل القديسة تيريزا أن تصف لها القداسة ، وكانت تعتقد أن القديسة ستحدثها عن ألوان من الرؤى والأحلام ، ولكن القديسة طلبت إليها فى بساطة أن تتبعها إلى دير جديد كانت قد أسسته حديثا . وهناك مكثت الراهبة الصغيرة عدة أشهر وهى لا تلقى سوى الصعاب والعناء والارتباك والخيبة والشكوى والأعمال الشاقة ، ثم عادت تجسرت على أن تسأل القديسة متى تسمح فتعلمها ما القداسة ، فأجابتها القديسة بقولها : القداسة ؟ إنها ليست سوى أن نتحمل بالصبر والرضا الحياة التى ستكون كل يوم هى نفس الحياة التى قضيناها فى هذا البيت .

مثل أعباء الحب المجيدة تلك التى يعرفها سعداء العشاق كمثل أيام الصيف البديعة التى تغمرنا فيها حرارة الشمس وتجعلنا نعيش فى جو من الفتور والنعيم وتكون فيها السماء الصافية خالية من الأبخرة على نحو لا نستطيع معه أن نتصور أن الغمام يمكن أن يعود فيغشيها ؛ فى هذه اللحظات التى نتصور فيها القرية المتواضعة فى الريف تستحيل فى الضياء إلى سراب ملائكى هذه الأيام وتلك الذكريات الساحرة التى تخلفها هذه الأيام فى نفوسنا وتبعث فينا الأمل فى الاستمتاع بها مراراً أخرى هى ألزم ما تكون لنا لأنها تهبنا القوة والشجاعة اللازمتين لتحمل شهور

العواصف . ولكن لما كان الصيف والرغبة لا يتعديان فى الدوام حدودهما الطبيعية ، وَجَبَ علينا أن نتعلم كيف نحب الأيام الغائمة وضباب الخريف وأمسيات الشتاء الطويلة . يقول أبيل برنارد : إن عواطف الحب يجب أن تشبه أردية السهرة المصنوعة من الحرير المزركش المبطنة بنوع آخر من حرير غفل من النقش ولكنه رقيق نادر ندرة تجعلنا نميل إلى تفضيل البطانة على الأصل . من أى شيء تتكون هذه الهناءة الوقورة الحنون التى تأخذ مكانها إلى جانب الحب فى حياة منذ بدء الحياة الغرامية ولا تلبث أن تتحول إلى سلطان حلو ؟ من أى شيء يتكون هذا الحب الذى يولد من الرغبة ولا يزال يعيش بعدها ؟ إنه يتكون من الثقة والعادة والإعجاب . يخيب ظننا فى الكثيرين من الناس ، ولكن بعضنا قد سعد بلقاء رجل أو امرأة لهما من طبعهما وصراحتهما مالم يخيب ظننا أبداً ، لقد تصرفوا فى كل الظروف كما كنا نتمنى ، ولم يتخلوا عنا فى أسوأ اللحظات . هذا البعض يعرف ذلك الشعور العجيب : شعور الثقة أمام شخص واحد على الأقل يستطيعون فى بضع دقائق كل يوم أن يرفعوا القناع عن وجوههم فى حضرته وأن يتنفسوا بحرية ويظهروا على حقيقتهم من غير خوف أووجل كاشفين عن وجوههم وعن قلوبهم .

الثقة هى يقين نفيس إلى حد أنه كالشوق يضفى سحرا على أتفه الأعمال فهذان رجل وامرأة كانا فى شبابهما يتمنيان الخلوة لحظة

وهما الآن يتمنيان مثل هــذه الخلوة للإفضاء بأسرارهما ، وقد أصبحت ساعة التريض لهما فى نفاسة أوقات اللقاء الغرامية القديمة وهما يعلمان أنهما ليسا متفاهمين فحسب ، بل أن كلا منهما يستطيع أن يتعرف ما يدور بخلد صاحبه . فهما يفكران فى أمور واحدة فى وقت واحد . ويألم كل منهما لما يكدر صاحبه ، ومن يدرى فلعل كليهما مستعد لأن يضحى بحياته من أجل صاحبه .

كذلك الصداقة الكاملة تستطيع أن تلهمنا أمثال هــذه العواطف ، ولــكن الصداقات التى لا يشوبها شىء من التحفظ نادرة جدا على خلاف العشق العظيم فإنه يمنح أبسط الناس حدة الذكاء والثقة وإنكار الذات .

كيف نصف حياة زوجين سعيدين فى خريف الحب ؟ كيف نثبت أن الحبيب المؤله يبقى مؤلها بعد أن يخلع عنه ثوب الخيال ويعود إنسانا عاديا ؟ — ليس هذا بالأمر السهل . إن سنفونية السعادة التى يلحنها موسيقى عبقرى يصح أن تبلغ درجة السمو ، ولــكن صولة الحب العاصف قد تصعد بموسيقى مغمور إلى مثل هذا السمو فنغمات مقدمة بارسفال المتدرجة فى العلو والصفاء تأخذ بلب المستمع فتسمو به فوق الواقع والـ Béatitudes لسيزار فرنك و Requiem لفوريه تعبر عن التجرد العجيب بصورة لا تستطيعها الـكلمات لأن تصاعد نغماتها الطبيعى يضم إلى جانب ذلك تناسقا لا يوصف . وإذا كنت أذكر صلوات فوريه فلأن فكرة الموت

كانت دائما هى النشاز الوحيد الذى يعكر صفو تلك العواطف الخـالصة .

نظم كوفنترى باتمور قصيدة رائعة يصف فيها اختلاط عقل رجل رأى نفسه فجأة يواجه جثة امرأة كانت هى كل العالم فى حسابه ، فوقف يلوم الميتة فى حنو وألم وشكوى . ويعتب عليها تركها إياه ، ويقول : « ليس هذا فى شىء مما تعودناه من لطفك وعظمتك ، ألست نادمة يا حبيبتى على ما وقع منك فى ذلك اليوم من أيام يوليـه الذى فيه أزمعت ذلك السفر الطويل وجعلت تنظرين نظرات مذعورة وتفوهين بعبارة غامضة دون قبلة أو كلمة وداع . حقاً لم يكن لذلك شبيه فيما ألفناه من تصرفاتك » إن من شرف الحب ومن مواضع الخطر فيه أن يكون كل شىء فيه رهناً بحياة شخص هو نفسه عرضة للفناء .

يقف الموت مكتوفاً أمام الحب الخالص ، فقد جمعتنى الصدفة ذات يوم فى أسبانيا بعجوز من الفلاحات ذات وقار رائع ، فقالت لى : « ليس عنـدى ما أشكو منه . . . حقاً لقد لقيت من الحياة نصيباً ولـكنى أحببت فى العشرين من عمرى رجلا . . . وأحبنى فتزوجنا . . . وبعد بضعة أسابيع مات الرجل . . . لقد نلت منه نصيبى على كل حال ، ولقد مضت خمسون سنة وأنا أعيش بهذه الذكرى » . أى عزاء أقوى من ذلك الذى يجعلنا قادرين فى زمن

الألم والوحدة أن نستحضر ذكرى صافية من الحب الخالص ؟ إن الإنسان ليستطيع بفضل غرام نبيل لا تشوبه شائبة ، وبفضل الصور النيرة الناعمة التى يغمر ذلك الحب فيها أفكارنا وأحلامنا وبفضل روائع عظماء الفنانين وبفضل الإيمان الدينى اشترك الإنسان فى أمور أسمى من نفسه واستطاع أن يخرج من تصادم الغرائز السريع شرارة إلهية .

كيف ؟ فى ظنى أنى حاولت أن أشرح لكم ذلك بلا جدوى لأن الحب ليس فى حاجة إلى محللين ، ولكنه أحوج إلى شعراء .

ليست الكلمة الأخيرة من فن الحب فى قصص ستندال ، ولكنها كما قال ستندال نفسه كامنة فى ألحان موزارت . استمعوا إلى موسيقاه ، اصغوا إلى تلك النغمات الخالصة ولهذا الطرب الساحر فإذا شعرتم بعد ذلك أن حبكم مشوش متنافر فاعلموا أنكم تجهلون فن الحب . ولكن إذا وجدتم فى عواطفكم ذلك الكمال وذلك التوافق العجيب اللذين تجدونهما فى هذه الأنغام ، وذلك الانسجام السامى الخالص من كل خلاف ، فأيقنوا بأنكم تعيشون فى حالة من تلك الحالات النادرة الجديرة بأن تعاش ، وهى حالة حب عظيم .

فن العمل

« سرور النفس فى العمل »
(شللى)

ما هو العمل على وجه الدقة ؟ يقول ليتريه فى قاموسه : « الشغل معناه أن نتكلف عناء من نوع ما لإنجاز عمل » وهذا التعريف لا يبدو حسناً . لم قال « نتكلف عناء » ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يعمل فى ابتهاج وسرور ؟ لنقفل القاموس ولنضرب مثلا :

لنتأمل الزجّاج وهو يشتغل ، فماذا يصنع ؟ إنه يتناول عجينة لا شكل لها فيعطيها شكلا نافعاً . وماذا يصنع المعدّن ؟ إنه يقتطع قطعة من مادة أولية كالفحم أو الحديد ويسلمها إلى أناس آخرين يحولونها إلى طاقة أو حرارة أو أداة . وماذا يصنع الزارع ؟ إنه يشق الأرض ويهيئها لتلقى البذور ، ثم يحمل هذه البذور إلى المكان الصالح لإنباتها . وماذا يصنع الكاتب القصصى ؟ إنه يتناول المادة الإنسانية التى جمعها بمشاهداته ويصنع منها ما صنع الزجّاج من تلك العجينة التى لا شكل لها ، وإنه يخرج منها تحفة فنية — وماذا يصنع التلميذ ؟ إنه يحاول أن يُحصّل المعارف التى كسبتها الإنسانية قبله ، إنه ينظم عقله ويكون نفسه . فالعمل هو أن نفرض على المواد وعلى ما وهبته لنا الطبيعة من الكائنات

تغيرات أو تكييفات معينة تجعلها أكثر نفعاً أو أكثر جمالا ، والعمل أيضا هو دراسة نواميس هـذه التحولات وإعدادها أو توجيهها .

١ — إرشادات للعاملين

على الرغم من تعدد الأعمال وتنوعها لا بأس من إيراد بعض الإرشادات التي يعم نفعها جميع العاملين

(ا) يجب أن يختار الإنسان عمله من بين الأعمال المستطاعة ، فإن للمقدرة والذكاء الإنساني حدوداً وكل من طمع فى عمل كل شيء لن يعمل شيئاً أبداً ، فإننا نعرف الكثيرين من أصحاب الكفايات المائعة ، أولئك الذين يهجسون تارة : « أستطيع أن أكون موسيقياً عظيما » وتارة : « من اليسير على أن أكون من رجال الأعمال » وتارة : «سأوفق بلا ريب إذا دخلت الحياة السياسية» .

كونوا على ثقة بأن هؤلاء جميعاً سيكونون دائماً موسيقيين هواة ، وصناعا خاسرين ، وسياسيين مهزومين ؛ وقد كان نابليون يقول : « إن فن الحرب ينحصر فى أن تكون أنت الأقوى فى نقطة معينة » ، وفن الحياة ينحصر فى أن تختار نقطة لهجومك وتركز فيها كل قواك . فلا تدع اختيار عملك للصدفة وأسأل نفسك : «لأى شيء أنا صالح ؟ ما هو استعدادى الطبيعى ؟ » هذا ما يجب أن يتساءل عنه المبتدئ إذ لا طائل من وراء مطالبة

الطبع عما ليس فى مقدوره . فإذا كان لك ولد جسور فمن الخير أن تجعل منه طياراً بدلا من أن تحاول أن تخلق منه مدير مكتب ، فإذا تم الاختيار فلا نكوص ولا ندم ما لم يكن هناك خطأ أو عارض خطر .

وللعمل المختار فروع متعددة تستلزم وقوع اختيار جديد على واحد منها ، فالكاتب لا يستطيع أن يستوعب كل ضروب القصة وليس فى مقدور السياسى أن يتناول بالإصلاح جميع الإدارات والمصالح وتقصر همة السائح عن ارتياد جميع أقطار العالم ، فواجبك هنا أيضاً هو أن تصدر قراراً لا نقض فيه باستبعاد كل ما لا يكون فى حدود طاقتك ، وأن تفسح لنفسك وقت الاختيار .

وكما يختم العسكريون مناقشاتهم متى حسبوا عاقبة « أمر » بكلمة « تنفيذ » فاختم أنت كذلك مناقشاتك الداخلية مع نفسك بمثل ذلك فإذا كنت تسائل نفسك : « ماذا أنا صانع فى العام المقبل ؟ ألهذا الامتحان أعد نفسى أم لذاك ؟ أأسافر إلى الخارج أم التحق بمصنع هنا ؟ » فمن الطبيعى أن تناقش جميع هذه الأسئلة مناقشة مستفيضة ، كما أنه من اللازم أيضا تقرير حد معين لزمن المناقشة يليه الاستقرار على عزم ، فإذا عزمت فانتقل إلى التنفيذ فليس من وراء الندم طائل وليس للتردد والتغيير نهاية .

ولكى تستوثق من صدق اختيارك يحسن أن تضع من حين الى حين منهاجا مكتوبا لأهدافك القريبة والبعيدة فبمراجعة هذا

المنهاج بعد بضعة شهور أو سنوات ندرك مدى قدرتنا ونعرف مبلغ قوتنا على أن نستبعد من عناصر المنهاج العنصر الذى يقتضى التنفيذ العاجل قبل غيره إذ إليه وحده ينبغى أن يوجه الالتفات كله. ألزم عملك ولا تعمل غيره، واعمله بكل قلبك، وليكن جسمك وعقلك موجهين إلى الهدف، فإذا أدركته جاز لك أن تعود أدراجك وتفحص ما عسى أن يكون قد اعترض سبيلك من العقبات وإياك أن تحيد عن عملك قبل الفراغ من إنجازه.

إن الظرفاء من الناس هم الذين يظهرون اهتماما بكل شىء، ولكن الذين ينجزون الأعمال هم أولئك الذين لا يهتمون إلا لأمر واحد فى وقت واحد، وهم أصحاب العقول «ذات الخط الواحد» One track mind كما يقول الأمريكيون، وهم مضجرون فى بعض الأحيان لصلابتهم وانحصار أفكارهم، ولكن حملاتهم المتكررة تنتهى بنسف ما يعترض طريقهم من الحوائل.

(ب) ينبغى أن تعتقد فى إمكان النجاح: فأنت إذا ما حددت غرضك بعناية فمعنى ذلك أنك قد اخترته بحيث أن قواك تمكنك من الوصول إليه إلا إذا حدث حادث. ولا فائدة من أن تهدف إلى ما لا سبيل إلى إدراكه. بل ربما كان فى ذلك الخطر، فقد تزعزع الخيبة ثقتك وتشل جهودك.

كان جيته ينصح للشعراء الشبان أن ينظموا المقطوعات القصيرة وألا يتورطوا فى نظم الملاحم. وكان صموئيل بطلر يقول:

« إذا أكلت العنب فابدأ بأحسن الحبات » وقد يكون من الخير عند وضع مؤلف ضخم معقد أن تبدأ بكتابة أكثر الفصول سهولة . وعند الشروع فى رحلة يشق القيام بها دفعة واحدة لطولها يكون من الصواب أن تُقسم إلى مراحل وأن يتفرغ الإنسان لكل مرحلة على حدة ، ولا يتطلع إلى التى بعدها ، كصاعد الجبل ينظر أمامه إلى كل درجة يحفرها فى الجليد ولا يرفع بصره إلى القمة ، فإن بُعدها يفزعه ، ولا يُخفضه نحو الهاوية فعمقها يهوله . وقد تبدو كتابة تاريخ بلد من البلاد مشروعا فوق الطاقة ، فقسمه إلى عصور وتفرغ لكتابة العصر الذى تجيد معرفته ثم انتقل إلى الذى يليه فالذى يليه ، فستدهش يوما إذ ترى نفسك فى خاتمة متاعبك وأنت تنظر إلى سور الجليد الشاهق الذى اجتزته . وبعد بضعة تجارب يقوى القلب ويصبح التنفس أكثر انتظاما . فالمؤلف الذى وضع عددا كبيرا من الكتب لا يعود يشك فى إتمام مؤلف جديد بدأه . ويشرع فى الصعود فوق نضد من المجلدات فى شجاعة مارتن دوجار ودو هاميل وجول رومان وهو واثق من بلوغ قمته يوما ما .

يصل رجل مثل ليوتى إلى مراكش ، فيرى بلدا قد شمله الانحلال : لا رؤساء ولا مالية ولا جيش ، فلو أن غيره مكانه ليئس من أن يعيد إلى هذا القطر أى نظام ، ولكن ليوتى تفرغ أولا إلى تدعيم سلطته على ما كان فى يده من المدن : رباط الفتح

وفاس ، ومن هذه المراكز مد سلطانه على القبائل مصطنعا سياسة بقعة الزيت ، فصار يستولى على البلاد جزءا فجزءا ويتغلب بعد جهود طويلة على الخلافات فلا يبقى منها إلا الضعيف التافه . وكذلك الحاصد لا ينظر إلى نهاية الحقل ، وربة البيت التى تشرع فى عملية تنظيف واسعة النطاق إنما تتناول خزائنها رفاً رفاً ، ولكن الرجل الطائش يظن أن كل شىء سهل فيعرض نفسه إلى مفاجآت مروعة . والجبان يرى كل ممكن مستحيلا فينكص قبل أن يشرع . أما الصانع الكفء فيعلم أن أموراً عظيمة فى حدود الإمكان فيتمها بحذر واحداً بعد واحد .

(ج) ينبغى أن يوضع لكل عمل نظام يشكو الكثيرون من قصر الحياة ، فهل راضوا أنفسهم على أن يعيشوا ثمانى ساعات فى اليوم ؟ إن العمل الذى ينجزه ذلك الرجل الذى تراه كل صباح منذ الفجر جالساً إلى مكتبه أو أمام منضدة عمله أو فى دكانه لهو من العجائب ، تصور أن الكاتب الذى لا يخرج كل يوم أكثر من صفحتين قد يرى فى آخر حياته أن إنتاجه يُضارع — لا من حيث العبقرية طبعاً ، بل من حيث الاتساع — إنتاج بلزاك أو فولتير ! ولكن جلوسك إلى مكتبك ليس هو كل شىء ، بل يجب أن تتحصن وراء هذا المكتب ، فقيمة عملك ستتضاعف بنسبة هندسية متى كان مستمراً لا ينقطع ، يصح هذا بالنسبة للكاتب الذى يحتاج إلى وقت للمضى فيما هو بسبيله من الأعمال

لينسى العالم الخارجى ولا يلتفت إلا لأفكاره وصور ذهنه ، ويصدق هذا أيضاً بالنسبة للميكانيكى الذى يبحث عن سبب تعطل آلة ولدير المصنع وهو بسبيل إعداد ماسيصدر من الأوامر فإن آثار التقطع تظهر دائماً على العمل المجزأ ، لذا كان من الواجب على كل مشتغل بإنجاز عمل أن يقصى أولئك الذين يسميهم منترلان : « أكلة الوقت » ، وهم بعينهم ثقلاء موليير ، فإنهم مجردون من الشفقة يأخذون آخر ثانية من وقت من لا يقاومهم من غير أن يفكروا لحظة فى أنه لو ترك ونفسه لاستطاع أن يقوم بعمل قيم ، ولكنهم بلا ضمائر « فآكل الوقت » الغليظ القلب لا يتورع فى يوم إعلان الحرب عن طلب مقابلة رئيس أركان حرب الجيش ليحدثه عن حالة بواب منزله فى الجيش : ويمارس « أكلة الوقت » مضايقاتهم بكل وسيلة : بالزيارة وبالتليفون وبالبريد ، والطيبة معهم والصبر عليهم من الأخطاء الجسيمة ، والواجب أن يعاملوا بالشدة ، لأن استقبالهم والاستماع إليهم ليس إلا انتحاراً . ويُعدّ جيته فى هذه المواقف أستاذاً بحق فهو يقول : « يتحتم عليك أن تستل من نفوس هؤلاء الثقلاء ميلهم إلى مباغتتك من غير تنبيه سابق ، حيث إنهم يريدون منك أن تهتم بأمورهم ، وليس من وراء زياراتهم إلا أن يدخلوا عليك أفكاراً غير أفكارك مما لست فى حاجة إليه . لأن عندى من أفكارى ما فيه الكفاية وحسبي أن أصل بهذه الأفكار إلى غايتها .

ويقول فى معرض آخر : « ينبغى لمن يريد انجاز عمل نافع للناس أن يتحصن دون الوقوع فى حبائلهم ، وذلك دفاع شرعى يبرره أن هؤلاء الناس أنفسهم لن يقصروا فى لومك إذا لم تنجز عملا من الأعمال ، وهم لا يعذرونك فيما ضاع من وقتك ، حينما كنت تستقبلهم ببشاشة وسيقولون لك : لقد جانبت الصواب بخروجك كثيراً . إنك تهمل عملك . ثم يقولون بعد ذلك : تفضل شرفنا على الغداء غداً ، وفى هذه الحالة يجب أن تنتهز الفرصة وترفض هذه الدعوى » .

كان جيته إذا باغته واحد من هؤلاء الثقلاء ، لم يلبث الرجل أن يقنط لما يقابل به من الجمود والبرود ، فإن جيته كان يشبك يديه خلف ظهره ويصمت . فإذا كان الزائر من ذوى المكانة تكلف جيته السعال وجعل يهمهم همهمة متداركة ويقول بين الحين والحين : « هكذا هكذا » حتى يقضى على حديث الزائر .

أما الرسائل فإن كانت طلباً ألقى بها فى سلة المهملات ، وإن كانت مما يشتمل على عرض من ورائه فرصة طيبة أجاب عليها . وكان يقول أيضاً : « ويحكم أيها الشباب إنكم لا تعرفون قيمة الوقت [1] » .

ورب قائل : « إن هذه أثرة قاسية ، وإن كثيراً من العظماء يعنون بالرد على الرسائل الموجهة إليهم وإن أناساً جديرين بالالتفات والعطف والمحبة يغمرهم طوفان هؤلاء الثقلاء » .

---

(١) روبرت دى هاركور : جيته وفن الحياة .

إن كثيرين شكوا من تصرفات جيته معهم وكانوا يرون فى ذلك ما ينافى الإنسانية . ولكن لولا هذا الذى ينافى الإنسانية لما أخرج لنا جيته فاوست ، وولهم ما يستر ؛ والواقع أن من استسلم للأكل أكل ومات دون أن ينجز عمله ، والرجل المشغوف بعمله لا يطلب إلى الآخرين إلا ما يستطيعون أن يقدموه إليه فى سبيل هذا العمل . إنه لا يرفض أى شغل نافع يستطيع أن ينجزه فى إتقان، ولكنه يتجنب المجتمعات والمحادثات والدردشة والكلام الفارغ ؛ بل إن جيته ينصح من يريد العمل بألا يهتم بالحوادث اليومية ما لم يكن له فيها بعض الأثر ، وفى الواقع أننا إذا قضينا فى كل صباح ساعة فى استطلاع أخبار حروب بعيدة ، وساعة أخرى فى ذهول لهول نتائجها المحتملة مع أننا لسنا من الوزراء ولا من القواد ولا من الصحفيين فلن نكون قد أدينا أية خدمة لبلادنا ، بل نكون قد بددنا الثروة التى لا تعوض وهى حياتنا الواحدة القصيرة .

(د) كان تنظيم العمل عند جيته على هذه الصورة يستتبع تنظيم الشعور أيضا ، والواقع أننا إذا استسلمنا إلى تقلبات شعورنا بغير تحفظ أصبحنا غير قادرين على العمل ، نعم إن هذه التقلبات طبيعية ولا نستطيع أن ننصح للناس أن يضحوا فى جميع الظروف بحياتهم العاطفية فى سبيل أعمالهم ، ولكن الواجب حفظ القاعدتين الآتيتين ومراعاتهما :

الأولى — ألا يصرفنا عن عملنا شعور باطل أو مبالغ فيه فكم من الفتيان عجزوا عن نوال شهاداتهم بسبب أخطاء امرأة خليعة .

الثانية — أن نضحى بكل شيء في سبيل إنجاز الأعمال التى تستحق هذه التضحية . كما ضحى بروست بحياته لإتمام قصته ، وكما يضحى رئيس الدولة بكل شيء في حالة الحرب أو الأزمة الخطيرة فالمرشال جوفر مثلا كان يأبى على نفسه الاستسلام إلى عواطفه حتى لقد شكا بعض أصدقائه من صلابته ، ولكن هذه الصلابة هى التى مهدت السبيل إلى إصلاح الموقف على نهر المارن .

(ه) إن كبار العاملين كلهم أو جلهم ممن يلجأون إلى العزلة من حين لآخر ، فلهم بيوتهم الخلوية فى الريف أو مغاورهم فى الجبال أو شواطئهم المنزوية حيث يتحللون من جميع الروابط حتى روابط الحنو والمحبة . وهناك تتخذ الحوادث والأحاسيس مكانها المناسب فى لوحة الزمن ، أما فى ضوضاء المدن فإن مشهداً أو مقالا فى جريدة أو مجرد نزوة يلوح أن لها شيئا من الأهمية تحتل مكان الأعمال أو العواطف الجدية ، ولكن تحت سير النجوم البطيء تختفى الأمور الحقيرة فى الظلام ولا تعود ترى ، وفى سكون الليل وفى هدوء النفس يمهد الميدان الفسيح ويتقى من شوائب السفاسف وتوضع أسس الأبنية الخالدة .

كان موريس باريس يقول : أيتها العزلة . . . أنت وحدك

لم تسيئى إلى". ونضيف «أيتها العزلة أنت وحدك التى لم تضعفينى».

٢ — الوكلاء والمساعدون والأمناء

تكلمنا عمن يشتغل بعمل ويختار هو عمله بنفسه ويكون حرا فى تركه أو العودة إليه، ويكون من واجبه أن يفرض على نفسه نظاما خاصا لأنه إذا لم يعمل فليس هناك من يفرض عليه العمل. وعلينا أن نتكلم الآن عن هؤلاء الذين ليسوا هم أنفسهم خالقين للعمل أو رؤساء له بل إن مهمتهم مساعدة أولئك كما يكون الياور ورئيس أركان الحرب ومدير المكتب والأمين أو الأمينة. لهذه الوظائف جميعها قواعد للعمل خاصة بها، فإن من يضطلعون بهذه الوظائف لا يكلفون بأن يرسموا خططا أو يحددوا أغراضا، بل واجبهم أن يعهدوا لمن استخدموهم السبل لإدراك هذه الأغراض وهى مهمة تتطلب صفات خاصة هى:

(ا) التواضع، كل من يشترك مع فريق من الناس فى عمل، وكل من يخدم رئيسا ينبغى أن يكون بعيدا عن الزهو والخيلاء لأنه إذا كان ذا ميول متطرفة وإذا كانت أغراضه تتعارض مع أغراض رئيسه فإن تنفيذ أوامر الرئيس لا يكون مضمونا على وجه الدقة، لأنه سيحاول أن يحيد بها ويوجهها الوجهة التى يريدها. فينبغى أن تكون الثقة بالرئيس هى الرابطة التى تقوم عليها قوة الجماعة التى تعمل معاً. ومن الطبيعى أن امتثال الأوامر

يجب ألا يهبط إلى مستوى العبودية ؛ فمن واجب رئيس اركان الحرب أو مدير المكتب مثلا أن يكون فى استطاعته إذا رأى رئيسه بسبيل خطأ جسيم أن يظهره عليه فى شجاعة . ولكن هذا النوع من التعاون لا يكون مجديا إلا إذا قامت هذه الصراحة على أساس من الإعجاب بالرئيس والإخلاص له . فإذا كان الوكيل لا يسلم بأن الرئيس أكثر منه تجربة وسداد رأى فلن يخلص فى خدمته . ويجب أن يكون نقد المرءوس للرئيس عرضا لا عادة . حدث المارشال بيتان . قال : « كنت فى زمن الحرب إذا رشح لى ضابط جديد فى هيئة أركان الحرب أصطحب هذا الضابط إلى الميدان ، وأضع مشروعا تكتيكيا خاصا يتفق مع طبيعة الموقف وأتولى بنفسى تحديد طريقة الحل والتصرف . فإذا رأيت أن الضابط الجديد يوافق على أقوالى على طول الخط أمرته بالعودة من حيث أتى ، أما إذا وجدت أنه ينقد آرائى فى احترام وحزم مدحته وأبقيته . ومن المحزن أن هذه الطريقة عرفت عنى فى الجيش فلم أكن أفتح فمى بشىء حتى يبادر أصغر ملازم بالرد على فى شىء من الشدة قائلا : — كلا يا جناب المرشال — حتى استشاط غضبى ذات مرة وأمرت ضابطا بالعودة إلى الخندق . . . وكانت هذه خاتمة التجربة » . إذن ماذا يصنع المعاون فى العمل إذا تأكد لديه أنه على حق وإذا أبى رئيسه أن يعبأ بنقده ؟ إن واجبه من جهة المبدأ أن يقوم بتنفيذ الأمر بعد أن يفرغ من إبداء تحفظاته ،

سواء أكان جنديا أو موظفا مدنيا . فإنه لا يتم عمل مشترك إلا إذا كان هنـاك نظام . أما إذا بلغ الأمر حد الخطورة بصورة يتعرض معها مستقبل الوطن أو الجيش أو المشروع إلى البوار ، فنى الاستقالة متسع وعلى الإنسان ألا يلجأ إليها إلا إذا بلغ الأمر منتهاه ، وأن يبقى فى مركزه متى اعتقد أن الخير فى بقائه .

قد يكفى التهديد بالاستقالة لتصحيح الموقف ، ولـكن هـذا التهديد سلاح لا يلبث أن يثلم ، فحينما اشتغل ليوتى فى شبابه لأول مرة تحت قيادة الجنرال جالييني تعلم منه فن تقديم الاستقالات ، فقدكان جالييني ، إذا رفض حاكم الهند الصينية إصدار أمر طلبه ، بادر بتقديم استقالته ، فتحفظ الاستقالة وتقدم له الترضية اللازمة لحاجتهم إليه ، ثم حدث فيما بعد أن نقل ليوتى إلى جزيرة مدغشقر ، وكان جالييني رئيسه الأعلى ، فقام ذات يوم خلاف بين الرجلين ، فعمد ليوتى بدوره إلى تقديم استقالته إلى جالييني ، فأعيدت إليه استقالته بعد بضعة أيام وقد كتب على هامشها :

« كلا هذا لا يجوز علىّ — جالييني » .

(ب) المرونة ، على رئيس أركان الحرب أو مدير المكتب أو الأمينة أن يواءموا بين مجرى تفكيرهم وبين طريقة تفكير الرئيس ، ويلاءموا بين أساليبهم وأسلوبه فى العمل ، فقـد يتكلم الرئيس أحيانا بلغة العرافين ، وعليهم أن يترجموها ، وعلى هـذا النحو كان الجنرال ڤيجان ينقل أوامر المارشال فوش . وتارة

لا تكون أفكار الرئيس سوى مجرد توجيهات كبروق تضيء المستقبل المظلم لحظة ، وعلى رئيس أركان الحرب أن يستخرج من هذه الأوامر إرشادات مفصلة ، فقد كان الجنرال برتييه يترجم أفكار الإمبراطور نابليون إلى حركات وإذا كان الرئيس من ذوى المزاج الحاد فعلى مرءوسيه أن يهدئوا من غضب من نالتهم منه إهانة أو تحقير وأن يرشدوا زائريه سرا إلى المواضع التى يجب عليهم أن يتحاشوها .

التحقت أثناء الحرب بوظيفة مترجم لقائد إنجليزى اشتهر بأنه من كبار المنظمين ، وكان ذا بسالة غير أنه كان ذا مزاج سوداوى وطبع بلغ من شدته أن لقبه ضباطه بالجنرال الأسود ، ولحسن حظى وربما لأنى فرنسى لم أكن أتعرض لنوبات غضبه ، بل كانت الكلفة مرفوعة بيننا ، وكان يدعونى كل يوم إلى تناول الشاى معه دون غيرى . وفى هذه الخلوة كنت أستطيع أن أفضى إليه بكل شىء بحيث انتهى الأمر رويدا رويدا بأن صرت موضع ثقة الضباط البريطانيين ومناط رجائهم ، فكثيرا ما كلفونى بمكاشفة الجنرال بأمور تتصل بمصلحة العمل أو بمرا كزهم . وهى أمور لو أنهم التمسوا مقابلته من أجلها لقوبل طلبهم بالرفض فعرفت عندئذ كم من الخدمات تستطيع تأديتها للأفراد أو للجماعة إذا اتخذك رجل ذو سلطة مستودعا لسره .

ويجب أن نحترم أطوار الرئيس ونزواته ، لأن الوقت الذى

يضيع فى محاربتها خسارة لا شك فيها فمن الخير أن تنتهى الحال بالرئيس والمرءوس بأن يعيشا معا فى انسجام وتعاون ، وعلى المعاون الماهر أن يلم بالكلمات والعبارات التى يجب عليه أن يتجنب النطق بها أمام رئيسه ، إذ أنها توقظ عند الرجل العظيم ذكريات مؤلمة فتثير غضبه ، وأن يعرف كيف يعرض عليه المسائل على الوجه الذى يسترعى اهتمامه ويحمله على أن يبدى فيها الرأى الصالح ، وأن يتبين مواضع الضعف والجهل عند الرئيس فيعمل جهده فى سد النقص بحيث لا ينقص ذلك من احترامه للرئيس .

(ح) كتمان السر — إن أعمال الرؤساء السرية تدعوهم إلى أن يشركوا معهم شبانا لم يعتادوا تحمل مسئوليات السلطة والقيادة ، وأن يطلعوهم على مداولات وقرارات عظيمة الخطر . هذه الظروف الاستثنائية تستوجب كتمان السر . تقابل ذلك قاعدة لا تحتمل الاستثناء ، وهى أن الشاب أو الشابة الفخورين باشتراكهما فى أعمال عظيمة ربما أغراهما حب التظاهر بالتشدق بالقصص والحكايات ، مع أن واجبهما يفرض عليهما الصمت والكتمان ، فإن الضرر الذى ينجم عن إفشاء السر لا حد له ، على أن سرورهما بالقدرة على كتمان السر سيكون أعظم وأوفى . وليس أجدى على الإنسان من أن يرى نفسه وسط شبكة من الأسرار وأن يعرف الحقيقة وأن يكشف عن الأكاذيب ولا يظهر أحدا على شىء من ذلك . وفى هذا الدور كان موقف مدام ريكامييه

يدعو إلى الإعجاب فقد أتى عليها وقت كانت فيه مستودع أسرار رؤساء أحزاب متخاصمين أو رجلين يتزاحمان على مركز من مراكز الدولة أو أحد الكتاب وناقديه . وكانت تصغى للجميع وتهدئ خواطرهم وتبتسم وتقوم بتوصيل رغباتهم عند الحاجة من غير أن تكشف عن شىء من ذلك ولم يكن دورها فى ذلك كله يتعدى مجرد ردود ولكنه دور نافع ظريف كانت تقوم به فى إبداع .

(د) الكفاءة — لا يقتصر واجب المساعد على البحث عما يطلب إليه من المعلومات بل ينبغى عليه البحث أيضا عما عسى أن يطلب إليه منها ، فيتعرف اتجاهات أفكار الرئيس ويمهد الطريق ويستبعد ما لافائدة فيه من المشاغل ويقوم بنفسه بترتيب المسائل مع تيسير الأعمال الضرورية الصغيرة التى تزدحم بها الحياة ، وأفضل أمثلة المساعد هى السكرتيرة الفاضلة فإن وظيفة السكرتيرة ليست مقصورة على تدوين مايمليه الرئيس من الملاحظات وكتابة الخطابات على الآلة الكاتبة ، بل من واجبها تنسيق أشغالها وترتيب الخطابات الصادرة والواردة ومعرفة العناوين بحيث تكون فهرسا ودليلا ومرجعا حيا . ويجب أن تكون مستكملة لكل صفات مدير المكتب مضافا إليها فضائل المرأة . لأنها كامرأة تستطيع أن تفهم بالإشارة أو بالعبارة الموجزة وأن تلطف من مظاهر الأثرة فيما حولها ، وتضفى على المكتب جوا لطيفا ،

وفى نفس الوقت ينبغى عليها ألا تكون امرأة أكثر مما ينبغى ، لأن اليوم الذى يشعر فيه الرئيس بأنوثتها يتأثر فيه العمل ، إن ذلك كله يتطلب توازنا عسيرا ولكن إيجاده لا يتعذر .

٣ — العمل اليدوى والعمل العقلى

ربة المنزل

طالما اعتبر الناس العمل مدعاة للخجل وعدوه عقوبة إلهية ، وقد جاء فى الإنجيل :

« بعرق جبينك تأكل خبزك » . فكانت الأعمال اليدوية تترك للعبيد وكذلك بعض الأعمال العقلية ، ففى روما كان النحوى والحاسب من العبيد ، ثم جاء أصحاب النظريات فأرادوا قسمة الناس إلى فريقين البروليتاريا أو المأجورين . والبرجوازيين وهم الذين يعيشون من دخلهم أو أرباحهم . وهذا تمييز غامض يقتضى أن يعد مدير المصرف الذى يتقاضى مرتبا سنويا قدره مائتا ألف فرنك من المأجورين وأن يحسب التاجر الصغير ومالك الأرض الذى يحصل على عشرة آلاف فرنك بشق الأنفس من البورجوازيين الذين يعيشون على الدخل أو الربح .

وقد اهتدى الآن إلى تعريف أعتقد أنه أعمق وأجدى على الأقل ، وإن لم يكن صحيحا فهو يطلق اسم بروليتاريا على كل

أولئك الذين يعيشون من عملهم سواء أكان هذا العمل يدويا أم ذهنيا مأجورا أم حرا . واسم بورجوازى على كل من يعيشون من كلامهم ، فإذا أخذنا بتعريفه كان كل من النائب الشيوعى والسمسار والشحاذ من البورجوازيين لأنهم جميعا ممن يعيشون من إقناع النـاس بأن ينقدوهم مالا ، وكان البناء والميكانيكى والمهندس والكاتب المجيد من البلوروليتاريا لأنهم فى غير حاجة إلى إقناع الناس بالدفع فإن جودة أعمالهم هى وحدها التى تدعو إلى الإقبال عليها ، وصاحب المصنع الكبير من البروليتاريا إذا كانت ثروته محصورة فى معلوماته الفنية ، وهو من البروجوازية إذا كانت محبة الناس له وعلاقاته تجعله فى عداد أعضاء مجلس الإدارة :

قال . فتكون هناك حالتان مختلفتان :

١ — البروليتارى وهو الذى يعيش من التأثير فى الطبيعة ليحولها ، فهو ليس فى حاجة إلى الإعجاب بل إلى الإخضاع فهو بهذا خشن الطبع لا يكترث بالآداب العامة ، ولا يلبس طبقا للزى الشائع ولكنه يلبس طبقا لمقتضيات عمله .

٢ — البورجوازى وهو شخص خفيف الظل يحسن اختيار ما يروق من القول لمن يقومون بإعاشته كالناخبين والمستمعين والأصدقاء ، وهو يلبس مالا ينفر منه الناس ولقد نظم كبلنج قصيدة رائعة فى بيان الفروق الشاسعة بين أبناء مارتا الذين يعيشون من صناعة الأشياء وبناء الجسور وتبليط الشوارع وقيادة الطائرات

والقاطرات وأبناء مريم المضطجعين على الوسائد اللينة فى عربات النوم الفاخرة ، ينامون هانئين مستمتعين بعمل غيرهم .

إن كل محاولة لتقسيم الناس إلى طائفتين أو طبقتين هى محاولة خطرة ومصطنعة على الجملة ، فقد يكون ابن البورجوازى بروليتاريا فى ذوقه وتصرفاته ، لا يطيب له المقام إلا بين الآلات والمحركات ويكون المهندس من أبناء مريم المترفين إذا سافر ، فإذا دخل مصنعه كان من أبناء مرتا العاملين المجهدين . غير أن الصحيح أيضا أن بعض الناس قد أعفوا من الأعمال الشاقة ، بينما هذه الأعمال هى الحياة اليومية للبعض الآخر ، ومن هنا نشأت أعنف الأحقاد وأقسى الضغائن ، فهل فى الإمكان معالجة شر قديم كهذا ملازم للإنسانية منذ القدم ؟ أما الثورات فقد فشلت وستفشل دائما لأنها تغفل الطبع الإنسانى الذى لا يتبدل وتنسى خطيئة آدم وهى حقيقة لا يمكن إغفالها .

من الجائز أن ينتهى تقدم الآلات — بعد أن صير حياة العامل شاقة رتيبة مملة — بأن يقربه من الحياة البورجوازية ، فقد أنقصت ساعات العمل بما يعادل الثلث تقريبا فى مدى قرن ، وصارت أقسى الأشغال التى كانت تستهلك قوى العامل من عمل الآلات ، وسيتصل تحولها على هذا النحو مع الزمن . حقيقة لقد استغنى بالآلة عن جهد الصانع وحقيقة أن هذا الجهد كان يتطلب ذكاء ومهارة فاستعيض عنه بسلسلة من الأعمال المملة توزع بين العمال ،

ولكن هذا التغير إن هو إلا حالة انتقال ، فلن تلبث مجموعة هذه الأعمال أن تناط بأشخاص آليين من نوع « الروبوت » ، وعندئذ يصبح شغل العامل مقصورا على مجرد الملاحظة فيصير مهندسا .

إن الفكرة الأساسية فى بحثنا هذا فيما يتصل بالعمل اليدوى ، هى : إن أى عمل من الأعمال وضيعا كان أم شريفا ، إما أن يتقن أو لا يتقن . فهناك مثلا طريقتان لحفر خندق : طريقة حسنة متقنة ، وطريقة رديئة خالية من المهارة ، كما توجد طريقتان لإعداد محاضرة . طريقة العمل فى جد وشغف ، وطريقة التهاون والإهمال . والعاملة على الآلة الكاتبة تستطيع أن تخرج نسخة غثة أو نسخة بديعة تبعا لطريقة دقها على الأحرف وعنايتها بآلتها وتماثل أوضاع العنوانات و« توضيب » الصفحة والعناية بالمراجعة ؛ فإذا جعلت هدفها الوصول إلى ما هو فوق الضرورى وأجود منه أصبحت فى عملها فنانة ، ولقيت جزاء مجهودها فى رضا النفس الباقى ، لأن هذا المجهود الإضافى لم تبذله من أجل الرئيس بل من أجل نفسها ، من أجل الإبداع والفخر ، بذلته بإرادة حرة ، وكل عمل ينجز بنية خالصة يمنح منجزه قدرا من الحرية .

قد يصل الرضا بالعمل المتقن إلى درجة يغمر النفس معها سروراً ، فلا تعود تطمع فيما سواه من ألوان السرور والغبطة . وأنا إذا حاولت أن أتخيل جنة النعيم فلن أتخيلها مقاما للفراغ والراحة الأبدية تسكنه أرواح مجنحة عاطلة تغنى وتعزف على

القيثارة ، بل مكتبا أظل أشتغل فيه إلى الأبد بكتابة قصة بديعة لانهاية لها فى عزيمة لذيذة وثقة لم أذق حلاوتها فى هذه الدنيا إلا مدة بضع دقائق نادرة ، ويخيل لى أن فردوس البستانى سيكون بستانا وفردوس النجار منضدة للنجارة .

ربة البيت — : من أروع الأمثلة التى تجمع بين العمل اليدوى والعمل العقلى عمل ربة البيت إذا تم فى شوق ورغبة . والمرأة التى تحسن حكومة بيتها هى ملكة ورعية فى نفس الوقت فهى تدرك وتقوم على تنفيذ ما أدركته وهى التى تيسر العمل لزوجها وأولادها وتغذيهم وتمرضهم وتجنبهم الهموم والوساوس وهى وزير المالية ، بفضلها تتوازن ميزانية البيت ، وهى وزير الفنون الجميلة تخلع على بيتها رواء من السحر ، وهى وزير التربية بفضلها يلتحق الشبان بالجامعة وتشب الفتيات مثقفات .

للمرأة أن تفخر بنجاحها فى أن تصنع من بيتها عالما كاملا ، ولن يكون فخارها دون فخار الرجل السياسى الذى يوفق فى إصلاح بلد . كان المارشال ليوتى يقول بحق. إن مسألة الاتساع والشمول لا أهمية لها ، فإن الكمال هو الكمال فى كل شىء مهما كان مداه.

إن أعمال ربة البيت عند غير طبقة الأثرياء من أشق الأعمال على نقيض أعمال ربات الدعة والراحة ، فالأسبوع ذو الراحتين ، — السبت والأحد — فى نظر العاملات هو الأسبوع الذى يستطعن فيه بعد الانصراف من المصنع أن يخصصن يومين لتدبير

أمور المنزل للغسل ورتق الملابس والعناية بشئون الأولاد . فنى كل أسرة أعمال مستعجلة يجب انجازها ، أضف إلى ذلك حرصها على ألا تكون قبيحة المنظر وعلى أن ترتدى الملابس المحتشمة وأن تتثقف .

وفى الحق أن وظيفة المرأة إذا ما أدبت على الوجه الأكمل لا تترك لها إلا القليل من أوقات الفراغ ، غير أنها من الوظائف التى يجد فيها العمل جزاءه العاجل . فما أجمل أن ترى كيف استطاعت امرأة بالقليل من المال والكثير من الهمة أن تحول مسكنا حقيرا إلى فردوس فى بضعة أيام ، فى هذا يلتقى فن العمل وفن الحب .

٤ — عمل التلميذ

هناك فن للتعليم بطبيعة الحال ، ومهنة المدرس عسيرة تحتاج إلى تجربة طويلة ، وهذا ما يدركه كل منا متى أراد أن يقيم من نفسه معلما لأولاده . يندر أن يكون الأب معلما صالحا إذ يظن تارة أنه على علم بالأشياء وهو فى الواقع لا يعرفها إلا معرفة سطحية وطورا يعرفها ولكنه يسىء شرحها ، وحينا ينفد صبره فيكون قاسيا لأن الدرس يضجره . وحينا آخر يصل به التساهل إلى درجة خطيرة لفرط حبه لأولاده فلا يكون حكمه عليهم سليما[١] .

(١) (اقرأ كتاب « أحاديث عن التربية » لآلان) .

فعلينا الآن إذن أن نتوجه إلى من مارسوا مهنة التعليم وبحثوا فيها ونسألهم الرأى .

(ا) لا تعليم بغير نظام — : أول واجبات التلميذ أن يتعلم كيف يشتغل . فعليه أن يكوّن إرادته قبل أن يكوّن عقله ولهذا كان التعليم المنزلى لا يساوى شيئا . فالأسرة مستعدة دائماً لقبول أعذار التلميذ من أى نوع كانت : فيوما به صداع أولم ينم مدة كافية ، وهو يوما مدعو فى جهة ما ؛ وقد يحتج بأن الممتحن كان جائرا أو أن السؤال لم يوجه بطريقة حسنة . أما المدرسة فلا تعرف هذه الشفقة ، وهذه ميزتها مما قد يحملنى على تفضيل نظام « الداخلية » القديم . وأنا لا أنكر أن للنظام الداخلى عيوبا لا يستهان بها : فهو أحيانا مناف للأخلاق ، وهو قاس ، ولكنه يكوّن الرجال ، فيه يتعلم الأولاد كيف يجدون بأنفسهم مكانهم فى المجتمع ؛ أما فى الأسرة فإنهم يجدون هذا المكان معدا من قبل . وذلك أمر فى منتهى اليسر . وعلى أسوأ الفروض فأننى أعتقد أن نظام « الخارجية » يصح أن يأتى بنتائج حسنة حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة متى كان الوالدان من المعقولين . ولكن بين السابعة عشر والعشرين تكون حياة المدن المفرطة فى الحرية وبالاً على الشبان .

(ب) ليس التعليم تسلية ، أن الغرض من التعليم هو إقامة إطار من المعلومات الابتدائية فى ذهن النشء لرفعه إلى مستوى أهل

عصره ، ثم تدخل فى هذا الإطار الحقائق المكتسبة بالتجربة والاستكشافات الجديدة تأخذ مكانها منه مع مجرى الحياة . وكل محاولة لقلب هذا الترتيب الطبيعى لتكوين عقول عن طريق تسليتهم بمشاهد الحياة الحديثة أمر غير معقول . فالتعليم بالصور وبالراديو وبالسينما فى ذاته غير مثمر ، ولا يمكن التسليم بفائدته إلا إذا كان وسيلة لدفع الناشئ إلى بذل مجهود أو لإثارة تشوقه وحماسه لأن كل ما يحفظ دون عناء لا يلبث أن ينسى ، ولنفس هذا السبب قل أن يرجى كبير فائدة من الدروس الإلقائية التى لا تتطلب من التلاميذ أية مشاركة شخصية فالعبارات البليغة تنزلق على هذه العقول الفتية وتتبدد فليس الإصغاء عملا . ولا ينطبق هذا بطبيعة الحال على تعليم اللغات الحية الذى مداره على السماع .

(ح) الامتحانات والاختبارات ذات فائدة كبيرة — . نسمع بين حين وآخر آباء ومصلحين مهذبين يطالبون بإلغاء امتحان البكالوريا . إنهم مخطئون فلن يكون هناك عمل جدى من غير تسابق ومن غير جزاء . ولقد كان إلغاء المسابقة العامة للمدارس الثانوية أمرا خاليا من الفطنة والتبصر ، وقد أعيدت هذه المسابقات لحسن الحظ ، لأنها أنجع وسيلة لمنح المتفوقين الاعتبار اللائق بهم فى الفصول .

(ى) للمبادئ الأولية أعظم أهمية — . يميل الوالدان إلى التهاون فى أهمية التعليم أثناء السنوات الأولى ، فنسمع بعضهم

يقول : « إن ابنى لا يحسن عمله ، ولـكن لا بأس ، فهو لا يزال طفلا ، إنه لم يتخط الفرقة السابعة » والحقيقة أن كل شيء يتوقف على عدد قليل من أساليب العمل والتفكير يجود تعليمها منذ الصغر ، فإجادة القراءة والـكتابة والعد أمر عظيم فـكم من الناس لا يحسنون القراءة ، أو يقرءون فى عناء فلا تستحضر الـكلمة فى أذهانهم الفـكرة التى يدل عليها اللفظ ، وتسهل الرياضيات أو تصعب تبعا لإتقان مبادئها أو الأهمال فى هذه المبادئ ، وكل من لا يجيد معرفة الـكتب الأولى فى علم الهندسة أولا يلم إلماما صحيحاً بمبادئ الجبر يستحيل عليه أن يفقه شيئا مما يليها ويبنى عليها .

(ﻫ) العلم بالقليل من الأشياء علما تاماً خير من الإلمام بمواد كثيرة إلماما سطحيا — لا فائدة مطلقا من شحن البرامج فليس الغرض من التعليم تخريج فنيين بل تكوين عقول سليمة ، وبعض التداريب تكفى لذلك ، كان نابليون : يقول « علومهم اللاتينية والهندسة » فلنضف إلى ذلك شيئا من التاريخ وقدرا من علم الطبيعة والـكثير من الفرنسية طبعا وكفى .

وليس المهم فى التاريخ وفى العلوم الطبيعية أن يقف الطالب على أحدث الاكتشافات وآخر النظريات الحديثة . بل يكفى أن يعرف الطريقة التاريخية والطريقة العلمية ؛ لأن أعمال العلماء المتقدمين « وهى الأسهل نسبيا » هى أوضح وأفيد له من شكوك

الطبيعيين المصريين ووساوسهم وقد قال آلان أيضا : « يتحتم أن يسير التعليم على مهل » .

٥ — فن القراءة

هل القراءة عمل : إن ڤاليرى لاربو يدعوها رذيلة لا عقاب عليها ، أما ديكارت فعلى العكس من ذلك يسميها « التحدث إلى أشرف أهل القرون الماضية » وكلاهما على حق . إن القراءة تكون رذيلة فى حالة أولئك الذين يجدون فيها نوعا من التخدير والتحرر من عالم الحقيقة والغرق فى دنيا الخيال . فهم لا يستطيعون البقاء دقيقة واحدة بغير قراءة ، ويطيب لهم كل شيء ، فهم يقرءون فى موسوعة فصلا عن الرسم بالألوان المائية بنفس النهم الذى يقرءون به فصلا آخر عن آلات الاحتراق ، وهم إذا تركوا وحدهم فى غرفة ، اتجهوا إلى المنضدة التى عليها الجرائد والمجلات ، وانقضوا على أى نهر تقع عيونهم عليه ، يقرءونه من منتصفه بدلا من أن يستسلموا لحظة إلى أفكارهم الخاصة ، لا يبتغون من المطالعة أفكارا جديدة أو حقائق . إنما غرضهم الاسترسال مع ذلك السيل المستمر من الألفاظ الذى يحجب عنهم العالم ويحجب عنهم نفوسهم . وهم لا يتعقلون إلا القليل من الخلاصات النافعة ، ولا يحسنون الحكم على قيم ما يطلعون عليه من مصادر المعرفة ،

ومطالعاتهم كلها سلبية ، يستسلمون للنصوص ولا يفسرونها ولا يفسحون لها محلا فى عقولهم ولا يتمثلونها .

أما القراءة للاستمتاع فهى أدعى للنشاط ، فهاوى القصص الذى يقرأ للاستمتاع هو الذى يسعى لإيقاظ الشعور بالجمال فى نفسه عن طريق الكتب أو ينشد إيقاظ عواطفه أو يبحث عن مغامرات لا تسمح له بها الحياة ، ويقرأ للاستمتاع أيضا ذلك الذى يحب أن يجد فى أقوال الشعراء والأخلاقيين ما بدا له من الملاحظات وما شعر به من الأحاسيس معبرا عنه بعبارات أدق وأوفى . وأخيرا يعد ممن يقرأون للاستمتاع ذلك الذى لا يتعمد دراسة عصر بذاته من التاريخ ، وإنما يطيب له أن يلاحظ تشابه الشقاء الإنسانى على مر القرون . وهذا نوع من القراءة سليم .

وأخيرا القراءة للدراسة — وهى التى يرمى الإنسان من ورائها إلى البحث عن معلومات معينة ومواد يجد عقله فى حاجة إليها لدعم بناء تراءت له خطوطه الرئيسية أو إتمامه . وينبغى للقارئ فى حالة القراءة للدراسة ألا يقرأ إلا والقلم فى يده ، اللهم إلا إذا كان صاحب ذاكرة جبارة ولا فائدة من القراءة إذا ما اضطر الإنسان إلى إعادة الاطلاع كلما أحب الرجوع إلى الموضوع . وإذا سمح لى أن أذكر ما أصنعه فى مطالعاتى قلت : إنى إذا كنت أقرأ كتابا فى التاريخ أو فى أى موضوع جدى كتبت على الصفحة الأولى أو الأخيرة بضع عبارات تشير إلى الموضوعات الأساسية

التى يعالجها الـكتاب ، وكتبت تحت كل عبارة أرقام الصفحات التى أرغب فى الرجوع إليها وقت الحاجة من غير أن أضطر لقراءة الـكتاب من جديد .

***

وللقراءة قواعدها كما لغيرها من الأعمال ، فلنعين بعض هذه القواعد :

الأولى — لأن يجيد الإنسان دراسة بعض الـكتاب وبعض الموضوعات خير من أن يقرأ للـكثيرين قراءة سطحية ، فإن محاسن المؤلف لا تتضح عند القراءة الأولى . ينبغى أن تسير بين الـكتب فى أيام الشباب كما يسير الإنسان فى الدنيا يبحث عن أصدقاء ولـكنه متى وجد هؤلاء الأصدقاء واصطفاهم اعتكف معهم ، ففى مصادقة مونتينى أو سان سيمون أو رتز أو بلزاك أو بروست غناء للإنسان مدى الحياة .

الثانية — أن تجعل المـكانة الأولى فى مطالعاتك للنصوص الجيدة . ومن المحقق بل من الضرورى ومن الطبيعى أن تهتم بكتاب عصرك ، لأننا نستطيع أن نجد بينهم أصدقاء لهم ما لنا من الحاجات والمشاغل ؛ ولـكن علينا ألا نستسلم لسيل الـكتب الصغيرة ونتركه يغمرنا ؛ فإن البدائع لا يحصى لها عدد ، وليس فى استطاعتنا أن نحيط بها جميعا ، فلنثق فى اختيار أهل القرون الماضية ، لأن الخطأ يجوز على الفرد كما يجوز على جيل من الأجيال

ولكن الإنسانية بأجمعها لا تخطئ . ورجال مثل هوميروس وتاسيت وشكسبير وموليير جديرون بما نالوه من المجد ، فمن حقهم علينا أن نمنحهم الأفضلية على غيرهم ممن لم يحكم لهم الزمن بعد .

الثالثة — أن تحسن اختيار غذائك الروحى ، فلكل عقل أغذية توافقه ، فلنتعلم كيف نتعرف مؤلفينا ، فإنهم يختلفون عن مؤلفى أصدقائنا وإن الإنسان ليدهش من أذواق الآخرين فى الأدب كما فى الحب فلنلزم من يوافقوننا ، فذوقنا فى ذلك أفضل حكم .

الرابعة — أن نحيط مطالعاتنا كلما تيسر ذلك بجو من التفرغ والخشوع يماثل ما نحيط به استماعنا لفرقة موسيقية أو حضورنا لحفلة جليلة .

وليس من المطالعة فى شىء أن ننظر فى صفحة ثم نقطع القراءة لنرد على التليفون ثم نعود فنتناول الكتاب وذهننا شارد ، وينتهى الأمر بأن نودع الكتاب إلى الغد . إن القارئ الصادق يهيئ لنفسه أمسيات طويلة هادئة منعزله ليقرأ ويخصص لكاتب محبوب بعد ظهر يوم الأحد شتاء ويحمد فرصة السفر بالقطار ليعيد قراءة قصة لبلزاك أو ستندال أو مذكرات ما بعد الموت لشاتوبريان ، فيجد لذة حية فى مراجعة عبارة أو قطعة يحبها (مثل صفحات الوردة البيضاء أو المجدلية الصغيرة فى بروست وحفلة زواج ليفين فى تولستوى) كما يترقب هاوى الموسيقى فى البتروتشكا لاسترافنسكى جزء الساحر لينعم بأنغامه .

الخامسة — وأخيرا أن يكون المرء جديرا بقراءة أفضل الكتب لأن القراءة كالفنادق الإسبانية وكالحب لا يجد المرء فيها إلا ما يحمله إليها . فوصف العواطف لا يشوق غير أولئك الذين كابدوها أو من لا يزالون فى ميعة الشباب ينتظرون انبثاق هذه العواطف فى شىء من الضيق والأمل ، ولا شىء أكثر تحريكا للنفس من رؤية شاب كان فى عامه الماضى لا يرتاح إلا لقصص المغامرات وقد استولى عليه ميل شديد إلى قراءة قصة أنا كارينين أو دومينيك ، لأنه عرف وقتئذ ما هى السعادة وما هو الألم فى الحب ؛ وكبار الرجال العاملين هم أكثر الناس قراءة لكبلنج ، وكبار السياسيين أكثرهم قراءة لتاسيت أو رتز .

لقد كان من المناظر الشيقة أن ترى المارشال ليوتى وقد سلبت منه مراكش فى عهد حكومة جائرة عاكفا على قراءة كوريولانوس لشيكسبير .

إن فن القراءة هو فى الغالب فن تعرف الحياة وإجادة تفهمها بفضل الكتب .

٦ — عمل الفنان

يشبه عمل الفنان عمل الصناع الذين يعملون فى منازلهم ويختلف عنه فى نفس الوقت :

يشبه شغل الصانع من حيث إنه يتطلب مهارة فنية لا تكتسب إلا بدراسة أساتذة الفن وبالمران فى صبر وأناة . وطبيعى أن الفن يحتاج إلى موهبة ، غير أننا ينبغى أن نفهم أن الموهبة إذا أهملت ظلت عقيمة غير مثمرة .

لقد رأيت كيف يشتغل ڤاليرى ونظرت فيما كتبه پروست قبل طبعه فلم أر إلا صبرا وطول أناة فى البحث وإصلاحا مستمرا وجهودا ودأبا للعثور على لفظ يؤدى المعنى على وجه الدقة أو كلمة لا يناسب المقام غيرها لأسباب خفية طلبا للتوافق أو الانسجام .

كذلك يحتاج توزيع قطعة موسيقية على الآلات وكتابة هذا التوزيع إلى تربية موسيقية معقدة لا ينالها إلا دءوب على العمل مدقق فيه ولو كان عبقريا . فى أرفع الفنون وأحوجها إلى الغريزة والطبع نصيب من المران والتدريب .

فإذا صبر صاحب الموهبة الفنية على هذه التجارب الطويلة اكتسب خبرة وإحكاما فى يده أو فى قلمه يمكنانه فى بعض الأوقات ، متى كان ذهنه متشبعاً بما يريد التعبير عنه ، من إنجاز موضوعه فى سرعة وتوفيق سريعين يبدوان من العجائب فى نظر من كان غريباً عن الفن . كان وستلر يسخر من أولئك الذين يعيبون عليه إنجاز لوحة فى ساعة ، لأنهم لا يعلمون أنه أنفق حياته كلها فى التجربة والمحاولة حتى وفق إلى هذا الحظ من الإجادة والثقة بالنفس . ولكن اكتساب هذه المهارة الفنية وهو فرض أساسى

إن هو إلا جزء من عمل الفنان . وفى هـذا الصدد يقول ڤاليرى إن القصيدة لاتنتظم بانفعالات ولـكنها تنتظم بكلمات وإن كليهما لازم ، ومتى كان الموضوع فنيا فلا مناص لنا من الرجوع دائما إلى فكرة النظـام والصورة اللذين يفرضهما الفن على الطبيعة ؛ فالصورة ضرورية ولـكنها مهما بلغت من الـكمال فلن تؤثر فينا إذا كانت خلوا من أى معنى آخر . فسمفونيات بيتهوڤن صور بديعة، غير أن هذه الصور تحوى روح بيتهوڤن وأفكاره وآلامه وأفراحه . وقد بلغ راسين الـكمال من حيث القالب ولـكن ما يكون هذا القالب أو الوضع لو أنه خلا من العواطف التى ضمنها راسين هذه الأوضاع ؟

ينبغى ألا يقتصر الفنان على ناحية القالب وفى هـذا يختلف الفنان عن الصانع ، بل يجب أن يعيش فيما يخرجه . إن الشعر عاطفة تطوف بنفس الشاعر وقت الهدوء .

يحسب الإنسان أن حياة الفنان يجب أن تتركب من ثلاثة عناصر على الأقل : عنصر من حياته الإنسانية وعنصر من حياته الجسدية وعنصر من حياته العاطفية . وهذه الأخيرة وحدها هى التى تعلم الشاعر معرفة الإنسان إذا أضيف إليها شىء من التأمل والتخيل فى عزلة ، لأن الفنان إنسان مجتر يعيد مضغ ماضيه ليهضمه ويحوله إلى مادة فنية يضاف إليها جانب من العمل الفنى . وقد يكون هذا الأخير قليلا ؛ فإنى أعرف من أعلام الـكتاب من

لا يعملون أكثر من ساعتين فى اليوم ، ولكن تأملاتهم ومطالعاتهم ومحادثاتهم هى صور مختلفة من العمل ليست أقل ضرورية أو أهمية. يقول جيته : « كل عملنا ينحصر فى أن نكون فى حالة راحة » .

أمن واجب الفنان أن يعيش بين الناس أم بعيداً عنهم ؟ أظن أنه يتعذر الإجابة على هذا السؤال . فالعزلة التامة — وهى من مستلزمات القديس مؤذية لأغلبية الفنانين لأن الفنانين يعملون ما توافرت لديهم مادة العمل . فمارسيل پروست مثلا كان يلزم غرفته وهناك يمضى فى البحث عن الماضى المنقضى . فإذا ما سرنا على طريقته ، وإذا كنا نملك ذاكرة مثل ذاكرته وجد كل منا بلا ريب فى ماضيه مواد لا تحصى ، غير أن أحدا من الناس لن يستطيع بعد پروست أن يصنع ماصنعه هو ، وأكثر الناس يحتاجون إلى التغيير ، وهناك أيضاً نجد جيته خير ناصح ، إذ يقول : الوحدة شىء جميل حينما يكون الإنسان فى سلام مع نفسه وحينما يكون عليه واجب معين . فالمهم إذن هو أن نحدد الواجب قبل أن نبحث عن الوحدة التى يكون فيها إنجاز هذا الواجب مستطاعا .

٧ — فن الراحة

فن الراحة جزء من فن العمل ، فالشخص المتعب الذى يحتاج إلى قسط وافر من الراحة لا ينتج أى عمل فيه فائدة .

وكم من صباح سيء مر بنا عقب ليلة سهاد حيث أبى المخ أن يعمل . فى مثل هذه الحالة تكون جميع محاولاتنا لتطبيق قواعد فن العمل بلا جدوى ، فإن تطبيق هذه المبادئ يستلزم أن نكون مالكين لزمام جسمنا وتفكيرنا ، لأن أعضاءنا لا يمكن أن تعيش بغير أن يتعاقب عليها الشغل والراحة .

لذا كانت طريقة آخر الأسبوع الإنجليزية طريقة حكيمة بالنسبة للصحة الاجتماعية ، فقد رأيت وزراء فرنسيين منهوكى القوى وعيونهم مغمضة بالرغم منهم ، قضى عليهم وهم فى هذه الحالة أن يتخذوا قرارات يتوقف عليها السلم فى أوربا . فى مثل هذه الحالات تكون الراحة فريضة . وعندما يكون التعب نتيجة مجهود جسمانى لا تكون الراحة فنا عسيراً حيث يلقى المرء بنفسه على سريره وينام كالبهيمة . أما فى حالة التعب العقلى فقد يستعصى النوم على من هم فى أشد الحاجة إليه . وعندئذ يكون هناك فن للنوم ، وإليك بعض أسرار هذا الفن :

(١) لكى تنام يجب أن تؤمن بأنك تستطيع النوم . وفائدة تعاطى المنومات بمقادير صغيرة جدا هى بمثابة خلق لهذا الإيحاء الذاتى الموافق .

(٢) لكى تنام يجب أن تتخذ وضعا تكون فيه جميع إحساسات الجسم فى أدنى مراتبها بأن يكون الجسم فى وضع مريح

تماما وأن يكون مستلقيا بتمامه على الفراش ، كما ينبغي أن تكون حرارة المكان ثابتة معتدلة والظلمة كاملة .

(٣) يجب طرد جميع الأفكار الحاضرة التي تسبب الأرق . فالأسلم والأصح إذن هو إرغام العقل إذا تيسر على أن يعود إلى أزمنة بعيدة حيث لم تكن موضوعات مضايقاتنا قد وجدت بعد بأن تفكر في أيام الطفولة أو أيام المراهقة . وأن تستحضر صورا قديمة جدا . وأن تحاول أن ترى هذه الصور من تحت أجفانك المسبلة حيث تتكون البقع الملونة ، عند ذلك تجد نفسك وقد انتقلت رويدا رويدا إلى عالم هادئ يختلف عما أنت فيه وتنام .

وهناك طريقة أخرى مخالفة تماما لهذه ولكنها ناجعة في الأغلب وهي ألا تعلق أية أهمية على الأرق وألا تعتبره من الأمور التي تدعو إلى القلق فتتناول كتابا من غير أن تتقيد بتحديد فترة انتظار النوم بل تمضي في القراءة مترقبا في هدوء وفي غير تبرم أن يحل الفتور الطبيعي في جسدك ويجلب لك النوم .

وليس من السهل في أغلب الأحيان على إنسان نشيط صحيح البدن ملء أوقات فراغه لأنك إذا أبعدته عن عمله مل وضجر وظل يدور في البيت كما يدور الحيوان الحبيس في قفصه ثم لا يلبث أن ينزلق انزلاقا طبيعيا وينحدر نحو الرذائل التي ليست سوى وسائل يستخرج بها الإنسان من جسده أحاسيس متعددة

مشبوبة هى فى الواقع ستار يخفى وراءه شعوره بالملل من فراغ غير مملوء .

إن المدنية الحديثة بما استحدثته من الآلات وما استخدمته من الاختراعات قد زادت فى أوقات الفراغ فعلينا أن نعرف كيف نستخدم هـذه الأوقات ، وإليك بعض الطرق للوصول إلى هذا الغرض .

(ا) العمل المريح — نعنى بذلك أن نمارس بعض الأعمال التى تعتبر شغلا بالنسبة لغيرنا ولـكن ممارستها تروح عن نفوسنا كالتمثيل الهزلى للهواة وفلاحة البساتين والصيد والنجارة ، فهى أشغال بالنسبة للممثل المحترف والبستانى والصائد والنجار وهى ترويح للهاوى ولو مارسها بمنتهى العناية ، ولذلك أسباب هى :

أولا — لمـا كان تغيير العمل يدفع إلى الحركة عضلات وأعصابا أخرى فهو فى ذاته راحة .

ثانيا — لأن الهاوى يحس وهو يمارس هوايته أنه قد تحرر من الـكفاح مع العالم الخارجى ، فهو يعمل فى حرية تامة ويعلم أنه يستطيع فى كل لحظة أن يترك ما هو بسبيل صنعه فيشعر بأنه أعفى من آلام قهر النفس .

(ب) اللعب — فهو نوع من النشاط أكثر ما يكون بعدا عن قصد المنفعة إذ أنه لا يرمى إلى حل مشكلات حقيقية ، بل أن

مداره الخضوع لقواعد اختيارية يسلم بها اللاعبون بمحض اختيارهم ، فلاعب الشطرنج أو البردج لا يكافح العالم بل يناضل ضد الذكاء المحض — وهنا يبرز عاملان من عوامل الراحة : الأول علم اللاعب بأن غلبة منافسه عليه لا أهمية لها . والثانى علمه بأن تدخل الحظ فى مجرى اللعب محدود . هذا وينبغى أن تراعى القيمة الأخلاقية العظيمة للرياضة ؛ فاللاعبون يفرضون على أنفسهم احترام قواعد اللعب وبغير هذه القواعد لا يصح اللعب — فإذا تعود شعب من الشعوب احترام قواعد اللعب وتأصلت مراعاتها فى نفسه على تعاقب الأجيال عن طريق المثابرة على ممارسة الرياضة كان لذلك أحسن الأثر فى تكوين مواطنين يمتازون باحترام القوانين . والإنجليز يأخذون الحياة على أنها ألعاب منظمة خاضعة لقواعد لا معدى عن مراعاتها ، ولهذا يقولون « فلان لا يحسن اللعبة » . يريدون أنه يغش فى الحب وفى الأعمال وفى السياسة . وليست المدنية فى الواقع سوى قبول البشر لعهود متبادلة وأكثر هذه العهود اختيارية ولا تختلف عن قواعد لعبة التنس أو الجلف ولكنها لما كانت تمكننا من تقدير تصرفات أولئك الذين نعيش معهم وفى حالة عدم مراعاتها يحل الخوف فيها محل أدب السلوك ويرغم الناس على احترامها وكذلك يحل نشاط الحرب محل نشاط اللعب .

(ح) مشاهدة التمثيل — نحن فى هذا لا نعمل إلا عن طريق غيرنا ذلك أننا نقعد ساكنين نشهد أعمال الغير ونهتم بها ، لأن أى شأن من شئون الإنسانية لا يمكن أن نعتبره غريبا عنا ؛ فالعواطف والشهوات التى تعرضها المسرحيات إن هى إلا عواطفنا وشهواتنا ونحن نعيش فيها مع المؤلف . وماذا يريحنا فى ذلك ؟ يريحنا أننا فى دنيا الفن غير مطالبين باتخاذ أى قرار .

وهذه القصة التى تهزنا والتى ربما كانت هى قصتنا نحن إنما تقع فى عالم الخيال ونحن نعلم ذلك .

إن الأسلوب الذى ينهجه علم الجمال بعيد جدا عن الأسلوب الذى ينهجه علم الأخلاق ، غير أن المشهد التمثيلى يصرف النظارة عن صغائر الحياة ويشركهم فى نزعات نبيلة تعمل على رفع نفوس الكثير منهم والسمو بها ، بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن هذه التسلية التى نعتبرها هدنة عظيمة القيمة تفصل بين فترات الكفاح الحقيق فى معترك الحياة تصبح بغيضة إذا احتل الاهتمام بالتمثيل المكان الأول من عنايتنا . إن مشاهدة السينما والاستماع إلى الراديو على صورة جرعات صغيرة تروح عن النفس وتهيىء الفكر لأعمال جديدة ولكنها إذا أخذت بجرعات ضخمة فإنها تبلد الذهن . إن هذه الألوان من الترويح تعتبر فى هذه الحالة أكثر من القراءة : « رذائل لا عقاب عليها » .

(ى) السياحة — كل تغيير للمناظر المألوفة فيه راحة ،

لالأنه لا يفرض علينا أعمالاً يومية شاقة متنوعة بل لأنه ينتزعنا من بين مسئولياتنا وتبعاتنا . وإذا استثنينا بعض الأشخاص الرسميين وجدنا أن المسافر يعيش لنفسه لا لوسط معين ولا يتصرف داخل حدود الأسرة . فالبلد الأجنبي ليس إلا مشهدا تمثيليا فى نظرنا لا نشعر فيه بشعور المسئولية الذى لا ينقطع . ويحتاج كل منا من وقت لآخر إلى « حمام » من التجديد والحرية ، على أن فترات الراحة يجب إلا تطول . وأنه ليدهشك حقا أن تجد أن تغيير المنظر لبضعة أيام قد أعاد إلى ذهنك جدته وصفاءه .

٨ — خاتمـــة

إن من يحب عمله حقا يعود إليه بعد راحة قصيرة بلذة عجيبة ، ومتى اندمج إنسان فى صناعته خيل إليه متى انقطع عن العمل أن حياته تتوقف . ومع ذلك أهو ينقطع حقا عن عمله ؟ كلا ! إنه يحمل معه همومه ؛ فالكاتب المسافر مثلا يقلب ويدير فى ذهنه جملة ناقصة التكوين ، وإذا ما استيقظ ليلا تراءت له ألفاظ معادة ، فهو يمحو ويصلح فى الظلام صحفا وهمية ، ومدير العمل الصناعى إذا أبعدته عن مكتبه وجئت به إلى شاطىء البحر أمسك القلم واضطجع على الرمل يعيد النظر فى تعديل تكاليف الإنتاج ، وإذا كان قريبا من مصنعه عاد إليه صباح السبت برغم تغيب الموظفين والعمال وجال فى المنابر الخاوية مفكرا فى تعديلات وطرق آمن وأعمال أعظم .

والزارع يتريض يوم الأحد فى أرضه ، وما من طائفة من الأشجار أو حزمة من الحشائش إلا ولها عنده سبب وقصة ومصير وإن عينه لتدرك الأثر الذى خلفته الأمطار الأخيرة والمياه الغائرة فى زروعه وإن الطريق الذى يسير فيه يحدثه عن ألاعيب هذه المياه وتعاريجها ومعابرها الصعبة وأغوارها ، وكل شيء يحكى له جانباً من أعماله السابقة ويفتح له أبوابا جديدة للعمل لا بد أن تكون الجماعات الإنسانية قد أصيبت بالغباء والخرق ، وأن يكون أصحاب المذاهب الاجتماعية قد تجردوا من إنسانيتهم حتى يزهدوا الناس فى أعمالهم ، لأن تعلق الإنسان بما يصنع عاطفة طبيعية .

وقد صدق من قال : إن « العمل يبعد عنا السأم ويجنبنا الرذيلة ويكفينا شر الحاجة » وهو الشفاء للأمراض التى يخلقها الوهم .

كان الكولونيل الإنجليزى الذى كنت أعمل معه طيلة حرب ١٩١٤ يكرر على سمعى هذه العبارة : « إن الله يبارك العمل » حقا لولا العمل لكنا يومئذ فى شقاء مقيم ، فما كانت أسباب القلق تفارقنا لحظة ، إذ كنا بعيدين عن أحبابنا معرضين للأخطار مشفقين من المستقبل . فكيف كنا نستطيع أن نستسلم لهذه الهواجس الحزينة ونحن غارقون فى لجة العمل ؟

وفى هذه الأيام البغيضة من سبتمبر سنة ١٩٣٨ عندما أصبحنا من جديد على شفا جرف من حرب رهيبة ، وعند ما ساورتنا تصورات دامية من قذف القنابل ليلا ، لم نكن نجد شيئا من الصفاء إلا فى

أحضان العمل . لقد أسعدني الحظ بأن أقضي بعض الوقت في الجيش وكان يقودنا ضباط أذكياء جعلونا نعمل بشوق واهتمام من الصباح إلى المساء بعقول مركزة في العمل موجهة إلى أهداف محددة ميسور إدراكها فلم تكن أذهاننا لهذا تتسع للأحلام المفرطة ولا تقوى على شطحات الخيـال ، وكان علينا في الليل أن ننام لأننا كنا متعبين ، وعلى هذا النحو انقضى الأسبوع الرهيب

وما ينطبق على الأفراد ينطبق أيضا على الشعوب ، فلو أن حكومة نشيطة وضعت لفرنسا برنامجا للعمل لتراءت لنا في نهايته الثقة في النهوض والأمل بالنجاح وإذن لانصرفت عقول الشعب عن الاستسلام إلى الأحلام الغامضة ولمال الجميع إلى المشاركة في عمل عظيم ، واقتنعت البلاد من أقصاها إلى أقصاها بقول رئيسي الكولونيل . إن الله يبارك العمل ! وأنا إنما أحدثكم بذلك عن تجربة وأصدر فيه عن رجاء وطيد .

٤ ـ فن القيادة

إن الإنسان وهو الطموح المتكبر لا يستطيع أن يفهم من نفسه لماذا ينبغي أن يحكمه إنسان آخر ، حتى تجبره حاجاته نفسها على الشعور بضرورة ذلك الحكم . وخوارق الأحداث هي التي تجعله يؤمن بأنه إذا ما ترك بغير قيادة أصبح فريسة للأقوياء ، وتحمله على أن يحب الطاعة بقدر ما يحب حياته وطمأنينته .

لويس الرابع عشر

لا يستطيع الناس أن يشرعوا فى عمل مشترك ، وأن يتموا هذا العمل ويجنوا منه ثماراً طيبة إلا إذا قام واحد منهم بتوجيه نشاطهم فى كل لحظة نحو غرض واحد . تلك فكرة صحيحة وبديهية تصدق على كل الحالات التى ينبغى أن تسير وفقا لنظام مقرر . فلا فائدة من اجتهاد طائفة من العمال فى مد خط حديدى أو طائفة أخرى فى التجديف — مهما بلغوا من قوة السواعد — إذا لم يكن هناك رئيس ينظم حركاتهم . بل إن كل عمل جماعى ترك بغير قيادة لا يلبث أن يؤول إلى الاضطراب والفوضى . وكل من اشترك فى حرب يعرف الحاجة إلى القيادة ؛ وما كان صحيحا فى الجيش فهو صحيح أيضا فى المصنع وفى الجريدة وفى الحكومة فلا غنى للناس عن رئيس حيثما كان لابد أن يعملوا معا ومتى وجد الرئيس وسارت القيادة فى نشاط ودقة حل النظام محل الفوضى .

وفى غضون حرب ١٩١٤ شوهدت فرق سيئة القيادة كانت تقاتل متقهقرة وتستسلم للفزع ، فإذا بها تتحول إلى الشجاعة والمقاومة بمجرد أن يتولى قيادتها قائد كفء .

الشعب هو الشعب والناس هم الناس ، وبغير قيادة لا يكون عمل عسكرى ولا تكون حياة وطنية ولا حياة اجتماعية .

لذلك اتخذت الجماعات فى جميع عهود التاريخ رؤساء جعلتهم رتبا على نسق درجات الهرم . إلا أنه كلما استقر النظام بفضل

هؤلاء الحكام واطمأنت الشعوب إلى مصيرها حاولت هدم نظام الرتب والدرجات حتى إذا عادت الفوضى من جديد أعيد نظام الرتب فى أشكال جديدة .

ففى الدولة الرومانية عند ما فقد أصحاب المراتب الإدارية والعسكرية نفوذهم حل محلهم نظام الطبقات الإقطاعية بعد عهد طويل من الفوضى والاضطراب . وفى روسيا عند ما ألغى نظام رؤساء العمل خلفتهم فى سلطتهم أوليجارشية بيروقراطية من المهندسين . وهذا هو السبب فى أن القائمين بكل ثورة برغم أمانيهم ووعودهم لم يأتوا بالمساواة للناس . يصح بل يجب أن تكون المساواة من نوع «تكافؤ الفرص» التى يسميها نابليون « المناصب لذوى الأهلية » كما يصح بل يجب أن ننشد المساواة أمام القانون لكننا لا نتصور حق الجميع فى القيادة ، كما لا نتصور جماعة بغير قادة .

١ — كيف يختار الرئيس

لم تبتكر الإنسانية فى تاريخها الطويل لاختيار رؤسائها سوى عدد قليل من الطرق هى :

(ا) الرئيس الوراثى — وهى أقدم الطرق استخدمت فى عهد حكم الأسرة حيث كان الابن يخلف أباه . فإذا لم تحصر الوراثة فى الولد البكر تعرضت الجماعة فى ظل هذا النظام إلى نزاع

بين الإخوة يتبعه الشقاق والاضمحلال . وفى التوراة وفى المآسى اليونانية آثار هـذه الخلافات . أما فى عهود الملكية القديمة المقدسة فكان انتقال الملك بطريق الوراثة يجرى دون خلاف . فضلا عن تمتع الرئيس الوراثى فى نظر رعيته بمكانة طبيعية عظيمة الشأن بالغـة الأثر . ويرجع الدور الذى يقوم به الملك فى انجلترا وهو دور الحكم بين الأحزاب إلى هذه المكانة السامية — كان نابليون ، وهو يحاول أن يؤسس أسرة حاكمة ، يشعر بالحاجة إلى هـذه المكانة ، لأنه كان يعلم أن الملك يبقى ملكا ولو هزم ، ولكن نابليون الإمبراطور لم يكن يستند إلا على النصر بعد النصر .

ونحن نصادف نفس الشعور فى الأملاك الواسعة أو المشروعات الكبيرة التى تتوالى على إدارتها أجيال متعاقبة من أسرة واحدة ، فالنظار والوكلاء والزراع الذين يسأمون كل سلطة تراهم يرحبون بسلطة وارث اللقب ، وليس هذا مجرد عادة بل هو شعور طبيعى وقياس صحيح ، إذ أن الأب ينقل إلى أبنـائه تقاليد من حسن القيادة والتعلق بالمشروع ، والمدير الوراثى كالملك الوراثى يشعر بأنه مرتبط بأملاكه بروابط من الشرف تملى عليـه الإخلاص والتضحية وقد شوهدت من ذلك فى فرنسا أمثلة رائعة إبان الازمة الاقتصادية الأخيرة ، وتنحصر أخطار نظام الوراثة هذا فى أن الابن البكر من الأسرة الحاكمة أو القائمة بالادارة قد يكون قليل الكفاية أو جلفا قاسيا ، فهل يعهد بمصالح الشعب أو فى إدارة

المشروع إلى رجل غير أهل للحكم أو الإدارة ؟ كلا .

لهذا رأينا الناس فى بعض البلاد الخاضعة لنظام الحكم الوراثى يلجأون إلى بعض الإجراءات الاستثنائية إذا ما لاح أن الرئيس ضعيف الأهلية للحكم ، ففى انجلترا قام البرلمان فى عدة مناسبات بتعديل نظام وراثة العرش . وفى الولايات المتحدة الأمريكية قام أصحاب بعض المصانع أنفسهم باتخاذ التدابير الكفيلة فى حياتهم بألا تعطى سلطات واسعة إلى غير الصالحين من أعقابهم . وللحكم الوراثى مزايا كثيرة متى استخدم باعتدال وسلامة ذوق وكانت عليه الرقابة من البرلمان أو مجلس الوزراء .

(ب) الرئيس المنتخب — : أول ما يلزم للرئيس هو أن يعترف برياسته . وكل رئيس يختلف على رئاسته رئيس ضعيف . ويجب أن يكون للرئيس المنتخب على من انتخبوه سلطة لا نزاع فيها ، وقد يحدث أحيانا أن تكون الصفات التى أهلته للرياسة هى المقدرة الخطابية أو البشاشة ، وهى ليست صفات الرئيس المنشود ، فتكشف التجربة عن عجزه أو ضعف كفايته ، كما قد يحدث فى بلد منقسم على نفسه أن يكون الرئيس المنتخب لا يمثل إلا أكثر قليلا من نصف عدد الناخبين ، فإذا كان النصف الآخر ينفر منه نفورا يبلغ مبلغ المقت نشأ موقف فيه كل الخطر على الدولة . وكثيرا ما شاهدنا دولا عظيمة استسلمت إلى الشك والقنوط

لا سبب سوى أن الرئيس الذى انتخبته الأغلبية لم يكن حائزاً لثقة أهل البلاد بصفة عامة .

يكون اختيار الرئيس بالانتخاب أمرا خطيرا عندما لا يتعلق الأمر ببلد بأجمعه بل بمجموعة صغيرة يمارس الرئيس عليها سلطة مباشرة لفترة معينة يسقط بعدها أو يعاد انتخابه ، إذ كيف يستطيع أن يفرض طاعته على قوم سيضطر غدا أن يسألهم أصواتهم لإعادة انتخابه ؟

وأما اختيار مدير المشروع أو قائد الجيش بأغلبية الأصوات فمعناه المضى بالمشروع فى طريق الفشل والجيش فى طريق الهزيمة . وما أسرع ما أدركت جميع الدول على اختلاف أنظمتها هذا الأمر ؛ فأكثر الحكومات الشعبية تطرفا قد نبذته واكتفت بأن يقوم الشعب باختيار ممثليه نوابا كانوا أو شيوخا أو وكلاء على ألا يكونوا مديرين أو قوادا بل رقباء .

(ح) المندرية — هى نظام يقضى بأن يختار الرؤساء عن طريق امتحانات تعقد لهم فإذا جازوها بنجاح كان لهم الحق فى شهادات وفى دخول وظائف تؤدى إلى الرئاسة . وقد كان هذا النظام متبعا فى بلاد الصين فيما مضى ، وهو نفس نظامنا الحالى إلى حد ما ، فالتعيين فى وظائف الجيش الرئيسية وفى الإشراف على الأعمال العامة أو فى السلك السياسى وفى كثير من المناصب الإدارية فى فرنسا يتم بناء على امتحانات مسابقة . ويبدو أن هذه

طريقة عادلة ، لأن شروط الامتحان واحدة للجميع ، ولكن لها مساوئها (فيما بعد ذلك بسنوات طوال) ، إذ أن السن التى يجتاز فيها الطالب امتحان المسابقة (سن الشباب) ليست هى السن التى تؤهله لمنصب القيادة أو الرياسة ولأن صفات الرياسة ليست من الصفات التى يمكن كشفها أو تقدير درجتها بامتحان . قال بول فاليرى . « إن أعظم آفات مجتمعنا الانتخاب والدبلومات » .

وتكون المندرية مطلقة عند ما لا يقتصر اشتراط الامتحان على التعيين فى الوظيفة وحده بل تكون الترقية فى مناصب الحكم أيضا بناء على مسابقات جديدة ، كما فى المهن الطبية عندنا .

أما فى وظائف الجيش فلابد للأخذ فيها من اجتياز امتحانات المدرسة الحربية ومدرسة الدراسات العسكرية العليا على أن الأقدمية والامتياز والمحسوبية لها اعتبار فى زمن السلم ، فأما فى أوان الحرب فإن الشأن الأول للنصر وعلى هذا نستطيع أن نقول إن النظام الفرنسى هو مندرية معتدلة .

(د) الأقدمية والامتياز — أما عن الأقدمية فليس لدينا مما يقال فيها سوى القليل ، فإن من البديهى أن الإنسان يزداد خبرة فى مهنته بتقدم السن . اللهم إلا إذا كان من الكسالى أو من الأغبياء أو من المسنودين ، ولكن المسنين كثيرون ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن مراجعة شهادات ميلادهم تكفى لمعرفة أفضلهم ، فلا مفر إذن من تمييز بعضهم على بعض .

وربما كانت أمثل طريقة هي أن يترك أمر الترقية في المناصب إلى كبار الرؤساء ، الذين يقضي نظام العمل أن يعتمدوا على معاونيهم وأن يكونوا مسئولين عن تصرفات هؤلاء المعاونين ، فرئيس الدولة — سواء أ كان ملكا بالوراثة أو رئيسا منتخبا — يختار رئيس الوزراء الذي تقبله الجماعة التي لها الرقابة أو البرلمان . ورئيس الوزراء يختار وزراءه ، والوزراء يختارون كبار الرؤساء ، وهؤلاء يعينون الموظفين في مختلف وظائف إداراتهم ، فيتم بهذا بناء الهرم من قمته ، وهو أمر يعد جنونا في فن العمارة ، ولكنه ناجح في النظام الإداري .

والواقع أن هذا النظام حسن في حدود طبيعة الأمور الإنسانية ، بمعنى أنه نظام سديد من الوجهة النظرية ، غير أن عيوبه تظهر عند التنفيذ ، فإذا استثنينا الرئيس وبعض الوزراء السياسيين فإن كل طرق الاختيار الأخرى بما فيها اختيار الوزراء الفنيين يجب أن تؤسس على الجدارة الفنية والأخلاقية . لأن مصلحة الدولة ، وبالتالي مصلحة القائمين بالأمر أنفسهم ، تقضي بأن يكون القائد العام للجيش ومدير السكك الحديدية وأضرابهما من أمثل الرجال كيفما كانت آراؤهم السياسية أو الدينية ، وكيفما كانت ميولهم وروابطهم ، لأن الرجل الذي يستطيع أن يجرد الناس من شهواتهم وميولهم لم يخلق ؛ وروابط الصداقة والمصاهرة تلعب دورها في الاختيار ، وهو ما يؤسف له أحيانا ؛ فعلى كل منا أن يتولى

الرقابة على غيره وعلى نفسه حتى لا تبخس الكفايات حقها .

(هـ) الرئيس المفروض – فى بعض فترات اليأس ، أى عندما يستولى الضعف والتفكك على الدولة ، لا ينتخب الرئيس بل يفرض نفسه فرضا : فلم تتول أية سلطة عليا اختيار كرومويل ، وهو رجل مغمور من صغار الملاك كان يقود حفنة من الفرسان . ورفعت الثورة الفرنسية بونابرت إلى رتبة جنرال ، لكنه هو الذى أقام نفسه رئيساً للدولة ، والأمثلة القريبة ما تزال ماثلة فى الأذهان. أما أن الرئيس الذى يتولى السلطة بالقوة دون غيرها تكون له فى غالب الأحيان صفات الرئيس فهذا أمر بديهى ، إذ لو لم تتوافر له هذه الصفات لما استطاع الوصول إلى الحكم ، ولكن المسألة هى معرفة ما إذا كانت مميزاته هى مميزات رئيس حزب فحسب أو فى مقدوره أن يسمو بنفسه إلى مرتبة رئيس أمة . أما فى حالة بونابرت فإن روح رئيس الدولة قد تغلبت على ميول الرجل الحزبى ، ومن هنا كانت عظمة القنصل الأول ، فإذا لم يكن قد لازمه التوفيق دائما فإن ذلك لم يمنع أنه أراد بكل مافيه من عزم وقوة أن يكون رسول المصالحة والتوفيق ورئيسا لجميع الفرنسيين على السواء ، وقد قال « لا أنكر شيئا مما قام فى فرنسا من حكم كلوفيس إلى جمعية الأمن العام بل أقبل كل شىء » .

ويثير وصول الرئيس المفروض إلى منصب الرياسة العليا

للدولة مشكلة عسيرة الحل : هى مشكلة من يخلفه . فابن كرومويل لم يتول الحكم طويلا ، ومات ابن بونابارت فى المنفى وخليفة لينين يمقت عمل لينين ويهدمه . والحقيقة أن اختيار الرئيس مسألة ليس لها حل واحد له صفة الكمال . فكل شىء هنا مرتبط بظروف الماضى وبالأغراض التى تنشدها البلاد . وسواء أكان الرئيس منتخبا أم معينا ، مفروضا بالوراثة أم بالقوة ، فإن حكمه لا يدوم إلا إذا كان يملك صفات خاصة لازمة لكل من يجب أن يتولى الحكم .

٢ — صفات الرئيس

رسالة الرئيس هى توجيه نشاط العاملين معه ، ولذا كان لزاما عليه أن يعرف الغرض الذى يريد أن يوجههم إليه ، ومن صفاته :

أولا — الإرادة — : يجب أن يعرف الرئيس كيف يتخذ قراراً وأن يتحمل مسئوليته .

من الطبيعى أنه مطالب بأن يجمع كل المعلومات ويوازن بين جميع العوامل قبل أن يحزم أمره ، فتى استقر اختياره وأصدر أمره وجب أن يظل ثابتاً عليه ، إلا إذا قامت عقبات لم تكن فى

الحسبان ليس من المستطاع تذليلها . فليس أكثر تثبيطا لهمم المرءوسين من تردد رئيس مذبذب . وقد كان الامبراطور نابليون يقول : «إن الثبات يذلل كل صعب» . وكان المستر تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ يريد إقرار السلم وتجنب الحرب وقد تعرضت سياسته للنقد ولكن خصومه أنفسهم يجب أن يعترفوا أنه — وقد اختار هذه الخطة — فقد مضى فيها بكل ما أوتى من عزم وتصميم . ولكى يختار الرئيس طريقه الذى يسير عليه ويحزم أمره على تنفيذه ينبغى أن يكون ذا شجاعة أدبية ، فقد يكون ما اعتزمه عسيرا . لقد كان على المارشال جوفر فى بداية الحرب العالمية الأولى أن يستبعد كثيرين من أصدقائه القواد ففعل . إذ أن التضحية ببعض الرجال تكون أحيانا فى سبيل إنقاذ الكثيرين ممن عداهم .

يستطيع الرئيس ، بل ينبغى غالبا أن يكون شديدا ، ولكن لا يجوز له أن يكون خبيثا أو قاسياً أو حقوداً ، ومن واجباته أن يحتقر الأقاويل والإشاعات ، وأن يوجه التيارات الفكرية ويعمل على نشرها إذا استطاع . ومن الأهمية بمكان أن يجمع الرئيس حوله زمرة تدين له بالولاء وتحسن تنفيذ التفاصيل ، وألا يسمح للأشجار أن تحجب عنه الغابة . إن لديه الفنيين الذين اختارهم ووضع فيهم ثقته لتنفيذ خطته ، فليتركهم يعملون ، وليكتف فى التأكد من صحة تحرياتهم باختبارات متواترة . قيل للمارشال ليوتى

وأنت ماذا تصنع ؟ . . فأجاب « أنا الفنى الذى يتولى الأفكار العامة » . . .

يعرف الرئيس الذى توافرت له تجارب الحكم أنه من المستحيل أن ينظم حركات كل واحد من مرءوسيه على وجه الدقة ، وخاصة فى أمور الاقتصاد ، حيث يقتصر الرئيس على تعيين الاتجاهات وحمل أصحاب المصالح الخاصة على احترام المصلحة العامة .

لا يصح للرئيس أن يدعى إمكان رسم خطة تحقق آمال الملايين من البشر ، فإن منظم حركة المرور يكتفى بأن ينظم انطلاقات العربات ، لكنه لا يعين المسافة التى تقطعها كل عربة والنقطة التى ينتهى عندها شوطها . وعلى الرئيس أن يلهم زمرة معينة من الفنيين الاحترام ، وإلا تطرق إليها الشك وتآمرت ، ولكى يكون الرئيس محترما ينبغى أن يكون هو فى ذاته جديراً بالاحترام .

ولا يكون الرئيس عظيما إلا إذا كان على خلق عظيم بعيدا عن الأغراض ، ربما كان كل من مستر بلدوين ، ومسيو بوانكاريه ينقصه المظهر والتألق ، فقد كان مستر بلدوين على الأخص يصطنع البعد عن التظاهر ، ولكن نزاهة كل منهما كانت فوق كل شك ؛ فكانت تصل إلى حد التزمت فى بعض الأحيان . ولقد تبرع المستر بلدوين للحكومة البريطانية بجزء من ثروته ، أما المسيو بوانكاريه فكان يأبى أن يكلف ساعى الوزارة حمل رسالة شخصية ، وكانت لهذين الحاكمين تلك الصفات البسيطة التى يطلبها الرجل العادى

فى مدير مصنع أو فى زوج طيب ، وكانت هذه الصفات الأولية هى سر قوتهما . ومن الجائز أن يوافق البعض على سياستهما أو لا يوافقون . ولكن خصومهما لم يكونوا يأبون عليهما حقهما فى الحكم .

وفى القناعة والنزاهة قوة للحاكم بأمره ، فكم من صفقة رابحة تهيأت للجنرال بولانجيه خلال حياته العملية ، ولكنه لم يكن فى واحدة منها جديرا بحظه .

وينبغى ألا يتعلق الرئيس إلا بشىء واحد هو عمله ومهنته ، وعليه أن يظهر التحفظ ، ولا بأس من أن يحيط نفسه بشىء من الغموض ، وأن تكون له أسطورته ، ولست ألومه إذا ما تشبث بتنمية هذه الأسطورة ، وفى هذه الحالة يكون للشخص الأسطورى الذى ينشأ إلى جوار شخصه الحقيقى من القوة فى الناس والسلطان عليهم بقدر ما لهذا الشخص الحقيقى نفسه : يصف كبلنج رجلا أفاقا أراد أن يكون ملكا ، فتسلط بسمو أخلاقه على بعض القبائل الجبلية وأصبح ملكا عليها ، ولكنه أضاع مكانته وعرشه عندما تطرق الضعف إلى نفسه فوقع فى غرام إحدى بنات شعبه ، واتضح لهذه المرأة أنه لم يكن إلا إنسانا كباقى الناس . يقول نابليون : « كم من الرجال لم يجرموا إلا بسبب ضعفهم أمام امرأة » .

وهنا يجب أن نتكلم عن امرأة الرئيس ، فإن مهمتها شاقة : عليها أن تحميه من الناس ، وأن تجنبه المتاعب التى لا طائل تحتها ، وأن

تحذر من تحريضه وأن تجعل من بيته مأوى هادئا لامملكة أخرى تفتقر إلى حكم آخر . إنها أكثر الممالك استعصاء على الحكم .

دارت المناقشة ذات يوم فى مجلس وليم بت عن الصفات الأساسية اللازمة للرجل السياسى ، فذكر بعضهم القدرة على العمل وذكر آخر النشاط وذكر ثالث البلاغة الخطابية . فرد عليهم بت قائلا : « كلا إنها الصبر ». وكان قوله حقا لا بالنسبة لرئيس وزارة فحسب بل بالنسبة لكل من قدر له أن يقود جماعة من الناس .

إن الغباء عنصر هام له أثره فى أحوال البشر ، والرئيس المطبوع يتوقع مصادفته ويتهيأ لمقابلته بالصبر ما بقى فى حدوده الطبيعية المعقولة . وهو يعلم أن أحاديثه ستشوه ، وأن أوامره سيساء تنفيذها ، وأن عقارب الغيرة ستدب بين معاونيه ، إنه يعلم ذلك فيحسب حساب كل هـذه الظواهر المحتومة فى تقديراته ، فبدلا من أن يصر على وجود منفذين خالين من العيوب (وهو لن يعثر بهم فى أى مكان) يبذل جهده فى الحصول على أفضل النتائج ممن تحت يده من هؤلاء المنفذين ، أى أنه يقود الناس كما هم لا كما يجب أن يكونوا .

وهناك لون آخر من ألوان الصبر وهو الثبات على الجهد ، فالرئيس القدير لا يشعر بأنه متى أصاب غرضا من الأغراض فإن شئونه وشئون بلاده قد سويت مدى الدهر . فإن أمراً من أمور

هذه الدنيا لن يسوى أبدا . وقد كان نابليون يقول : « إن أعظم الأخطار تهددنا فى لحظـة النصر » وإن بستانا نعنى به أبلغ عناية لا تلبث إذا ما أغفلت شأنه بعض الوقت أن تغزوه الحشائش الضارة وإن بلدا توافرت له أسباب الغنى والقوة لن يلبث أن يصبح لقمة سائغة للخبثاء من أهله ، ثم غنيمة باردة لجيرانه إذا ما أهمل تنظيمه لبضع سنين والرئيس الحصيف يعلم أن غرضا من الأغراض لن يدرك إدراكا كاملا أبداً وأن عليه لهذا أن يستأنف العمل فى سبيله كل صباح .

وهناك فضيلة ليست أقل لزوما للرئيس وهى كتمان السر . كان ريشليو يقول : « الـكتمان روح الأعمال » ، وقد أضاع شارل الأول ملك الانجليز عرشه وطاح رأسه من جراء إفشاء سره ، فإنه كان قد بيت النية للقبض على المحرضين على العصيان فى ساحة البرلمان ، ولـكنه عاد فأفسد تدبيره بإفشاء سر خطته إلى ملـكته الجميلة هنرييت دى فرانس ، وتحمست الملكة فأفضت بتفاصيل ما سيحدث لإحدى أمينات سرها من سيدات القصر ، وكانت لهذه السيدة صلات بالفريق الآخر فبادرت بتحذير أعضاء المجلس المهددين ، وكانت النتيجة أن الملك حين أشرف على دار النيابة وجد العصافير قد طارت ورأى الغوغاء فى هياج . والخلاصة أنه لا ينبغى أن يقول الإنسان إلا ما يلزم لمن يلزم عندما يلزم .

كتب الـكولونيل ديجول : « إنه لا يكسب الهيبة شىء

كالصمت ، فإن الكلام يوهن الفكرة » ويخفف من حدتها فتتبدد الشخصية بينما يتطلب العمل تركزها وللصمت بعد إصدار الأمر وقعه وأثره وعند ما يريد القائد أن يدفع فرقته إلى العمل يهتف فيها : « خذ الحذر » ثم يصمت . ولما كان كل مايصدر عن الرئيس تسرى عدواه فى محيطه ، فإنه حبذا الصمت يخلق الهدوء والانتباه بشرط أن يظل صامتا . فى معركة روكروا وقد كان كونديه الشاب يركب جواده وهو يتوقد حماسة قبل المعركة ويتعرف الميدان ثم يمر بالصفوف وهو صامت . وكذلك كان الجنرال هوش الذى انضجته ممارسة القيادة وهو بعد فى مطالع العمر قد تحول عن صولته الأولى وإشراقه فأصبح وجيزا جافا . ثم أين من كان يضارع نابليون فى صمته ؟ لقد بلغ من صمته أن اقتدى به جنود الجيش الأعظم ، فقد كتب فينى يقول : « لقد عرفت ضباطا أحاطوا أنفسهم بمثل صمت الرهبان ولم تكن شفاههم تنفرج إلا عن النطق بالأوامر وقد كانت للويس الرابع عشر طلعة بالغة العظمة والجد تشيع الخوف والإجلال فى نفوس الجماهير وتحول بين من كان يحوطهم بالتبجيل وبين التبسط حتى فى المجالس الخاصة . ولا ريب أنه من العسير أن يوائم الرئيس بين التحفظ والرزانة اللازمين لحفظ مكانته وبين التودد اللازم لتكوين شيعته ، لكن هذه الصعوبة لا يلبث أن يذللها الإحساس الفطرى لمن خلق لعظائم الأمور .

أضف إلى هذه الطائفة من الصفات الشجاعة الفطرية . وهى الفضيلة الوحيدة التى لا يصاحبها الرياء والخبث ، ثم الصحة ، فمن مقومات القوة للرئيس أن يكون سليما معافى حتى يكون الصبر والعمل والإرادة كلها ميسرة له « كانت للمارشال جوفر فضيلتان : نومه وشهيته ، ونحن مدينون لهما بنتيجة معركة المارن ، ففى اتزان الجسم انتظام عمل العقل . والبرود أعظم الصفات اللازمة لرجل أعد للقيادة . يروى أن جاليينى فى ساحة القتال كان متى انتهى من إصدار أوامره فتح كتابا وأخذ يقرأ . وأن ليوتى وهو قومندان شاب أظهر تعجبه من ذلك فأجاب جاليينى بقوله : « بما أنى قمت بكل ما كنت أستطيع عمله فإنى أنتظر حوادث جديدة وفى أثناء هذا الانتظار أفكر فى شىء آخر » . فكانت هذه طريقة حسنة لجلاء ذهنه والاحتفاظ بهدوء نفسه . وقد نهج ليوتى بدوره نهج أستاذه فيما بعد ، وعند ما كان محاصرا فى مدينة فاس وظن أنه هالك أمر أن يقرأ له شىء من فينى . وكان مونتينى يقول : يسرنى أن أرى قائد الجيش يواجه ثغرة يعتزم أن يهاجمها بعد قليل ويقبل فى نفس الوقت بكليته على حديث ودى مع أصحابه . وكان بروتس يختلس بضع ساعات من الليل أثناء نوبات تفتيشه ليقرأ خلالها بوليب ويعلق عليه فى طمأنينة تامة : النفوس التى تنوء بثقل الأعمال لأنها لا تفهمها فتتركها ثم تعود إليها هى النفوس الصغيرة ...

٣ — ذكاء الرئيس

الخلق مقدم على الذكاء . ولـكن الذكاء لا محالة لازم . ومن المرغوب فيه أن يكون الرئيس ذا ثقافة عامة مهندسا كان أو ضابطا أو سياسيا . فالشعر والتاريخ يعلمانه معرفة النزعات الإنسانية . وتتيح الثقافة لرجل العمل خلوة يستعيد فيها هدوءه وصفاء ذهنه من وقت لآخر ، وتعرض عليه أمثلة من النظام والوضوح ؛ فإن إعادة تنظيم بلد أو قيادة جيش إنما هو في الواقع عمل فني من بعض نواحيه ، فمن اكتسب من دراساته الذوق والشعور بالجمال فاق غيره فيه . كتب المارشال فوش يقول : إذا كان من خصائص الدراسات العلمية أن تعود العقل تحديد الأبعاد والأشكال ماديا فإن من خصائص دراسة الآداب والفلسفة والتاريخ خلق الأفكار عن العالم الحي . وبالتالي إكساب الذهن مرونة وسعة أفق وحفظه في حيوية نشيطة خصبة إزاء مجال الحياة الفسيح ولن يأتي المستقبل للضابط على الأخص إلا بما يعزز ضرورة الثقافة العامة بجانب معلومات مهنته هذا ولا نزاع في أن المعلومات المهنية ضرورية كذلك . بينما كنت أنشر كتابي «محاورات عن القيادة» تلقيت في هذا الموضوع من المارشال فايول ، وهو قائد ممتاز متواضع خطابا يقول فيه : «إن القائد القدير هو الذي يجمع إلى الخلق القويم سلامة الذوق وكثيرا من التحصيل خاصة ، لأن المعرفة لا تكتسب إلا بالاطلاع الواسع .

ولم يفطن الناس إلا قليلا إلى أن كثيرين من كبار قواد الجيش فى الحرب الأخيرة كانوا من أساتذة المدرسة الحربية مثل : فوش وبيتان وأنا وغيرنا كثيرون ، وقد شوهد ذلك لأول مرة : أساتذة يصبحون قوادا عظاما فى الجيش . والفضل فى ذلك للنهج الواقعى المتبع للتعليم بالمدرسة الحربية ؛ فكل شىء فى طريقة التعليم مؤسس على التاريخ وتغير الأوضاع مع مجاراة ظروف العصر على الدوام : شتاء فى الأعمال التحريرية وصيفا فى دراسات عملية فى الميدان. وإخالك لا تجهل أن الأستاذ الذى ظل سنوات عديدة مع تلاميذه يقوم بحل مشاكل الحرب الكثيرة التنوع والاختلاف لا يمكن أن تراه مرتبكا فى ساحة المعركة ، إذ يخرج الحل من دماغه تام الإعداد ويشترط لهذا أن تكون هناك عقول راجحة قد حرصت على حصر التعليم فى مسالك العقل المستقيمة ، مخصصة لكل قوة من القوى التى تتعامل فى سير الحرب (المادية والعقلية والخلقية) نصيبها اللائق ، مع الحذر من إهمال بعضها والاهتمام بالبعض الآخر ، فكلها لازمة على السواء » .

وينبغى أن يكون ذكاء الرئيس بسيطا ، لأن الآراء والخطط الكثيرة التعقيد ضارة بالعمل ، حتى فى الصناعة قد تكون المبالغة فى التنظيم عيبا تعادل الخسارة منه ما ينشأ عن عدم التنظيم من الخسارة ، لأن تعدد الأجزاء التى تنقل القوة يستنفد جهد المحرك . ولهذا السبب نجد أن مشروعات صغيرة يدير كلا منها شخص

بمفرده تصل بلا عناء بجودة الصنف وتخفيض تكاليف الإنتاج إلى التغلب على مشروعات احتكارية واسعة النطاق .

فالرئيس يجب أن تكون له بضعة آراء بسيطة مكتسبة بالخبرة معززة بالعمل ، وفى ظل هذا الدرع الحصين تستقر المعارف الدقيقة التى هو فى حاجة إليها لتناول عمل بذاته .

ويجب أن يكون ذكاء الرئيس مصحوبا بالبشاشة وحسن اللقاء كان ريشليو يقول : « اصغ كثيرا وتكلم قليلا حتى يحسن تصرفك فى حكم الدولة » ، غير أنه لا ينبغى الاصغاء إلا إلى من عرفوا بمعلوماتهم المدعمة وآرائهم الصائبة ، وإذا كانت القدرة على السكوت خيرا فإن فى إسكات الثرثارين نفعا ليس دون ذلك الخير .

ويجب أن يكون ذكاء الرئيس سريعا ، فالوقت عامل أساسى فى كل عمل . وفى كثير من الأحوال قد يكون مشروع ناقص ينجز فى الوقت المناسب خيرا من مشروع كامل لا يمكن إنجازه إلا بعد فوات الأوان . وتبلغ أهمية عامل الوقت أحيانا درجة تجعله الغرض الأساسى فى المسألة « فوزير الطيران لا يصح أن يتساءل : « فى كم من الوقت أستطيع أن أبنى خمسة آلاف طائرة بما عندى من الموظفين وبميزانية وزارتى مع حساب الوقت الذى ستتطلبه العوائق البرلمانية ؟ . بل بما أنه يلزمنى خمسة آلاف طائرة لفصل الربيع فما مبلغ الاعتماد المالى الذى يجب أن أتمسك به ،

وما هو مدى الجهد الذى أطالب به العاملين معى لتحقيق هذا الغرض ؟ » .

ويكون البطء حائلا فى صناعة الأزياء وفى صناعات الحرب وفى إدارة مصرف أو فى إدارة جريدة : فلا معدى من أن يفكر الرئيس فى سرعة وأن يجمع حوله شركاء يعملون فى سرعة وأخيرا يجب ألا يغفل ذكاء الرئيس العادات والتقاليد ، بل يعتبر وجودها نعمة كبرى إذ أن من بين العوامل التى يجب عليه أن يستخدمها لبناء المستقبل طائفة من أقوى الدعائم يستمدها من الماضى ، وعليه أن يعيد نحتها وتشكيلها محاذرا أن يرفضها وقد أوضح كبلنج فى قصة عجيبة كيف أن آلهة النهر عاقبت بنائى الجسور الذين تحدوا سنن العمل القديمة .

نحن معشر أهل القرن العشرين مزودون بأسلحة عجيبة لإخضاع الطبيعة ، ولكن الطبيعة تثأر منا بقسوة مخيفة ، ولا يسهل علينا دائما أن نتنبأ بنتائج أعمالنا ، فقد يخيل إلينا فى أوقات الثورات أن الناس قد نجحوا فى تحطيم القيود التقليدية ، غير أنه يجب انتظار النتيجة للحكم عليهم . فقد انتهت الثورة الفرنسية بإعادة الملكية . فالرئيس العاقل لا ينسى أن صبى الساحر بعد أن نجح فى تحريك المكنسة السحرية بتعاويذه لاقى مشقة عظيمة فى إيقاف سيرها .

٤ – فن القيادة

سواء أكان الرئيس وزيرا أم ضابطا أم مهندسا أم مديرا فهو يتصل بمرءوسيه بثلاث طرق . فبالأوامر التي يصدرها وبالتقارير التي يتلقاها وبالتفتيش الذي يقوم به .

وأول الصفات اللازمة للأمر الذي يصدره الرئيس أن يكون واضحا ، فمن الجائز جدا أن تكون فكرة من الأفكار غامضة وأن يكون مشروع من المشاريع خياليا من بعض نواحيه ، ولكن الأمر يجب أن يكون صريحا ، فكل أمر عرضة لسوء الفهم ، ولكن الأمر الغامض لا يفهم مطلقا ، وقد كان الإمبراطور نابليون يقول : « إنك لا تجيد إلا ما تصنعه بنفسك » . والرئيس الحذر يعرف أن الناس لن يفهموا شيئا من لا شيء وأن جميع الناس ينسون كل شيء ، وعلى هذا فلا يكفي أن تصدر أمرا بل يجب أيضا أن تتأكد من تنفيذه ، ويهمك وأنت تعطى الأمر أن تحسب حساب كل ما من شأنه أن يبطل مفعوله . فالبلاهة وغدرات الحظ لا حد لها ، وقد يقع دائما ما ليس في الحسبان . ويكون الرئيس الذي يحرص على إحباط ما قد تفاجئه به المقادير والذي يعمد إلى نقطة الضعف من خططه فيقومها ضد غباء الأغبياء أكثر توفيقا من غيره في فرض إرادته .

ويبطل لزوم كل هذه الاحتياطات متى وفق الرئيس إلى تكوين زمرة من المساعدين اقتنع بعد طول التجربة بأنه يستطيع أن يعتمد عليهم . فلكل وزير مجرب موظفو مكتبه ، ولكل قائد عظيم هيئة أركان حربه الخاصة . وهذه الزمرة تعرف ميول الرئيس وعاداته ، فتعرف كيف تخدمه وتفهم أوامره بالإشارة وتسهر على نقلها بالضبط ، كما أن هناك غير هؤلاء عدداً قليلاً يمكن الاعتماد عليهم . قيل عن الرئيس ولسون أنه يثق بالإنسانية ولكنه يحترز من جميع الناس ، والرئيس الحقيق يحترز من الإنسانية ولكنه يولى ثقته بعض الناس .

وكيف يختار الرئيس هذا البعض من الناس ؟ إن من وظائف الرئيس أن يعرف المساعدين الذين يختار منهم زمرته حق المعرفة . فقد كان من عوامل قوة المارشال بيتان عندما تولى قيادة الجيوش الفرنسية أنه كان أستاذاً بمدرسة الحرب ، فمرت بين يديه هناك أجيال كاملة من الضباط الشبان وعرفهم . وكان جمبتا يقوم بجولات فى أنحاء فرنسا ليدرس أحوال مديرى الأقاليم . والرجل الذى ينال شرف حكم بلاده يجب أن يحرص على اكتشاف أفضل الرجال ليعهد إليهم ولاية أمورها .

ولا تقتصر واجباته على استعمال العناصر الطيبة فحسب ، بل إن واجبه ومصلحته معاً يقتضيان منه أن يخلق عناصر أخرى جديدة وهذا ما تفعله بعض الأحزاب فى البلاد الأخرى كحزب المحافظين

فى انجلترا فإنه يتتبع فى الجامعات الكبرى أحوال الشبان الذين يتوسم فيهم الصلاحية لتولى مناصب الدولة فى يوم ما ويشرف الحزب على كلية خاصة لتكوين هؤلاء الشبان ، فإذا ماأظهروا فيها مواهب ممتازة حقاً بحث لهم عن دوائر انتخابية ، فتى صاروا نواباً اجتهد رئيس الوزارة فى تهيئة فرصة للعمل للمبرزين منهم بتعيينهم سكرتاريين برلمانيين ثم وكلاء وزارات . ومن مهام رئيس كل حزب أن يضمن انتقاء طبقة حاكمة وكذلك كل من يدير صناعة من الصناعات فإن عليه أن يعمل على إيجاد طبقة قادرة على إدارة العمل ، فمصانع لوكروزو فى فرنسا مثلا لها مدارسها التى تدار بحذق ومهارة وتجرى فيها تصفيات نزيهة لإعداد كل شاب للوظيفة السامية التى هو جدير بها .

ومن العسير أن يسود التفاهم التام داخل الجماعة ، فعلى الرئيس ألا يتسامح فى أن يكون لكل إدارة نعرة طائفية أشبه ما تكون بوطنية محلية تجعلها فى حرب مع الإدارات الأخرى . ففى إدارة السكك الحديدية مثلا سواء أفى قسم النقل أم فى قسم الاستغلال ، وفى هيئة أركان الحرب سواء أفى المكتب الأول أم فى المكتب الثانى يجب على الرئيس أن يُفهم الجميع أن الجيش أو المصنع أو الدولة كل منها جسم حى واحد ، وأن كل نضال بين عضو وسائر أعضاء هذا الجسم إنما هو انتحار لا أكثر ولا أقل .

يحدث غالباً أن تدب عقارب الغيرة بين المرءوسين مع حبهم

جميعاً للرئيس وإخلاصهم فى خدمته ؛ فيتنازعون بعنف مفرط دلائلَ عطفه ورضاه ؛ فعلى الرئيس أن يحذر هذه الميول الهدامة ويلطف من حدتها ؛ كما ينبغى أن يعرف سائق السيارة المحنك من مجرد سماع صوت المحرك أن إحدى الاسطوانات لا تسير كما يجب.
كذلك الرئيس المطبوع يحس بأن الزمرة لا تنتج كما يجب، ويبحث عن السبب وفى غالب الأحيان يكون هذا السبب تافهاً : ذرة من الرمل فى ماسورة أو هزة كتف لم تكن سوى رعدة ولكنها اعتبرت إهانة. كانت للمرشال ليوتى غريزة قادرة على فهم أمثال هذه الأشياء، فكان يقول مثلا : «أرى فلاناً قد بعد عن متناول اليد» ثم يشرع فى الحال فى إشعار العضو المجروح بوطأة الزمام فى لطف وحزم.

وتصل المعلومات إلى الرئيس عن روح الزمرة وتصرفات المنفذين ونتائج الأوامر الصادرة عن طريق التقارير. ومن واجبه أن يرتاب دائماً فى هذه التقارير : عرفت أحد رجال الصناعة المحنكين فكنت أسمعه يقول : « إن جميع البيانات زائفة وكان على حق، إذ لم يكد يخلو موضوع من مبالغة أو تشويه أوحذف، فلكى لا يخدع الرئيس لا توجد سوى طريقة واحدة : هى أن يتنقل من حين لآخر ليرى بنفسه، فإن خوف المرءوسين من هذه الزيارات تفعل العجائب، وإذا بالتقارير تصبح صحيحة. روى المارشال بيتان أنه فى سنة ١٩١٥ — وهو قائد فرقة — تولى

القيادة فى أحد القطاعات التى كانت رياسة الجيش تطلب منذ عدة أسابيع إلى القوة المرابطة فيـه أن تقوم بهجوم ، وكان البلاغ الحربى يعلن منذ عدة أسابيع حركات تقدم لا تتجاوز خمسين متراً بخسائر فادحة ، فما كان من الجنرال بيتان العاقل الحذر إلا أن قصد خط الدفاع الأول ومعه جنزير المساحة ، ورسم خط الجبهة فى تاريخ معين ، وقاس الفرق بين هذا الخط والجبهة الحالية ،فاكتشف أن البلاغات كانت مزورة إرضاء للقيادة العامة، وأن التقدم المزعوم خيال فى خيال : تكون الإحصاءات المقدمة للرئيس فى الغالب إما مزوقة أو مقدمة بصورة ترمى إلى تعزيز رأى الشخص الذى قام بإعدادها . والرئيس المتشدد أحب فعلاً إلى مرءوسيه من الرئيس الضعيف أو القليل الاكتراث . والطريقة المثلى لحمل المرءوسين على قبول الشدة هى ألا يقرب الرئيس إلا من يقدرهم ، فكل إنسان يحتمل النقد فى سهولة متى كانت أخلاقه وذكاؤه بعيدة عن موضوع النقد . وإفصاح الرئيس فوراً أو فى عنف عما فى قلبه هو سياسة حكيمة . والتوبيخ السريع مهما كان قاسياً لا يحدث فى النفس من سوء الأثر ما يحدثه عدم الرضا المشوب بالعبوس وروح الكراهية . ويجب أن يعلم المرءوسون أنهم إذا لم يقوموا بتنفيذ أوامر الرئيس فإنه سيضحى بهم كما ينبغى أن يكونوا على ثقة أيضاً من أنه إذا كان تنفيذ أوامره سيؤدى بهم إلى كارثة فإنه يحميهم . فالرئيس الحقيق يتحمل دائماً مسئولية أعماله كاملة . وكما

أن الملك يجب أن يكون هو المدافع الطبيعي عن رعيته يحميهم ، من مطامع الكبراء فكذلك الرئيس الأعلى يجب أن يسهر على معاملة معاونيه لجميع منفذى أوامره من العمال والجنود والبحارة بالعدل والشرف ، وهذا أشق دور فى مهمة الرئيس ، حيث يكون واجبه فى هذه الأحوال مزدوجاً ، فلا هو يضعف من سلطة مساعديه ولا هو يتسامح معهم فى إساءة استعمالهم لهذه السلطة ، وليست هناك بطبيعة الحال قاعدة معينة تملى عليه ما يفعله ، فالإنسان هنا — كما هو فى كل أمر — كمن يسير على الحبل المشدود يميل بعصاه تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار حتى يحفظ توازنه . وقد كان بيتان فى سنة ١٩١٧ مثالا حسناً لهذا التوازن ، وهو يعمل على تهدئة العصيان بمزيج من الصراحة والعدل والوقار والمحبة.

ومن واجب الرئيس أن يستشعر الامتعاض قبل أن يظهر فيعمل على رفع الحيف قبل وصول الشكوى . وللوصول إلى هذا الغرض يجب ألا ينقطع عن الاتصال بمحكوميه ، وليضح بشىء من راحته وليذهب إلى الخنادق إن كان قائداً أو إلى المصنع إن كان مديراً لعمل وليدرس أحوال مرءوسيه . ومن الضرورى أن يكون للرئيس قوة التخيل ، وأن يجتهد فى تصور حياة الجميع ليجنب من هم تحت إمرته آلاما أو مضايقات يمكن تلافيها . وسر محبة المرءوسين لرئيسهم هو حب الرئيس لهم وزيادة معرفته للمهنة على معرفة الجميع لها ، فالناس يحتملون الحكم بل يرجونه متى حسنت قيادتهم .

٥ — فن الحكم

الحكم والقيادة فى زمن السلم فنان مختلفان ، فالقيادة هى أن يسير القائد بمجموعة من الجند خاضعين لنظام معين نحو غرض محدد ، وقائد الجيش يعرف أنه — فيما عدا حالة العصيان النادرة — أن جنده سيطيعه ويعرف هدفه بكل وضوح وهو الدفاع أو الغزو . أما مدير المشروع الكبير فيعلم أن عليه أن يخرج مقداراً معيناً من المنتجات تباع بسعر معين ، وأنه إذا فشل فى هذا آل أمره إلى البوار وانتهى أمر عماله إلى البطالة ، وهو فيما عدا بعض ظروف التقلقل والجنون الاجتماعى حر فى عمله فى حدود القانون .

أما الدكتاتور فانه على مثال قائد الجيش أميل إلى القيادة منه إلى الحكم .

غير أن مهمة رئيس الحكومة فى دولة حرة هى أن يوجه نحو أهداف غير واضحة أعمال مجموعة من الناس غير مكرهة على طاعته إلا بخوفها من الفوضى خوفاً يزول فى عهود الأمن والهناءة ، فهو لا يتحرك حركة إلا قوبل بالنقد من المعارضة التى تشتد قسوتها كلما كبر أملها فى أن تحل محل من تحكم عليه . أما الذين يلونه فى مراتب الحكم فليسوا له مرءوسين خاضعين بل أنداداً يتوقعون أن يخلفوه على كراسى الحكم .

وفى الدول الديموقراطية يبدو منصب رئيس الوزارة المراقب

النزيه من أشق المناصب فى العالم ، وعند ما يطالع الإنسان بعض عبارات اللوم والتأنيب الموجهة إليه يهم بأن يتساءل كما قال «فيجارو» عن الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها رئيس الحكومة :

« هل يعرف القارىء من الصحفيين كثيرين جديرين بمناصب الوزراء ؟ »

ما هى الفضائل التى نرجو أن نجدها فى من نوليه ثقتنا ونعهد إليه إدارة شئوننا ؟ أن يتوفر فيه قبل كل شىء الإحساس بما هو ممكن ، إذ لا طائل فى عالم السياسة وراء التفكير فى مشروعات سامية نبيلة إذا كانت هذه المشروعات متعذرة التنفيذ بسبب حالة البلاد وظروف الساعة . إن حركات الشعب الحر فى كل لحظة هى عبارة عن مجموع القوى الكامنة فى نفسه . والسياسى الكبير هو الذى يقدر هذه القوى بدقة ، ويقول دون أن يقع فى أخطاء جسيمة: «أستطيع أن أذهب إلى هذا الحد ولن أتعداه» . والسياسى الكبير يتحاشى أن يحكم باسم طبقة بذاتها ويقدر رد الفعل المنتظر من الطبقات التى يضحى بها ، فمثله كمثل الطبيب الحذر الذى لا يفرض على مريضه دواء يجنبه بعض مضايقات وقتية لكنه يسبب له مرضاً آخر لا يشفى ، فالسياسى الأريب لا يعمل على تهدئة خواطر العمال بإغضاب طبقة البرجوازى ، كما أنه لا يتملق البرجوازى على حساب العمال . ويعتبر الشعب جسما حياً تتساند جميع أعضائه ، وهو يختبر حرارة الرأى العام يومياً ويعمل على راحة البلاد كلما ارتفعت الحرارة .

ولكنه إذ يحسب حساب الرأى العام يعلم أنه يسهل تحويل هذا الرأى على رئيس قوى الإرادة يعمل بحذق ومهارة . وينبغى أن يكون الرجل السياسى قد لمس عدم اكتراث الجماهير وذلك أن هذه الجماهير لها نوبات عنف واحتجاجات حارة قد تكون فى جانب الحق إذا كانت الحكومة قد ألقت بهم فى حياة التعاسة أو حرمتهم حريتهم التقليدية أو عملت على اضطراب حياتهم العائلية وكيانهم الوجدانى بتصرفاتها الخرقاء . ولكن هذه الجماهير تسلم قيادها للرئيس الذى يعرف إلى أين هو ذاهب والذى يبدى اهتماماً واضحاً بالمصالح القومية فيبعث الثقة فى نفوس الناس .

وليست حاسة إدراك الممكنات مقصورة على معرفة أى الأعمال ليس فى حيز الإمكان (وهى فضيلة سلبية) بل تشمل العلم بأن بعض الأعمال التى تبدو عسيرة فى الظاهر لا تستعصى فى الواقع على الرجل الشجاع ، فالسياسى العظيم لا يناجى نفسه فيقول : « إن هذا الشعب ضعيف تشله أنظمته ، وتقاليده . وتحول بينه وبين النهوض ، ولكنه يقول إن هذا الشعب فى سبات وسأوقظه من سباته ، أما الأنظمة فهى من صنع البشر وسأغيرها عند الحاجة » .

وليست الإدارة هى قولك أريد أن أعمل ، بل هى العمل نفسه والضعفاء من السياسيين هم الذين يقضون أزهى أوقاتهم فى التحدث بالمشروعات أو بشرح المبادىء والذين يتحدثون عن إصلاح النظم ويفكرون فى وضع مبادىء اجتماعية خالية من الشوائب وفى تقرير

مبادىء للسلام الأبدى . وقد قلنا فيما سبق عند الكلام على فن التفكير : إن المشروع لا يعد عملا . فالناس فى المقاهى العامة يتحدثون ولكنهم لا يحكمون . ورجل الدولة البصير يعرف عند الحاجة كيف يقدم تحيات مهذبة فى خطبه العامة إلى المذاهب المختلفة ويعرف كيف يهدىء ثائرة سدنة المعابد السياسية بكلام يقوله بلغة شعائرهم المألوفة ، بينما هو فى الواقع مشتغل بتحديد حاجات أمته الحقيقية فيقول مثلا : « فى عام ١٩٣٩ هذا يجب على فرنسا قبل كل شىء أن تحافظ على السلم وأن تضمن تعزيز وسائل دفاعها الجوى وأن تزيد إنتاجها وأن تعيد أخيراً تنظيم ماليتها » ثم يتجه نحو هذه الأهداف المحددة سالكا أقرب السبيل ، فإذا ما أغلق دونه طريق لم يعدم الحيلة للحيد عنه إلى طريق آخر . إن الزهو والغرور الفكرى وروح التمسك بأسلوب معين ، كل هذه عراقيل غير مأمونة العاقبة فى العمل السياسى . وقد ترى بعض رؤساء الأحزاب مستعدين لتضحية مصلحة بلادهم فى سبيل عقيدة أو مبدأ معين فليرد الرئيس الخبير عليهم بقوله : « فلتذهب المبادىء ولتبق الأمة » فهل ينتقص هذا من عمله ؟ وهل تبقى المظالم بعد ذلك ؟ علم ذلك عند الله وعنده . فلكل عمل مركب نواح من النقص . ذكر جورج برنانوس فى كتابه القيم « يوميات خورى القرية » كيف أن خوريا مسناً حاول أن يقنع قسيساً شابا بأنه لن يستطيع أحد ولو كان قديساً أن يصنع من كنيسة قرية صغيرة بيعة كبرى أو مجمعاً

لكبار رجال الدين وأراد أن يوضح له فكرته بمثال، فروى له قصة حارسة بلجيكية أرادت أن تجعل كنيسة القرية تضارع فى نظافتها ولمعانها قاعة الاستقبال فى أحد الأديرة، فقال: لقد كانت مجتهدة نشيطة هذه العجوز الصغيرة الشيطانة، كانت تعمد إلى الطلاء بالشمع والحك والتلميع ولكنها كانت تجد فى كل صباح بطبيعة الحال طبقة جديدة من التراب على المقاعد وبعض الفطر على بساط المحراب وشيئاً من خيوط العناكب على الحوائط، خيوط تكفى يا صغيرى لصنع ملابس عرس! ولكن الخادم العجوز لا تيأس فهى تكنس وترش ويبدأ الفطر يتسلق العمد، وتأتى أيام الآحاد فتتسخ الكنيسة، ثم تكون أيام الأعياد فتأتى على ما بقى للأخت الطيبة من رمق » وختم العميد قصته بقوله: « إن هذه الخادم تعتبر من بعض النواحى من الشهداء، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضلها وهى لم تكن مخطئة فى محاربة الأقذار من غير شك، ولكن خطأها هو أنها أرادت أن تقضى عليها كما لو كان ذلك ممكناً، لأن كنيسة فى قرية هى مكان قذر بالطبيعة.

فما ظنك بقارة بأسرها! هذا مكان أكثر قذرا، سيما لو كانت قارة قديمة كأوربة يغزوها الفطر والنمل منذ قرون، وتغشاها الضغائن والأحقاد. وما كان أشبه الرئيس ولسن بتلك القيمة البلجيكية! لقد كان يزعم أنه يستطيع أن يصنع من هذا الكوكب المترب اتحاداً من فقهاء فى القانون. كان هذا معقولا،

ومعقولا جداً بلا ريب ، غير أنه لم يكن ممكناً . لم يكن ممكناً آنئذ أكثر مما هو ممكن اليوم أن يكون من المستطاع تنظيم كل شيء والتنبؤ بكل شيء وتنظيف أوربا لآخر مرة . إن السياسى الأريب يعرف كما تعرف ربة البيت أن التنظيف عملية تعمل كل صباح ، فإذا نشب عراك عمل على إزالته بصبر وأناة ، وفكر وهو يباشر هـذا العمل أن خلافاً جديداً سينشأ بمجرد فض الخلاف الحالى ، وأن هذا الخلاف المقبل بدوره يقبل التسوية ولو كانت ناقصة أو مؤقتة ، لأنه يعلم أن كل أمور الناس ناقصة مؤقتة ، وأن السلام لا يكسب إلا فترة بين حين وحين : عشر سنوات أو عشرون سنة ثم تنتهى مهمة هـذا الجيل وعلى الجيل الجديد أن يعيش يوماً بيوم .

٦ — حقوق الرئيس وواجباته

من حق الرئيس الذى يثبت أنه جدير برياسته أن يطاع . وكل جماعة لا تستطيع بذل الطاعة لمن اتخذتهم من الرؤساء هى جماعة مقضى عليها ، لأنها تصبح عاجزة عن العمـل . ولا شك فى أن لـكل جماعة إنسانية أن تؤثر نظاما للطبقات على غيره ، ففى وقت الحرب مثلا يحل السلّم العسكرى محل السلّم المدنى ، ومتى وقع الاختيار وجب أن يكون كل فرد أمينا فى مركزه ، ففقدان النظام فى المصانع هو الإفلاس ، كما أن فقدان النظام فى الجيش

هو الهزيمة . ومما يسيء إلى كيان الجماعة أن تتدخل فى شئونها هيئتان بينهما خصومة ، فما أقبح أن يتجاذب العمال نظام رؤساء العمل والنظام النقابى . والواجب أن يتحدد مدى سلطة رئيس العمل ومدى سلطة النقابة ، ومتى تم وضع هذا التحديد منح كل منهما النفوذ التام فى منطقة اختصاصه . وقد اتضح من تجارب انجلترا والبلاد الاسكنديناقية امكان ذلك .

ومن حقوق الرئيس البقاء فى منصبه ، إذ كيف يستطيع أن يحصل على نتائج عظيمة إذا لم يمنح الوقت الكافى ؟ وقبل أن نعهد إلى رجل فى إصلاح مستعمرة أو تنظيم بناء الطائرات يلزمنا بداهة أن نجمع كل المعلومات اللازمة وأن نتأكد أن الرجل المختار هو أصلح الرجال ، ومتى تم هذا الاختيار ينبغى أن نمنحه الوقت الكافى للحصول على قسط من التجربة ، وأن نؤيده ، إلا إذا دل الاختبار بصفة لا تقبل الشك أننا أخطأنا فى اختياره وأن الرجل غير جدير بثقتنا ، فإن بقاء الرجل فى منصبه من شأنه أن يعقد من الروابط ويخلق من الصلات مايسهل له توطيد سلطته. كان ليونى إذا سئل عن سر نجاحه فى مراكش أجاب : « لقد بقيت بها ثلاثة عشر عاما » . ولكن كيف يمكن التوفيق بين البقاء وتوطيد النظام من جهة وبين حق الانتقاد من جهة أخرى؟ ألا يصح أن يصبح الرئيس الذى لا يحد من سلطته شىء ظالما مجنونا ؟

وكان قلدس هكسلى قد اخترع فيما مضى ما سماه « لعبة القياصرة » . وهى أن يتساءل فى شأن كل واحد من أصحابه فيقول : « ترى بأى القياصرة يكون هذا أشبه إذا ما منح السلطة المطلقة غدا ؟ » ، وقد وجد أنه قل من كانت أخلاقه تثبت لهذا الاختبار ، لاريب فى أن النقد لازم ولكن فى أى الحدود ؟ أما فى الجيش بصفة خاصة وفى كل عمل مباشر بصفة عامة فالطاعة واجبة من غير تحفظ ، ولا يمكن أن يأتى النقد إلا من السلطات العليا ، وعلى العكس من ذلك فى الحياة العادية لبلد حر ، يكون النقد من حق الجميع ، ولكن ألا يصح أن يخضع النقد لبعض قواعد تعلمناها بالتجربة ؟ من الخير أن يكون فى الإمكان تغيير الرئيس من حين إلى حين إذا أعربت الأمة عن رغبتها فى استبداله بطريقة واضحة ، ولكن ما أقبح أن يشهر بالرئيس أو يتوالى العزل والابدال كما أنه من غير المستساغ أن يدعى رجل الشارع حق فرض القوانين .

إن الحرية الصحيحة نعمة كبرى ، والأنظمة الحرة لا تكفى لإقامة هذه الحرية على أسس سليمة ، بل يجب أن تستند هذه الأنظمة إلى تربية خلقية متينة ولن نكون جديرين باسم الأمة الحرة إلا بقدر ما روض كل فرد منا نفسه على طاعة الرئيس الشرعى ، وبقدر ما يتعلم كيف يحتمل وجود المعارضة وبقدر ما يصغى إلى حجج خصمه ، وأخيرا بقدر ما يضع مصلحة بلاده فوق شهواته الحزبية

وفوق مصالحه الخاصة ، فما أكثر ما قيل : « ليست الحرية حقا أبديا لا يمكن فسخه إنما هى غنيمة مرجوة وينبغى أن يعاود الإنسان غزوها واغتنامها كل يوم .

وهذه التربية الخلقية ألزم لمن تقع على عواتقهم مهمة القيادة ، وينبغى أن يشعر الرئيس شعوراً عميقا بواجباته بغض النظر عن كل رقابة أو نقد ، ولا يستطيع الرئيس الاحتفاظ بالحكم إلا إذا عرف كيف يظهر فى كل يوم أنه جدير بسلطته . وكل من ترأس فريقا أو مشروعاً ولم يسع إلا لخدمة مصالحه الشخصية لا يكون رئيساً وكل من قبل تولى قيادة وكان تفكيره فى ملذاته دون مسئولياته لا يكون رئيساً ، وكل من تولى توجيه فريق من الناس ثم أسلم نفسه للغضب والحقد أو للمحاباة والمحسوبية لا يكون رئيسا . فمهمة القادة هى التوجيه أى الإرشاد إلى سبيل الشرف والجد فى العمل وليست الرياسة امتيازا وإنما هى تشريف وتكليف .

فن الشيخوخة

قليلون هم الذين يعرفون كيف يشيخون .

« لاروشفوكو »

تأتى المسرة الكاملة مع المساء .

إلى ذلك الذى عرف كيف يقضى يومه فيما ينفع .

« كورنى »

حقاً أن الشيخوخة شيء غريب ، غريب إلى درجة أنه يعسر علينا في غالب الأحيان أن نصدق أن الشيخوخة قد تدركنا كما أدركت غيرنا . فقد أبدع بروست في قصة « العثور على الوقت الضائع » حين وصف ما يتولانا من الفزع عندما تجمعنا الصدفة بغتة بعد ثلاثين أو أربعين عاماً بطائفة من الرجال والنساء الذين عرفناهم يوم كانوا مثلنا في سن المراهقة ، يقول بروست : « في اللحظة الأولى لم أكن أدرك لمَ أنا متردد في تعرف رب الدار والمدعوين ، ولم يبدو كل منهم وكأنه قد اتخذ شعراً مستعاراً غشاه بالمسحوق الأبيض فغيرتهم هذه الشعور تغييراً تاماً . . . كان الأمير يبدو وكأنه أخضع نفسه إلى العرف الذي فرضه على مدعويه لقد تنكر بلحية بيضاء وجعل يجرر ساقيه كأنما أثقلهما نعلان من الرصاص ، وكان شارباه أبيضين فكأنما غطيا بشيء من ثلج الغابة كما في قصة « عقلة الأصبع » فكانا يبدوان وكأنهما قد ثقلا على فمه المتصلب ، وخيل إلى أنه سيخلعهما إذا ما انتهى التمثيل » .

ثم عثر بروست بواحد من أصدقاء الشباب فقال : « لقد عرفته في مطلع الحياة ، كان لي نداً مراهقاً ، وكنت أقيس شبابه بما كنت أنتحله لنفسي من سن الشباب غير مصدق أني كنت أقطع مراحل العمر منذ تلك اللحظة . ثم سمعتهم يقولون إن ملامحه تطابق سنه . وأدهشني أن لا حظت على وجهه بعض سمات هي من مميزات الشيوخ ، وأدركت أن السبب هو أنه قد أسن بالفعل

وعرفت أن الحياة تصنع شيوخا من أولئك الشبان الذين يعيشون من العمر عدداً وافيا من السنين .

حقاً أننا إذا قسنا آثار الزمن فى رجال أو نساء من سننا رأينا أنفسنا وكأننا ننظر فى مرآة ، وبدا لنا ما هو حادث فى وجوهنا وفى قلوبنا . وذلك لأننا نظل شبانا نحتفظ بمياه الشباب وآمال الشباب فى نظر أنفسنا لأننا ننظر بعيوننا التى صاحبتنا فى تنقلنا على مر الزمن ، ولا نتصور المرتبة التى يعينها لنا الشباب فى سلم الأجيال ، فقد يخاطبنا أديب شاب بقوله : « أستاذى العزيز » ونعتقد نحن أننا من معاصريه أو من زملائه تقريبا .

وتجربة أخرى أشد إيلاما . نسمعهم يتحدثون عن فتاة فيقولون : إنها مجنونة فقد تزوجت بشيخ فى الخامسة والخمسين أبيض الشعر . ونذكر أننا فى سن الخامسة والخمسين ولنا شعور بيضاء وقلب لا يريد أن يشيخ .

١ — خط الظل

متى تبدأ الشيخوخة ؟

نظل أمداً طويلا نعتقد أننا نفلت منها لأن العقل يظل نشيطا ولأن قوانا تبدو سليمة وقد يبدو لنا أن نختبر الأمر فنتساءل : « هل أستطيع أن أرقى هذا المنحدر بنفس السرعة التى كنت أرقاه بها طيلة أيام شبابى ؟ نعم إننى ألهث قليلا عند وصولى إلى

القمة ، ولكنى استغرقت فى قطع هذا الشوط ما كنت أستغرقه من الوقت فيما مضى ، ومع ذلك ، ألم أكن ألهث وأنا شاب ؟ .

تحدث بين المراهقة والشيخوخة تحولات بطيئة لا يدركها الشخص الذى يتحول ، وهذا ما يحدث حينما يعقب الخريف الصيف وعندما يعقب الشتاء الخريف ، يتم ذلك التعاقب بتحولات تدريجية لا تدركها الملاحظة اليومية ؛ ففى ذات صباح من شهر نوفمبر يهب إعصار فينتزع القناع الذهبى ، وإذا بهيكل الشتاء الهزيل يبدو من تحته ، فأوراق الشجر التى كنا نحسب أنها مازالت فى غضاضتها كانت قد جفت ولم يكن يمسكها على أغصانها سوى بعض ألياف رفيعة ، فكشفت العاصفة عن الداء ولكنها لم تحدثه .

والأمراض هى عواصف الغابات الآدمية ، يبدو لنا أن فلانا أو فلانة ما زال فى دور الشباب بالرغم من سنه ، فنقول : « إنها مدهشة حقا أو إنه إحدى المعجزات » ونحن نعجب بنشاطهما وحدة ذكائهما وعنفوان أحاديثهما : وفى صبيحة يوم ارتكبا فى أمسه لونا من الإفراط لا يكلف الشاب أكثر من صداع خفيف أو زكام بسيط ، إذا بهما قد اختطفا من بيننا بعاصفة من الاحتقان أو الالتهاب الرئوى ، وفى أيام قلائل تذبل القسمات ويتقوس الظهر وتخمد النظارة . لحظة واحدة تصنع منا شيوخا ، ذلك أننا كنا فى طريق الهرم منذ مدة طويلة دون أن نشعر أو نعرف .

ما تاريخ هذا الاعتدال الخريفى بالنسبة للآدميين ؟ كان كونراد يقول : « عند بلوغ الأربعين يرى الإنسان أمامه خطاً من الظل فيجتازه فى رعدة ، ويفكر فى أنه قد خلف وراءه مناطق الشباب الفاتنة » وهى ملاحظة صادقة ، إلا أن خط الظل انتقل اليوم إلى قرب الخمسين وذلك لا يقلل شيئاً من وجوده ، والذين يجتازونه ما زالوا يعرفون تلك الرعدة الخفيفة وتلك الأزمة القصيرة من اليأس مهما اتفق لهم من خفة الحركة وصلابة العود .

كتب ستندال على منطقة سرواله : « أوشكت أن أبلغ الخمسين » وكان عجيباً منه أن يختار هذه اللحظة بالذات ليسجل ذلك الإحساس . وفى نفس اليوم أخذ يحرر قائمة بأسماء من وقع فى غرامهن من النساء ، وبالرغم مما أسبغه عليهن فى قصصه من درر « التبلور » فإن واحدة منهن لم تكن لهـا فى الواقع قيمة كبيرة . وكان فى سن العشرين قد تخيل لحياته الغرامية ألواناً من المصادقات الرفيعة ، وكان فى الواقع جديراً بهذه المواقف السامية حسب ما أبداه فى دراسة الحب من الذكاء وما أعطاه للمشاعر من الأهمية ، ولـكن البطلات اللاتى تمنى أن يقع فى غرامهن لم يقابلهن إلا فى الـكتب حيث قام هو بخلقهن . فعندما اجتاز خط الظل كان يبكى أولئك المشيقات اللاتى لم يوفق فى الحصول عليهن ولن يعثر عليهن بعد ذلك أبداً .

قال الـكاتب فى نفسه : « لقد دنوت من الخمسين » فبدا له أن

يتساءل ماذا صنع . . . وأفصح ؟ فاتضح له أن كل شيء باق لم يقله ، وأنه لم يكد يستشف الكتب التي يجب أن يكتبها ؛ ولكن ، كم سنة بقيت له للعمل ؟ لقد بدأ خفقان قلبه يسوء ، وأخذت عيناه تتعصيان على القراءة ليلا ، وكم بقي له من العمر ؟ أهي عشر سنوات أم خمس عشرة سنة ؟ .

« ما أطول الفن وما أقصر الحياة ؟ » هذه المقالة طالما أقر بها من قبل ولكنها كانت تبدو له مبتذلة فأصبحت في نظره الآن مليئة بالمعاني : أيتاح له من الفراغ ما أتيح لبروست لينطلق « باحثاً عن الوقت الضائع » ؟ .

ليست الشيخوخة في الشعور البيضاء وتجاعيد الوجه فحسب . وإنما هي فوق ذلك الإحساس بأن الوقت قد فات وأن اللعبة قد لعبت وأن المسرح قد أصبح ملكاً لجيل آخر . وليست آفة الشيخوخة في ضعف الجسم ، وإنما في قلة اكتراث النفس وعدم مبالاتها ، وليست القدرة هي التي تختنق عند اجتياز خط الظل بل الرغبة في العمل هي التي تختنق . تلك الحمية العجيبة التي تلازم الشباب وتلك الحاجة الملحة إلى معرفة كل شيء وفهم كل شيء وذلك الأمل العريض الذي يبعثه في نفس الشباب كشف كل بيئة جديدة ، وتلك القدرة على الحب بغير تحفظ وذلك الاعتقاد الراسخ بأن الذكاء والطيبة يصاحبان الجمال بالبداهة ، وذلك الإيمان بتنزيه العقل عن الخطأ . تلك هي صفات الشباب المميزة ، فهل

من الممكن الاحتفاظ بها بعد قضاء خمسين عاماً من العمر فى التجارب وخيبة الآمال ؟ متى تجاوزنا خط الظل دخلت عقولنا فى منطقة من الضوء السوى المخيف لا تعود العين فيه تتعرض إلى بهر الرغبات ، فترى الناس والأشياء على الحقيقة ، وكيف نعود فنؤمن بالكمال الأخلاق للنساء الجميلات بعد أن وقعنا فى غرام واحدة منهن ! بل كيف نؤمن بالتقدم وقد ثبت لدينا بعد حياة طويلة عسيرة أن كل تغيير مصحوب بالعنف لا ينقلب على الطبيعة البشرية ، وأن العادات العتيقة وحدها والشعائر القديمة هى التى تهيئ للإنسانية ذلك المأوى السريع العطب من المدنية .

وإن الشيخ ليتساءل دائماً : وما الفائدة ؟ وربما كان هذا أخطر سؤال على كيانه ، إذ أنه بعد أن يقول « مافائدة النضال؟ » يأتى يوم يقول فيه : « وما فائدة خروجى من بيتى ؟ » ثم « وما فائدة مغادرتى لحجرتى ؟ » ثم « وما فائدة نزولى من سريرى ؟ » وأخيراً « ولأى شىء أعيش ؟ » . وهذا هو السؤال الذى يفتح أمامه أبواب الفناء .

من هنا نستشف أن فن الشيخوخة هو فن الاحتفاظ ببعض الرجاء ، غير أننا قبل أن نبين إمكان ذلك يجب أن نأتى على وصف الشيخوخة فى الطبيعة .

٢ ـ الشرط الطبيعى للشيخوخة

يدخل كل كائن حى دور الشيخوخة فى مستهل سن تختلف باختلاف نوعه فلا يشذ عن ذلك إلا الكائنات البسيطة التى تتفادى الفناء بالانقسام إلى فردين جديدين . وكيف نستطيع أن نفسر كيف لا توهب لبعض أنواع الفَراش سوى ساعتين من العمر يقضيها فى صيد غرامى ، بينما قد تعمر السلحفاة والببغاء قرنين كاملين ؟ ولم تمنح بعض أنواع السمك حياة مقدارها ثلثمائة عام بينما توهب ثلاثون عاما لكل من بيرون وموزار ؟ من ذا الذى يستطيع أن يسبر أغوار حكمة البارى جل شأنه ؟

كان متوسط عمر الإنسان منذ قرن حوالى أربعين سنة ، أما اليوم فان هذا المتوسط يقرب من الستين فى أرقى البلاد مدنية وهذا تطور سريع يجعلنا نفكر فى أنه إذا لم تنشب حروب أو ثورات توقف تقدم علم الصحة فسيكون الوصول إلى سن المائة بعد قرن من الزمان أمرا طبيعيا ، وإن كان الواقع أن هذا التقدم لن يغير شيئا على الإطلاق .

وكلما اقتربت الكائنات الحية من حالة الفطرة قست فى معاملة الشيوخ . فالذئب المسن تبقى له مكانته بين الذئاب ما بقيت له القدرة على إدراك الفريسة وقتلها . أما إذا خانته قواه فقد ضاعت هيبته . وصف كبلنج فى كتاب « الأدغال » كيف اهتاج

الغضب صغار الذئاب لأن ذئبا تقدمت به السن وفقد قواه بعد أن كان يقودها إلى القتال ، ثم قال بعد ذلك : « والويل لهذا الذئب الهرم يوم يخطئ فريسته ، فان واحدا من الشباب يتقدم نحو هذا الأثرم المنزوى ويجهز عليه » .

وتسلك الشعوب البدائية نفس المسلك حيال الشيوخ . وقد وصف أحد رواد القارة الأفريقية حالة شيخ قبيلة هرم ملكه الرعب فأقبل يرجوه فى توسل ويقول : « هبنى شيئاً من الصباغ لشعرى ، فانهم سيقتلوننى إذا رأوا شيبى » وقد جرت عادة بعض أمم البحار الجنوبية أن يرفع أفراد الأسرة شيوخها إلى قمم شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يهزون الشجرة فإذا بقى الشيخ متشبثا بالشجرة رغم هزها بعنف كان من حقه أن يعيش ، وإذا سقط كان سقوطه حكما عليه بالإعدام وتنفيذاً للحكم فى الحال .

تبدو لنا هذه الطريقة وحشية ، ولكننا نحن أيضا لنا أشجار نارجيلنا التى نحكم بها على شيوخنا ؛ فالخطابة والتدريس والتمثيل هى اختبارات لمن يقومون بها ، فقد يقول الجمهور بعد سماع خطبة أومحاضرة أومشهد تمثيلى عن الرجل السياسى أوالأستاذ أوالممثل « لقد انتهى » وفى كثير من الأحيان يكون هذا القول بمثابة حكم عليه بالموت ، إما لأن الانسحاب من الميدان يتبعه البؤس ، وإما لأن اليأس يتبعه المرض . والحرب هى شجرالنارجيل للقواد ، والنساء الشابات هن شجرة النارجيل ومزلقة الفجرة من الرجال

المسنين . ورئيس الدولة الذى يحمل وزراءه على المروق من خلال أطواق مشتعلة ليتأكد من لدونة مفاصلهم ، يطبق هو أيضاً سياسة شجرة النارجيل .

وأما عند الأمم الأقل بداوة فلا يقتل الشيوخ ، ولكنهم يعاملون بالقسوة أحياناً : ويقص علينا مونتينى فى هذا الباب قصصا مروعة كقصة الابن الذى رآه أبوه وهو يصنع قصعة من الخشب المجوف ولما سأله فى ذلك أجاب : « هى لأجلك يا أبى عندما تصير فى سن جدى » وقصة الابن الذى كان يجر أباه الشيخ من شعره حتى الباب فسمعه بغتة يصيح : « قف فإنى لم أكن أسحب أبى إلا إلى هنا » .

ولما كان الفلاحون أقرب إلى الطبيعة فإن القوة تكون عندهم فى كثير من الحالات هى الأساس الذى تنظم بمقتضاه العلاقات بين جيل وجيل ، أما عند أهل المدن فيختلف الأمر باختلاف أعمار الجماعات وقربها أو بعدها من حالة البداوة . وفى أزمنة الثورات والانقلابات السريعة تتحقق الغلبة للشبان لقدرتهم على التكيف وسرعة استجابة أعصابهم ، ففى عهد الثورة الفرنسية تنبه الشباب إلى قيمة حرب الطبقات بينما كان الجيل القديم مازال مصرا على أن الحرب لا تقوم إلا على اكتاف الجنود المحترفين ، ويقود الشبان اليوم الطائرات كما كانوا يقودون السيارات بالأمس . وأما فى الأزمنة الحالية المليئة بالأزمات الخطيرة فإن الشبان

لا يجدون أمامهم ما كان يجده أندادهم بالأمس فى المدنيات المستقرة من المراكز المكتسبة وسطوة السن وصولة المال وما إلى ذلك مما يثبت قيم الحياة فى نظرهم ، فهم يرون أنهم وحدهم يمثلون القوة فيؤيدون دعاة يلوحون لهم بأهداف مغرية ويفتحون أمامهم أبوابا فسيحة صادقة من الآمال . أما الجماعات العتيقة الغنية فهى على عكس ذلك . أميل إلى حكومات الشيوخ حيث يتولى المسنون الفصل فى المسائل فى مجالس الدولة وفى هيئة أركان الحرب لأن الدول التى تبقى طويلا من غير أن يطرأ عليها تغيير تعتز بالتجربة وتعتبرها ذخراً نفيسا . ففى بلد كانجلترا يحرصون على القياس على السوابق ويحكمون بما جرت به التقاليد ويعد تقدم السن فى نظرهم فضيلة .

وفى دولة الصين القديمة كان الشيوخ موضع محبة تضارع عبادة البطولة ، فكان الصينيون يقولون : « ينبغى ألا يرى الرجل ذو الشعر الأشيب وهو يحمل حملا فى الطريق » وكانت رغبة الصينى فى البر بأهله هى أعز أمانيه ، وإذا لم يتح للرجل أن يحضر وفاة والديه أو الأقربين من أهله عد ذلك مصيبة كبرى . وكان حق الكلام فى المجالس مقصوراً على الشيوخ ، وكان الشيوخ يعيشون فى كنف أولادهم وهم موضع التجلة والاحترام ، فكان من الطبيعى أن يتدخلوا فى شئون الأزواج من الشبان . ونحن نقرأ فى كتاب ذائع يدرس فى كافة المدارس الصينية : « يجب أن

يكون كل واحد بجانب أبويه فى أشهر الصيف يحمل مروحة ليدفع عنهما الحر والذباب والبعوض ، وفى الشتاء يجب أن يتعهد الابن أغطية الفراش حتى تكون دافئة بدرجة كافية ، وينبغى أن يقوم على رعاية المدفأة ويعدها بالوقود وأن يراقب شقوق الجدران وفُرَج الأبواب حتى يكون الوالدان بمنأى عن تيارات الهواء مستريحين هانئين طيلة اليوم » .

وقد أخذ هذا الشعور وهذه الرعاية فى الزوال فى الصين الحديثة وفى كل نظام حديث العهد يقدر الناس القوة بأكثر مما يقدرون حكمة الجدود . غير أنه لما كان كل نظام مصيره إلى الهرم فإن النظام متى شاخ برز احترام الرجال الناضجين وتبعه اجلال الشيوخ . ولا يلبث الرئيس الذى استمد رسالته من روح الشباب أن يولى عنه الشباب ويصبح هو شيخا ويصير مثله كمثل ذلك الذئب المسن يظل طويلا يحاول أن يدارى مايحسه من الانصراف عنه فيحرص على الاحتفاظ بمظهر جسمانى حسن ، فيصطنع بعض مظاهر جسارة الشباب وإفراطهم ويتظاهر بعنف لم يعد يعتقد فيه . ولكن الزمن يجعل منه بعد وقت طال أو قصر عضواً فى مجلس الشيوخ ثم جثة هامدة .

وهكذا تتعاقب حكومات الشبان وحكومات الشيوخ فى نسق طبيعى . فماذا عسانا أن نريد ؟ إن كل رجاء باطل ، والظروف وحدها تفرض الحل لأن انقلابات سريعة تطرأ فتأتى بابتكارات

عجيبة ، وتكون الغلبة للشباب من جديد . ثم يأتى الاستقرار تصحبه تقاليد ثابتة : فتعود المكانة للشيوخ . وربما كان أفضل سياسة تتخذها الأجيال المتعاقبة هى السياسة التى كان يجرى عليها المحاربون فى أساطير هوميروس وهى :

ليكن بعض الشبان الأبطال لقيادة الجيوش وليكن بجانبهم نستور الحكيم وزيراً للدولة .

٣ — أمراض الشيخوخة

تلك هى الناحية الاجتماعية للمسألة ، أما ناحيتها الفردية فمسألة أكثر تعقيداً ، فإن الشيخوخة تقبل على الإنسان محفوفة بالمتاعب ؛ فهل هذه المتاعب لا تقهر ؟ لا أظن ذلك . ومن رأيى أننا إذا أردنا أن نتغلب عليها وجب ان نواجهها فى شجاعة . وعلى هذا فسنورد قائمة حالكة السواد لجميع المتاعب التى تصاحب الشيخوخة ، وأطلب إليكم ألا تستسلموا للخوف أثناء عرض هذه القائمة ، وليكن مثلنا مثلَ الطبيب الذى إذا وجد مريضه مصاباً بمرض خطير يوجب الحيطة قال له : « إليك ما سيحدث لك إذا لم تعالج حالتك » ثم يسرد على سمعه أشياء قد تحدث له بعضها أفظع من بعض ثم يقول له : « هذا كله لن يقع إذا اتخذت كذا وكذا من ضروب الحيطة الوقائية » .

وإليكم ما عسى أن تأتى به الشيخوخة من الأمراض والتى

لن تكون من نصيبكم إذا عرفتم كيف تتقونها : « إذا استثنينا بضع كائنات استطعنا أن نقول إن الجسم الآخذ فى الشيخوخة يشبه محركا متعبا ، ولو أننا عنينا به وتفقدناه وأصلحناه فى الوقت المناسب لاستطاع أن يعاود عمله ويؤدى لنا بعض الخدمات . ولكنه لن يعود كما كان ، فلا ينبغى أن نطالبه بمجهودات عنيفة . إذ أنه ابتداء من سن معينة يصبح العمل أشق والشغل اليدوى أحيانا مستحيلا والشغل العقلى مختلف النوع والقيمة . ومن الفنانين من يبقى إلى النهاية مسيطراً على مواهبه ، فقد كتب فولتير « كانديد » وهو فى الخامسة والستين ، ونظم فكتور هوجو فى شيخوخته شعراً فى غاية الإبداع ، وأكمل جيته الجزء الثانى من فاوست ، وأتم ڤاجنر « بارسيفال » فى التاسعة والستين ، وفى أيامنا هذه نقح بول كلوديل فى الحادية والسبعين كتابه « إعلان البشرى لمريم » الذى وضعه فى سن الخامسة والعشرين . وفى حالات أخرى ينضب معين الإلهام قبل الأوان وهى فى الأغلب حالات أولئك الذين نبعت عبقرياتهم من عواطف شباب تقضى فى أحضان الألم . وكانوا منصرفين عن العالم الخارجى انصرافاً تاماً . فمنذ هذا الفريق من الناس يؤدى صمت القلب إلى صمت العمل . قال لاروشفوكو : « الهرم سلطان جائر يحرّم كل لذائذ الشباب ويعاقب المخالفين بالموت . وأعنف هذه اللذائذ وأنكرها تحريماً هى لذائذ الحب : فالرجل المسن والمرأة المسنة لا يستطيعان بحال أن يوقعا كائناً شاباً فى غرامهما .

فهما بلغ الشيخ من شباب القلب ونضارة الوجه وقوة البدن ، فمن العسير — ولا أقول من المحال — أن يكون الائتلاف بين القرينين تامًا كما يكون بين كائنين متقاربين فى السن . نعم قد نعثر على بعض الأمثلة المجيدة كمثل جيته وبتينا ، ولكن جيته لم يكن عشيقاً لبتينا . ثم إننا ينبغى أن نتساءل : كم يكون نصيب الإجلال والإعجاب وإنكار الذات فى هذه الألوان من الحب ؟ ولعلكم تذكرون أبيات بودلير العجيبة القاسية :

أيهذا الملاك الفائق الحسن ! هل تعرف الغضون ؟

وأوار المشيب والعذاب البشع !

فى مطالعة وعدة الحب الخفية

فى عيون طالما شربت منها عيوننا العطشى

أيهذا الملاك الفائق الحسن هل تعرف الغضون ؟

وكثيراً ماوصف بلزاك مآسى الشيوخ المتيمين إذ لا يستطيع الشيخ أن يدرك ولو جانباً من حرارة الترحيب إلا بالهدايا والألطاف المتوالية المتجددة . وقد كان يدرك ذلك فيما مضى بشخصه مجردا ، ولهذا يجر الشيخ على نفسه الخراب فى سبيل كل كاعب ماهرة تعرف كيف تمنحه بعض الآمال الجامحة . وهو حين يستجدى شيئاً من العطف يسير كالبارون هيلو بخطى واسعة فى طريق الخزى والانحطاط . ترك شاتوبريان بعد أن غص بمثل هذه الآلام مخطوطاً رهيباً بعنوان « الحب والشيخوخة » . هذا الكتاب هو شكوى

مرة وصرخة ألم أرسلها عاشق هرم لا يعرف كيف يهرم : « إن عقاب أولئك الذين أسرفوا فى حب النساء هو ألا يبرأوا من حبهن مدى الحياة . فى حين أن عقاب أولئك اللاتى أفرطن فى حب الرجال أن يسمعن الشبان فى طريقهن يهمسون فى دهشة صادقة » : يلوح أنها كانت جميلة يوما ما » .

ويهرم القلب عند البعض لأن جفافاً غريباً يأتى مع الشيخوخة . ولعل سبب ذلك هو أن رغبة الجسد متى خمدت حرمت الشهوات سندها ودافعها الطبيعى القوى . ولعل الشعور بقصر البقية من العمر يأتى فيخمد الرغبة والحب .

قضى أفيل حياته مع أونيس : صار عشيقها وهو فى السابعة والعشرين من عمره فأغراها بترك زوجها ، ولم يتزوج منها إذ كان متزوجاً ، فضحت من أجله بأسرتها وأولادها وسمعتها وأصدقائها ، وحاطته بكل عناية فى مهنته وفى عمله وفى لهوه ، وأعقبت رباطهما الغرامى محبة طويلة الأمد ، ولما بلغ الثمانين وكانت هى فى السبعين لم يكن ينقضى يوم لا يتقابلان فيه ، وأخيراً ماتت فكان كل معارفهما يرثون لأفيل ويقولون : « إنه سيموت من أجلها » ولكنه لم يمت ، بل بدا للناس وكأن الشباب يعود إليه بغتة ، ذلك أنه كان قد هرم إلى درجة لم يعد يستطيع معها الحب بل لم يعد يستطيع معها الألم أيضاً .

هذه الأثرة التى تلازم الشيخوخة تحرم الشيوخ من كثير

من الأصدقاء . فأما من كانوا أصغر سناً فلا يجدون عند الشيخ الأناني تلك الحرارة المصحوبة بالتجربة التي يصح أن تجذبهم . والبخل آفة من آفات الشيوخ ، ومن بعض أسبابه خشية الحاجة ، فالشيخ يعلم أن الكسب قد أصبح عسيراً والعمل المنيف شاقاً وهو يتشبث بما يملك ويحسب حساب النوازل بكافة أنواعها فيتخذ المخابئ العديدة والاحتياطات الأكيدة . ولا يتولد البخل من الخوف وحده ، بل قد يكون مرده أن إنساناً يفتقر إلى شيء يتحمس له ، ونزعة البخل تظهر في كل سن وتحدث لصاحبها لذائذ حادة ، فمكوف البخيل على ماله يقلبه ويحصيه ويتتبع أسعار القراطيس المالية وأثمان الأحجار الكريمة يجعله يحتفظ ببعض السلطة بالرغم مما يتمشى في جسمه من الضعف .

ومن ملاهي البخلاء أن يعمدوا إلى أسباب النفقة فيستبعدونها الواحد بعد الآخر ويدرك هؤلاء المتشبثون ، من ذلك فتنة عجيبة تذهل عقولهم وتستطيع أن تجد هذا مفصلا في قصة أوجيني جرانديه لبلزاك .

كتب لابروبير يقول : « ليس ما يخشاه البخلاء من الحاجة إلى المال يوماً هي التي تدفعهم إلى البخل ، لأن منهم من تكدست لديهم الأموال حتى لم يبق محل لهذا القلق ، وكيف يخشون الافتقار إلى رفاهات الحياة وهم يحرمون أنفسهم منها بمحض إرادتهم ، إرضاء لشحهم ؟ إن هذه الرذيلة هي بالأحرى نتيجة السن ، ومردها إلى طبيعة الشيوخ الذين يستسلمون لنزعات

الشيخوخة بطبعهم كما كانوا يستسلمون لشهوات الشباب فى شبابهم ، وكما كانوا يستسلمون لأطماعهم فى كهولتهم ، لأن البخل شهوة لا تتطلب قوة أو شباباً أو صحة ، بل يحقق الإنسان مطلبه منها بأن يضع ماله فى الخزائن . ويحرم نفسه من كل شيء . وهذا أمر يوافق أمزجة الشيوخ الذين لا بد لهم من شهوة لأنهم بشر كغيرهم ، ثم إن عيوب العقل تزداد كما تزداد عيوب الوجه مع الشيخوخة ، لأن الشيخ يصبح عاجزاً عن هضم الأفكار الحديثة ، إذ تنقصه القدرة على مضغها فيتمسك بأوهام سن النضج فى عناد وشراسة . وهو إذ يستند إلى عكازة تجاربه يحسب نفسه قادراً على الهيمنة على كثير من الأمور . ومن ثم تثير كل مخالفة يلقاها غضبه لأنه يرى فيها انتقاصا لما يجب له من الاحترام ، ويبدو منه تشبث الأطفال وغضباتهم ويقول : « لم يكن يسمح للشبان بمخالفة من هم أكبر سنا فى أيام شبابى » . وينسى أن هذه العبارة بعينها كانت توجه له من جده فى أيام شبابه . وهو لعجزه عن الاهتمام بما يجرى حوله وعن أن يتجدد مجاراة للظروف تراه لاينفك يقص عليك نفس القصص التى فتنته فى شبابه ، ويتكرر ذلك مراراً عديدة وينتهى الأمر بأن يسأمها الأعقاب فترى الشبان وهم يصغون إليه يتثاءبون ، ثم يتبادلون الابتسامات ثم لا يلبثون أن ينفضوا من حوله . ومن هنا تكون الوحدة وهى آفة الشيخوخة الكبرى : يفقد المرء رفقاء حياته واحداً بعد الآخر ويعجز عن

الاستعاضة عنهم بغيرهم ، فتمتد البيداء رويداً رويداً حول الشيخ حتى يتمنى الموت إذا لم يكن يخشاه كلما تراءى له قريباً متوعداً .

أتى تولستوى وهو مصور حاذق فى هذا الموضوع كما فى غيره فى آخر كتابه « الحرب والسلم » بصورة أخاذة لعجوز ساءت شيخوختها فقال : « كانت منذ مات ابنها وزوجها من بعده تشعر بأنها كائن لا هدف له ولا معنى ، ترك منسياً فى هذا العالم بمحض المصادفة . فكانت تأكل وتشرب وتنام وتسهر ولكنها لا تعيش . لم يكن للحياة فى نفسها أى معنى ولم تكن تبغى منها شيئاً غير السكينة ، ولم تكن لتستطيع أن تجد هذه السكينة إلا فى الموت ، وكان عليها أن تعيش فى انتظار أجلها ، أى أن تنفق قواها الحيوية . كان يلاحظ عليها فى أعلى درجة ما يلاحظ على الأطفال الرضع أو من بلغوا غاية الهرم ، وهو أن الإنسان لا يستبين لحياتها أى غرض خارجى . وكل ما يلاحظ هو قدرتها على استعمال مختلف وظائفها وقابلياتها . إنها فى حاجة إلى أن تطعم وأن تنام وأن تفكر وأن تبكى وأن تتحدث وأن تشتغل وأن تغضب الخ . . . لا لسبب سوى أن لها معدة ولها مخ ولها عضلات ولها أعصاب ولها كبد .

كانت تفعل كل ذلك بغير أن تكون مدفوعة إليه بدافع خارجى كانت تفعله على نحو يخالف نحو الناس فيه وهم فى عنفوان الحياة عندما يصرفهم الغرض الذى يهدفون إليه عن ملاحظة أى

غرض آخر يصرفون فيه قواهم ، كانت تتكلم لأنها بفطرتها فى حاجة إلى تحريك رئتيها ولسانها ، وكانت تبكى كالطفل لأنها كانت تريد أن تمخط . فى الصباح — وخاصة إذا كانت قد تناولت فى مساء الأمس شيئاً من الأطعمة الدسمة — كانت فى حاجة إلى الغضب ولهذا كانت تتذرع لذلك بصمم مدام بيلوقا . وكانت تلجأ إلى حجة أخرى وهى التعلل بأن سموطها جاف تارة رطب لم يحسنوا فركه تارة أخرى . وعلى أثر هذه المشاحنات كانت الصفراء تنتشر فى وجهها وكانت الخادمات يعرفن بدلائل مؤكدة متى يعود الصمم إلى مدام بيلوقا ومتى يكون السموط رطباً ومتى يصفر وجه سيدتهن . وكما أنها كانت تحتاج إلى تحريك مرارتها لتفرز الصفراء ، فقد كانت تلجأ أحياناً إلى استعمال ملكة التفكير التى بقيت لها فكانت تجد بغيتها فى لعبة «الصبر» بالورق ، فإذا احتاجت إلى البكاء ذكرت المرحوم الكونت وإذا شعرت بحاجة إلى القلق فذريعتها نقولا وصحته ، وإذا لزمها أن تعذب إنساناً فلتكن ضحيتها الكونته مارى ، وإذا أرادت أن تجلو صوتها — ويكون ذلك عادة حوالى الساعة السابعة مساء عقب الهضم — كانت ذريعتها دائماً نفس القصة تحكيها لنفس المستمعين .

وكان جميع من يعيشون معها يفهمون حالتها رغم أن أحدا منهم لم يكن يذكرها ، وكان الكل يبذلون أقصى جهودهم فى إرضاء رغباتها . ولم يكن إفصاح بعضهم لبعض عن إلمامهم بحالتها

يظهر إلا فى نظرات نادرة بعضها باسم وبعضها حزين متبادلة بين نيقولا وبطرس وناتاشا والكونتة مارى .

ولكن هذه النظرات كان معناها شىء آخر أيضا : كانوا يريدون أن يقولوا إنها انتهت من أداء واجبها فى هذه الدنيا وإنهم صائرون إلى حيث صارت وإن طاعة هذا المخلوق وضبط النفس معه لون من السرور ، إذ كان عزيزا فيما مضى وكان ممتلئا حياة وقد انتهى أمره إلى هذا الشقاء . كانوا يريدون أن يقولوا : « اذكروا الموت » ولم يكن من بين أهل البيت من لا يفهمها و يبتعد عنها إلا الخبثاء والحمق والأطفال » .

والآن فنلخص أخطار الشيخوخة : إنها تضعفنا ، وتحرم علينا لذائذ الحياة واحدة بعد الأخرى . وتجفف القلب كما تجفف البدن ، وتباعد بيننا وبين المغامرات وتفقدنا الأصدقاء ، ثم تقبل فكرة الموت فتغشى الشيخوخة بظل قاتم . يالها من صورة سوداء .

٤ — أيستطيع المرء ألا يشيخ ؟

فن الشيخوخة هو فن مكافحة هذه الآفات ومحاولة تحويل أخريات أيامنا على رغمها إلى عهد هنىء .

هل يستطيع الإنسان مكافحة أمراضه . . . إذا كانت هذه الأمراض تصيب الجسم ؟ أليست الشيخوخة عبارة عن تغيرات

فسيولوجية طبيعية يجب أن نسلم بحدوثها ؟ لقد شبهناها بطور شيخوخة أوراق الشجر التي هي الخريف . أليس من المناسب أن نذكر هنا أسطور الشجرة التي أرادت أن تحتفظ بأوراقها ؟ إنها تحاول أن تضم أوراقها إليها وأن تلصقها بجسمها أو أن تخيطها عليه ولكن على غير جدوى ، فإن عواصف الشتاء ستصنع منها في الساعة المحتومة ما تصنعه بجاراتها : هيكلا أسود . بيد أن الناس قد تعلموا من حضارتهم وتجاربهم وسائل مكافحة مظاهر الشيخوخة على الأقل لا الشيخوخة نفسها ، وهنا يكون لوظيفة التجمل النصيب الأوفر ، فترى العجائز يعلقن على أثوابهن وحليهن أهمية تفوق ما تعلقه عليها الشابات وهو أمر طبيعي . فالجواهر البراقة من شأنها أن تجتذب الأنظار وتحيد بها عن مواضع النقص ، والكريات الصدفية التي تحاكي الأقمار منظومة في قلادة لؤلؤية تنسيك تلك الأخاديد الهزيلة في الجيد الذي يتحلى بها ، وتألق الخواتم يخفي شيخوخة الأيدي ، وبريق الأساور يداري هزال المعصم ، والتيجان والأقراط تبهر المتحدث فيغفل عن غضون الجبين ، ولا يلاحظ التجاعيد التي تشبه تجاعيد رجل الأوزة ، وهذا يشبه ما يلجأ إليه أهل القبائل البدوية من الوشم لنفس الغرض .

وكل ما يرمي إلى جعل الشباب والشيخوخة شيئين يصعب التفريق بينهما هو عمل من عمل المدنية ، فالقرن السابع عشر —

أكثر القرون تأدبا وظرفا — استنبط الشعور المستعارة فكانت هذه الشعور المستعارة بمثابة احترام للصلع ، ثم جاءت المساحيق وأحمر الشفاه فقاربت بين الغوانى وجداتهن وبين المرضى والأصحاء . واتجهت همة الخياطات ومعاهد التجميل إلى خلق النمط الذى يحتفظ للعجائز بشىء من الأمل ، وفن اللباس بعد سن معينة هو فن إخفاء الإنسان لما لا يرتاح إليه النظر من أجزاء جسمه ، وهو أيضا لون من ألوان الأدب . والخمار الخفيف هو ابتكار عجيب يحول دون وضوح الصورة ، ويخلع على جميع النساء حسنا كاذبا . فكل زينة هى خمار خفيف يحسن أو يسىء ستر ما أفسده الدهر . هل يستطيع العلم يوما أن يمنع الشيخوخة من أن تبرى أجسادنا وتهدمها ؟ هل يستطيع أن يفجر لنا عينا حقيقية كعين جوفنس ؟ يقولون إن سن كل آدمى ليست هى السن التى تقررها شهادة ميلاده ، ولكنه يكون فى سن شرايينه ومفاصله ، فقد يبدو صاحب الخمسين أسن من صاحب السبعين . وعلى هذا فلا بد أن يكون من المستطاع إعادة الصبا إلى الجسم بإعادة خلاياه إلى حالة فسيولوجية أصغر سنا . وقد أجرى علماء البيولوجيا هذه التجربة على بعض مخلوقات بسيطة التركيب . خذ كائنا بسيط التركيب كبعض الحيوانات المائية التى تعيش فى الأطلنطى ، وضعه فى كمية صغيرة من ماء البحر واتركه يتسمم بافرازاته تجده يشيخ بسرعة . جدد ماءه كل يوم تقف عملية الشيخوخة ، فمن الجائز

على هذا أن نرد شيخوخة خلايانا إلى تراكم نفايات الجسم فيها وربما كان من الممكن الوصول إلى إطالة أعمارنا بغسل هـذه الخلايا فى فترات مناسبة. وقد جربوا أيضا إعادة الشباب إلى بعض الحيوان وإلى الإنسـان نفسه بتطعيم بعض الأعضاء أو الحقن ببعض الهرمونات ، ولما عولجت بعض الجرذان بهذه الطريقة عادت إليها نضارتها وجاذبيتهـا ونشاطها وميلها الجنسى ودام مفعول العلاج حوالى شهر ، وقد أمكن إعادة هذه العملية أربع مرات فوجد أن عمر الجرذ قد أطيل بقدر النصف وأن حياته أصبحت أهنأ إلا أن مفعول العلاج كان فى كل مرة أقصر منه فى سابقتها وكانت أعراض الهرم أسرع . وتجارب الدكتور فورونوف على الكباش معروفة للجميع . أما بالنسبة للآدميين فالنتائج أقل ثباتا ، ولـكن يلوح أن كل هذا لا يهم ، فالإنسان فى مقدوره اليوم أن يصل إلى الثمـانين أو ما بعدها بمجرد اتباع نظام صحى حسن . فهل بعد هذا مطمع ؟

فى مدى ثمانين عاما يكون المرء قد رأى كل شىء : الحب وخاتمته ، والطمع وزهوه ، ولونين أو ثلاثة من ألوان الجنون الأساسية والشفاء منها ، وبعد هـذا لا تكون رهبة الموت بالغة من الحدة مبلغا عظيما فقد ذهب كل من كان عزيزاً علينا من الناس وقد انقضى كل ما كان يهمنا من الحوادث . كان جيته يقول : « عندما أقعد وحدى أخالنى شخصا خرافيا » .

وفى دور السينما التى يكون العرض فيها مستمرا بلا انقطاع كلما انتهت الرواية بدأت من جديد يكون للمتفرج الحق من الوجهة النظرية فى أن يبقى ليشهد الفلم مرات من الصباح إلى المساء ، ولكن الواقع أن السأم يصرفه عن مقصده متى بدأت الصور التى رآها من قبل تظهر أمامه من جديد . والحياة مشهد مستمر معاد ، فالأحداث الشائقة تعود فتجرى كل ثلاثين سنة فنسأم من تكرارها ، ومن أجل ذلك ينهض النظارة الواحد بعد الآخر وينصرفون .

عندما احتفل الكتاب الإنجليز بالعيد السبعينى للكاتب هـ . ج . ولز ألقى ولز خطبة قال فيها : إن هذه الحفلة تعيد إلى ذهنه ذكر بعض ما كان يحسه وهو صغير عندما كانت مرضعه تقول له : « قد حان وقت نومك يا مستر هنرى » ، ومتى حان وقت النوم يبدى الطفل شيئا من المعارضة ، وهو يشعر فيما بينه وبين نفسه أن النوم يأخذ برأسه وأن الراحة المنشودة ستكون فى الفراش . ويمضى ويلز فيقول : كذلك الموت هو مرضع حنون متشددة تجىء متى حان الوقت وتقول لنا : « هذا أوان نومك يا مستر هنرى » فنعارض قليلا ونحن نعلم أن ساعة الراحة قد دنت وفى خاطرنا أن هذه الراحة هى مطلبنا .

٥ — هل نستطيع أن نحسن الشيخوخة

إذا سلمنا دون جزع بفكرة أن الحياة محدودة وأن أيام العمر معدودة فلا أقل من أن نرجو الوصول إلى نهاية الشوط سليمى الجسم والعقل. أهذا ممكن ؟ نعم ممكنَ تماما.

ليس صحيحا أنه من المحتم أن يصحب الشيخوخة موكب الأمراض التى سبق وصفها ، أنظروا إلى الحيوان ، فكثير منه ينتقل من الحياة إلى الموت دون أن يتغير كثيرا ، والجسم المدرب تدريبا حسنا يستطيع أن يحتفظ بمرونته ونضارته ، والسر كل السر ألا تنسى نفسك فما صنعته بالأمس تستطيع أن تصنعه اليوم ، وما انقطعت عن عمله ولّى إلى غير رجعة ، والرياضة والمثابرة عليها يفعلان العجب . فكثيرون فى سن السبعين يزاولون اللعب بالشيش ويمارسون التنس والسباحة أو الملاكمة يوميا . إنما الحكمة هى أن تمرن جسمك باستمرار إلى النهاية لا عن نزوة أو فى تقطع . من المحال أن توقف الشيخوخة إذا بدأت ، ولكن من السهل ومن المأمول أن تمنعها من غشيان بدنك ، ولقد كان مونتيينى يقول : من البلاهة أن يتعجل الإنسان متاعب الحياة أو يطيل أمدها ، ولهذا فأنا أفضل أن تطول شيخوختى عن أن أشيخ قبل الأوان .

فلنجتنب إذن تقاعد الجسم قبل الأوان ، ولنجتنب تقاعد

العواطف ، فللقلب كما للبدن حاجته إلى التمرين . لن يكون ذلك بالطبع بتعمد خلق العواطف . ولـكن كيف يحرم الإنسان نفسـه مما يشعر به من العواطف بالفعل لمجرد أنه شيخ ؟ ألأن الناس يسخرون من الشيوخ إذا أحبوا ؟ كلا إن الناس لن يسخروا منهم إلا إذا تناسوا أنهم شيوخ .

وليس ثمة سخرية من زوجين مسنين كلاهما كاف بصاحبه يرى منه ما كان يحبه أيام الشباب ، كلاهما يجد عند صاحبه ماعهده من الرعاية والحنو والمحبة والإعجاب ، ولـكنه لا يلحظ السن . ثم إنه يحدث كثيرا عندما يولى عهد العواصف أن ألوانا من الحب التى كانت ناقصة غير موفقة فى عهد الشباب تتخذ بمضى السنين مذاقا خالصا فيه زهد وفيه حلاوة ، فالخلافات الحسية تختفى بخمود اللذائذ الحسية . والغيرة تموت مع الشباب وتنطفىء جذوة العنف مع همود القوة .

ومن حطام شبابين عاصفين يمكن أن تنشأ شيخوختان جميلتان ، وتذكرنا حياة زوجين من هذا الطراز بتلك النهيرات التى تكون فى أولها سيولا خطرة متوثبة عند المنبع ثم تصبح بالقرب من المصب جداول جميلة صافية هادئة تنعكس على مرآتها الصافية صور الأشجار المظللة ، ونجوم الليل .

قد يبلغ حب الشيوخ ما يبلغه حب الشبان من عمق العاطفة والإخلاص ، وفى عواطف الشيوخ صفاء الود ووساوس الحب

الحارة الحنون . وصف فكتور هوجو مبلغ تأثره من رؤية مدام ريكاميه وقد كف بصرها بالقرب من شاتوبريان المشلول فقال : «فى الساعة الثالثة بعد ظهر كل يوم كانوا يحملون المسيو شاتوبريان إلى جانب سرير مدام ريكاميه ، وكان ذلك أمرا يؤثر فى النفس ، إذ كانت المرأة التى لم تعد تبصر تبحث عن الرجل الذى لم يعد يحس ، وكانت يداهما تتقابلان ثم تسمع أحدهما يقول : « الحمد لله : لقد اقتربنا من المنية وما زلنا حبيبين » . إن الإخلاص يتحدى الهرم كان دزرائيلى يتحامل على نفسه كل مساء ليرى ليدى براد فورد وكان يضع رسل الدولة فى خدمة سيدته ويقول لها : «يستطيعون الانتظار عندك طول النهار فهم عبيد إرادتك » صحيح إن ليدى براد فورد سببت له شيئا من الألم ، ولكنها كانت الحلم الأخير الذى تعلل به رجل مشبوب العاطفة مثله لا يستطيع أن يحيا بدون رواية .

ومهمة النساء فى مثل هذه الحالة هى أنهن يوقظن شواغل الشيوخ بدلالهن ويقدنهم بلطف إلى الموت فى شىء من أوهام الشباب الساذجة ، فكم رأينا أناساً كانت حياتهم زاخرة بالعواطف ولاح أنها انطفأت إلى الأبد ، وإذا بها تتألق بشعلة عجيبة كنيران الخشب التى نحسبها خامدة ، وإذا هى فجأة تندلع مزغردة .

على أن الحياة العاطفية لا تقتصر على الأحاسيس الغرامية

وحدها ، فتعلق الشيخ بأولاده وأحفاده يكفى غالبا لملء فراغ حياته . وفى تتبع الابن أو الابنة وهم يقطعون بدورهم مراحل الحياة شيء غير قليل من اللذة والمتعة ، تسعدنا سعادتهم وتؤلمنا آلامهم ، ونستمد من حبهم حبا ونشاركهم فى كفاحهم . وكيف نشعر بأننا بعيدين عن ميدان اللعب ماداموا حاضرين ليلعبوا بدلا منا . وكيف نظن أننا محرومون من المسرات ما دام فى إمكانهم أن يتذوقوا شيئا منها ؟ إن فرحة الذهاب إلى الملعب لأول مرة لفرحة عظيمة ، وفرحة اصطحاب أولادنا إليه لأول مرة تليها فى القوة . وبعد السعادة التى نشعر بها عندما نكتشف بأنفسنا الشعراء الذين نحبهم . أليست أعظم سعادة هى أن نرقب فى وجوه أولادنا علامات الإعجاب والسرور بمطالعة الكتب التى تخيرناها لهم ؟ وفى الوقت الذى يأبى علينا الحظ فيه أن يمنحنا مسرات تحرمها علينا السن أيمكن أن ندرك لذة أقوى من أن ندخل على أولادنا مسرات تبرق لها أعينهم ؟

يحدث أن صلة أقوى من صلة الأبوة تربط الجد أو الجدة بالأحفاد ، لأن الشيخ بسبب ابتعاده عن الأعمال تعود إليه خفة الأطفال وفراغهم . ولهذا يبدو منه الاستعداد للعب ولحكاية الحكايات ، وللإصغاء إلى مناجاة الأطفال . بل إن قوى الطفل نفسه مكيفة على نحو يناسب قوة الشيخ . لأنه إذا لم يستطع العدو مع أولاده استطاع أن يترنح مع أحفاده . إن خطوات الإنسان

الأولى وخطواته الأخيرة ذات وقع واحد، وخطوات الإنسان الأولى وخطواته الأخيرة يربطها محيط دائرة واحدة.

وليس صحيحا أن الشيخ لا مندوحة له عن الوحدة، لن تكون له مندوحة عنها إلا إذا كان محبا لذاته، بخيلا، متسلطا، خرقا. ولكنه إذا انتبه إلى عيوب نفسه التى تلازم الشيخوخة عادة وكافحها وخنقها فى مهدها وفرض على نفسه أن يظل كريما متواضعا ودودا رأى الشبان ينشدون محبته ويستعينون بتجاربه، وقد يصعب على الشيخ أن ينقل إلى الشبان تجاربه الخالية من الوهم البعيدة عن الخطأ على الأقل دون أن يمس حميتهم الطبيعية.

ثم إن التجربة لاتؤكد أن كل حمية سخافة، ولكنها تعلمنا أن نترقب النتائج العظيمة، لا الخطب الطنانة والألفاظ الخلابة، وأن العبرة بجلائل الأعمال وكريم الخصال، فهى تضم إلى هذا التعاليم التى يتقبلها الشباب من ذوى البصر والحكمة الجديرين بالمشورة. كان من اللطيف أن نرى زمرة من الشبان المخلصين يلتفون حول ليوتى، وهو فى الثمانين من عمره يلتمسون عند الشيخ دوافع وأسباباً للإيمان والرجاء. وكم أمد مثل هذا اللقاء زوار ميريديث ومالارميه ورجسن ببعض الأفكار البارعة النبيلة. إن شيخا لا يسبب لغيره متاعب لايعدم الأصدقاء.

حوالى منتصف شهر ديسمبر من كل سنة أسلك طريق كورنيش لا توربى العالى، وأتجه نحو بيت صغير فى هيئة بيوت

فلاحى الرومان يسكنه المسيو جبرييل هانوتو ، وتلقانى على حافة الطريق المنحنى زيتونة عمرت نحو ألفين من السنين تذكرنى بفرجيل ، وفى ظل أشجار البرتقال أجد صاحب البستان بالرغم من سن الخامسة والثمانين يرقى المرتفع الصعب بأسرع مما يفعل الشباب . وهو يقول بصوت عذب : « إنى أتكلم فرنسية عصر لويس الخامس عشر ، أخذتها عن جدتى وأخذتها هى بدورها عن جدتها » .

وذهن المسيو هانوتو — كمنطقه — قديم . شاب فى نفس الوقت — قال لى . . سأرشدك إلى بعض قواعد تستذكرها كلما افتقرت إلى العون — حتى إنها نصائح بسيطة عظيمة الأثر ، فهاك هى : « كل شىء يحدث ، وكل شىء ينسى ، وكل شىء يُصلح ، إن أحدا من البشر لن يفقه شيئاً من لا شىء . لو درى كل الناس عما يقوله كل الناس عن كل الناس ما خاطب أحد أحداً » أعجبتنى هذه الموعظة الأخيرة وكانت لى منها سلوى عن كثير من الإشاعات التى كانت تنتشر عنى . وكان يقول : « وعلى الأخص لا تستسلم للخوف أبدا ، فالعدو الذى يحملك على التقهقر يشعر بالخوف منك فى نفس اللحظة » .

هذا شيخ لم يخرج من دراسة التاريخ وكيد الحياة الطويلة باليأس وعدم الاكتراث ، ولكنها علمته هدوء النفس وصفاء الذهن والثقة . فقد كان فى الخامسة والثمانين من عمره يضع ألف

مشروع ويفكر فى رحلات طويلة ويبنى ويزرع . وشبيه بهذا ماقاله لى المارشال ليوتى عندما انتهى معرض المستعمرات : «وماذا أنا صانع الآن ؟ . » قلت : « ياسيدى المارشال ، إن الحكومة بلا ريب سوف توفق إلى طريقة للانتفاع بمواهبك » فصاح : « سوف تجد ؟ سوف ؟ هذا جميل جدا ! أنا على أبواب الحادية والثمانين ، فإذا كنت أريد أن أتخذ لنفسى عملا للحياة وجب أن أبدأ ؟ وهذا ما ينبغى أن يكون ، فقد سبق أن قلنا : « إن الشيخوخة هى الإحساس بأن الوقت قد فات ، وأن الرواية قد تمت فصولا وانتهت ، وأن المسرح أصبح من الآن ملكا لجيل جديد » وإن آفة الشيخوخة ليست فى ضعف الجسم ولكنها فى قلة اكتراث النفس . إن واجبنا هو أن نكافح عدم الاكتراث هذا ونحن نستطيع أن نكافحه ، فأبطأ المسنين إلى الشيخوخة هم أولئك الذين احتفظوا بدوافع الحياة . قد يظن الناس أن حياة كلها اضطراب وانفعالات ونضال أو دراسة وأبحاث تنهك الفرد وتبريه ، لكن يلوح أن العكس هو الصحيح فى الواقع ، فإن كليمنسو وجلادستون كان كل منهما رئيسا لمجلس الوزراء بعد الثمانين ، فأدهشا العالم بيأسهما وسطوتهما ، وليست الشيخوخة سوى عادة قبيحة لا يجد الرجل المشغول وقتا لاعتيادها . لكن كيف يظل الإنسان مشغولا ؟ أليست الأعمال بعيدة عن متناول الشيوخ ؟ ثم هل تتحقق المصلحة بالاحتفاظ بشيخ فى رياسة بلد

أو مشروع ؟ الجواب هو أنه فى كثير من الأحوال تكون قيادة الشيوخ أفضل من قيادة الشبان ، فالشيخ فابيوس هو الذى أنقذ روما ، وفى حرب سنة ١٩١٤ احتل المكانة السامية رؤساء مسنون من الجانبين . وكان أجاممنون يفضل لو كان له عشرة رفقاء شيوخ كنستور لا شبابا مثل أجاكس ، ولم يكن يشك فى أنه لو ظفر بهم لما سقطت طروادة . فالسياسى المسن . والطبيب المسن تتوافر لهما التجربة والحكمة ، إذ أنهما تخلصا من شهوات الشباب فهما ينظران فى القضايا والمذاهب بإحكام وهدوء نفس ، قال شيشرون : « لا تتم عظائم الأمور بقوة الجسم أو خفة الحركة ، ولكنها تتم بالرأى والنصيحة والنفوذ ونضج السن » .

٦ — طريقتان مختلفتان

لقضاء شيخوخة طيبة

يخلص مما تقدم من الكلام أن هناك طريقتين لقضاء شيخوخة طيبة :

الأولى : وقد سبق وصفها ، وهى ألا نشيخ ، وهى طريقة أولئك الذين تفادوا الشيخوخة بالعمل ، وهذا هو المغزى الذى تنطوى عليه أسطورة فاوست كما قال جيته فى آخر قصيدته : فقد عادت إلى فاوست الشيخ كل مظاهر الشباب : « الحب واللذة

والطمع فكان ذلك كله عبثا وخانته هذه المظاهر كلها ولم ينقذه إلا العمل . فقد فرض على نفسه وهو مكفوف خائر القوى القيام بتجفيف غدير موبوء بالطاعون وقرر أن يجعل مكان المستنقعات النتنة منطقة صالحة يطيب فيها العيش للناس والدواب ، وقال فاوست : « نعم ، لقد حبست نفسى على هذه الفكرة . إن الإنسان الجدير بالحرية وبالحياة دون سواه هو ذلك الذى يعرف كيف يغزوهما كل يوم ...

إنى متى استطعت فى لحظة ما أن أبذل نشاطا حرا على أرض حرة بين قوم أحرار قلت لتلك اللحظة : قفى : فما أجملك ؟ ... فاذا ما شعرت بهذه الغبطة السامية فقد ذقت حلاوة ساعة تجل عن الوصف » ، وفى تلك اللحظة يقع فاوست ميتا ، لقد انتهى كل شىء ، وهاهو ميفستو فيليس يتهيأ لينقل إلى جحيمه هذه الروح التى ابتاعها ولكن سرعان ما يهبط الملائكة ويرفعون إلى السماء تلك البضعة الخالدة من فاوست وهى التى ظل أملها معقوداً على العمل دائما أبدا ، فكان أمله هذا سبب خلاصه

الثانية — : هى أن نقبل الشيخوخة ، ومن الممكن أن يكون عهدها عهد زهد وهدوء وبالتالى عهد غبطة وسعادة . إذ أن زمن الكفاح يكون قد انتهى وقد لعبت اللعبة . أضحى الموت وشيكا ولم يعد للمصائب علينا سلطان . عندما سئل سوفوكل الشيخ عما إذا كان ما زال يتذوق ملذات الحب قال : « لتحفظنى

الآلهة من شرها ، لقد تحررت منها كما يتحرر الإنسان من سلطان وحش هائج » .

لقد قابلت بعض شيوخ جديرين بكل إعجاب يشبهون حكماء أحلامنا ، إنهم لم يتخلصوا من ثورة الحب فحسب بل تحرروا من تبعات مستقبل طويل : إنهم لا يحسدون الشباب ، بل تراهم مشفقين عليه من عبور بحر الحياة المضطرب . فإذا كان هؤلاء الشيوخ قد حرموا بعض لذائذهم غير آسفين فهم مازالوا يتذوقون فى حرارة ما أبقته لهم الأيام من ملذات . إنهم يعلمون أن النصائح شىء لا غناء فيه وكل إنسان ينبغى أن يحيا حياته الخاصة ، ونحن نصغى بارتياح إلى ذكرياتهم لأنهم يريدون بكتابتها أن ينصحونا دون أن يوجهوا إلينا لوماً . وقد يحدث أنه عندما تتعسر الأمور نطلب منهم أن يعودوا إلى تسلم الزمام وتبوء تلك المراكز التى يزداد ارتياح الناس إلى عرضها عليهم كلما عرفوا زهدهم فيها

أما قضاء الشيخوخة بحالة سيئة فله أكثر من طريقتين ، وأسوأ الأساليب هو أن تتشبث بما هو عنك مدبر ، فكم رأينا من رجال الأعمال المسنين من يرفضون التخلى عن سيادتهم ، ويبقون أولادهم فى شبه رق شرس ، ولو كان لهم من الحكمة ما يجعلهم يشركون أولادهم فى سلطتهم لأحبهم أولئك الأولاد وأخلصوا لهم ، وكم عرفنا من الأقارب الأشحاء من يتركون الابن أو الابنة تعيش عيشة الهوان ليحفظوا بين أيديهم المرتعشة وسائل ملذات أصبحت فوق

متناولهم ، وكم رأينا من شيوخ جشعين ، لم تعد لهم فى الحياة إلا أيام معدودة يسممون فيها مابقى لهم من ساعات العمر بسموم الغيرة والندم .

إن فن الشيخوخة هو فن الظهور أمام الأعقاب بمظهر السند لا العقبة ، والصديق الموثوق فيه لا المنافس .

أما التقاعد فالقول فيه ذو سعة . إنه يقتل بعض الناس ، أولئك هم الذين لم يعرفوا كيف يستعدون له ، إن سنوات التقاعد هى أمتع سنوات الحياة لمن يحتفظ بروح التطلع سليمة ، فما الذى يلزم للوصول إلى عهد تقاعد هنىء ؟

هو أن يكون الإنسان — وقد استبان أن المجد هباء لا غناء فيه — قد مال إلى سكون العزلة مع الاستمساك بالرغبة فى التعلم والتفقه ، فهو يحتفظ فى قريته أو بيته أو بستانه بنوع من النشاط الشخصى المحدود ، والعاقل من إذا فرغ من إنفاق زهرة عمره فى الأعمال العامة لا يعود يخصص منه شيئا إلا لشخصه ولثقافته . وما أيسر ذلك على من عرف كيف يحتفظ خلال أيام التبعات الجسام بالصلة بالأدب أو الفن أو الطبيعة . وأنا شخصيا لا أتخيل نهاية لحياتى أجمل من أن أنسحب إلى بعض جهات الريف غير بعيد عن المدينة وهناك أعيد قراءة بعض الكتب التى أحببتها كثيرا وأعلق عليها . قال مونتينى : « يجب أن يزهر العقل على الشيخوخة كما تتفتح على البلوط الميت زهرته » . ولنا

فيمن مضوا أصدقاء لا يستطيع الموت أن يفصل بينهم وبيننا ، فكبار الكتاب رفقاء خالدون يزينون شيخوختنا ، كما أيقظوا شبابنا وسحروه ، والموسيقى هى أيضا صديق وفى عجيب يمنح أولئك الذين لم يعودوا يؤمنون بكمال العواطف الإنسانية مأوى فى عوالم رائعة متجددة على مر الأيام .

كنت منذ بضعة أيام فى الأوبرا أستمع إلى عزف رفيع للسنفونية السابعة لبيتهوفن ، وكنت أنظر إلى وجوه من حولى فرأيتهم جميعا شبانا وشيبا قد غمرتهم موجة من النشوة والغبطة ، لقد كانت هناك بعض نفوس ساخطة زائغة ضجرة ، ولكن أصحابها كانوا مسرورين كغيرهم ، فقد طوتهم أمواج النغم وهدهدتهم الألحان المطربة وانتشلتهم حرارة عبقرية الملحن فاستسلموا لنوع من السعادة الأبدية لا تعبأ بالسن ولا تعرف الأسى ، فما إن شاركتهم فى تذوق هذا النعيم الإلهى حتى اقتربت بنفسى من نفوس أولئك العظماء الذين كانوا استراحوا إلى الموت على نغمات موسيقى كانوا يعشقونها . قال بسكال : « ما أسعد الحياة تبدأ بالحب وتنتهى بالطموح » ولكن أسعد من ذلك أن تنتهى الحياة بالعافية والهدوء بعد أن يكون صاحبها قد نال ما طمحت إليه نفسه أو تجاوزه . فبعد أن يتخطى الإنسان خط الظل فى الخمسين بعشر سنوات أو عشرين سنة يعبر خطا جديداً من النور . ومتى أدركت الإنسان طلائع الشيخوخة وجم لها وتألم فى أول الأمر إذ يرى أن زمنا

كان يحسبه زمنه قد تعلق بأفكار جديدة وسادة جدد . ثم يتغير الموقف ولا يلبث أن يتذوق حلاوة سعادة هادئة فى أن يبقى مشاهدا يقظا لعهد لم تعدله به صلة ، ويترجم وجهه الهادئ ونظرته الوضاءة الصريحة عن سكينة نفسه المطمئنة ...

ليس إذن صحيحا أن الشيخوخة جحيم يجب أن يكتب على بابه : « أيها الداخل تخل عن كل أمل » .

هانحن قد فرغنا من تحليل جميع أسباب اليأس التى يتعلل بها الشيوخ وأوضحنا أنه ما من واحد منها إلا وله علاجه .

فإذا قلنا إن القوة حرمت على الشيوخ ، ذكرنا أن القوة مسألة صحة أكثر منها مسألة سن ففى الشيوخ أشداء كما فى الشبان الرخو الجبان .

وإذا زعمنا أن المسرة حرمت على الشيوخ ، ذكرنا أن للشيخ مسراته الخاصة يتعلق بها ويستلذها أكثر مما يستلذ ما فاته ومضى من بين يديه .

وإذا ذهبنا إلى أن النشاط محرم على الشيوخ ، ذكرنا أننا كثيراً ما رأينا الشيوخ يعملون ويتولون القيادة أو الحكم بأحسن مما يفعل الشبان .

وإذا ظننا أن الشيوخ محرومون من الأصدقاء . رأيناهم على العكس من ذلك محاطين بالأصدقاء متى كانوا جديرين بهؤلاء الأصدقاء ..

وأخيراً لا نستطيع أن نقول إن الشيخوخة تخشى الموت . لأن الخوف يتولى الإيمان والفلسفة علاجه على أحسن وجه .

٧ — فن الموت

نحن لا نعلم ألموت خير هو أم شر .
ولكننا نعلم أن الحياة على الأقل ليست خيراً .
سيظل الناس يقفون حزانى كما نحن واقفون .
ينظرون إلى نفس الحقول ونفس السماء ونفس البحر .
كما نحن فاعلون .

« سوينبورن »

هناك طريقتان للوصول إلى ميتة طيبة :

طريقة الأبيقورى الذى يعتقد أن الموت لا شىء ، وطريقة المسيحى الذى يعتقد أن الموت كل شىء ؛ فيقول أبيقور : « رض نفسك على أن الموت بالنسبة لنا لا شىء ، لأن الخير والشر لا وجود لهما إلا فى إدراكنا لهما . والموت هو الحرمان من كل إدراك ، فاقتناعك بأن الموت لا شىء مصدر مسرة لك فى حياتك الفانية ، لأنه ليس فى الحياة شىء يرهبه من اعتقد ألا شىء بعد الحياة ، والموت لا وجود له ، لأننا ما دمنا أحياء فلا موت ومتى جاء الموت نكون قد فارقنا الحياة » . أما الفيلسوف المسيحى فإنه لا يخشى الموت لأن الموت بالنسبة له هو طريق يلتقى فى نهايته بمن أحبهم . وينعم بحياة أجمل

كثيراً من الحياة الدنيا .

لا غرابة فى أن يموت القديس أو البطل ميتة طيبة . غير أنه لا حاجة بنا إلى تكليف أنفسنا مشقة الصعود إلى هذه المنازل السامية لأن المخلصين فى أداء واجباتهم يموتون فى كرامة ونبل وهم عاكفون على أعمالهم إلى النهاية . وللميتات المهنية عظمتها فما زلنا نذكر كيف مات بلزاك وبروست تحوم حولها أشباح الأشخاص الذين خلقاهم في قصصهما ؛ كان الأول يردد اسم الطبيب بيانشون والثانى يخط اسم فورشفيل . وهل تعرف آخر جملة نطق بها الأب بوهور النحوى ؟ : « أنا مشرف على الموت أو أنى سأموت . . كلا القولين صحيح » وشارل الثانى ملك انجلترا يموت ميتة ملك وجنتلمان إذ يقول : « لقد قضيت فى النزع وقتاً لا يصدق طوله ، فأرجو أن تعذرونى » . ومات ريشليو ميتة وزير إذ قال : « أتصفحون عن أعدائكم ؟ . . . لم يكن لى أعداء غير أعداء الدولة » ومات كورو ميتة مصور حيث قال : « أرجو من كل قلبى أن يكون فى الإمكان التصوير فى السماء » ومات شوبان ميتة موسيقار فقال . « اعزفوا ألحان موزار فى ذكراى » ، ومات نابليون ميتة رئيس دولة إذ كانت كلماته الأخيرة : « فرنسا . . . الجيش . . . رأس الجيش . . . » ومات كوفييه ميتة عالم فى التشريح حيث قال : « لقد بدأ الرأس يصارع الموت » ومات لا سيبيد ميتة عالم فى التاريخ الطبيعى فقال : « سألحق بيبفون » وماتت مدام لويز

ميتة ابنة ملك فقالت : « إلى الجنة ... أسرعوا ، أسرعوا امضوا بنا ركضا » .

استولت المهنة أحياناً على بعض الرجال وغاصت فى نفوسهم إلى أبعد الأغوار حتى خيل أنها تلازمهم حتى بعد الموت . ومن ذلك أن الطبيب الفيلسوف هال كان يتحسس نبضه إلى آخر لحظة وقال لأحد زملائه : « ياصديقى لقد توقف الشريان عن النبض » . وكانت هى آخر كلماته ، ورقد العالم الرياضى لابنى رقدة الموت وهو الذى نشر فى أوائل القرن الثامن عشر طريقته الجديدة المختصرة لاستخراج الجذور التربيعية والجذور التكعيبية ، فلما كان فى غيبوبته لم يعد يعرف أصدقاءه وبدا أنه قد فارقه الوعى ، فمال عليه أحد الحاضرين وقال له : « يالابنى ما مربع ١٢ ؟ » فأجابه لابنى : « ١٤٤ » وكان قد فارق الحياة .

كتب مونتينى يقول : « لو كنت ممن يؤلفون الكتب لوضعت سجلا لأقوال المحتضرين على اختلاف مهنهم وطبائعهم » وقد قام كاتبان انجليزيان بتأليف ذلك الكتاب الذى تمناه مونتينى.

يشعر قارىء هذا الكتاب بعد الفراغ من مطالعته بشعور الاحترام للشجاعة الإنسانية حيث لا يصادف سوى القليل من حالات الفرَق والجبن فى هذه الأقاصيص . . « موت فنوم ولا أكثر ... ولكن ترى أية أحلام فى هذا السبات ؟ »

إذا كان سؤال هملت الرهيب قد بقى بلا جواب فإنه لأمر

ذو مغزى عظيم أن نعلم أن كثيرين من الملوك والفنانين وحتى من الصعاليك قد تساءلوا هذا السؤال ساعة الموت دون أن يدركهم الخوف .

٨ — خطاب لبعض الشبان

هنا بسمة لأولئك الذين يحبوننى
وزفرة لأولئك الذين يكرهوننى
وكيفما كانت السماء التى تظللنى
فإن بين جنبى قلباً متأهباً لملاقاة كل حظ
« بيرون »

إنكم أيها الشبان تبدأون حياتكم فى أوقات عصيبة ، ففى التاريخ موجات من المد ترفع أضعف السباحين إلى مراتب الفوز. ولكن جيلكم يسبح ضد التيار فى بحر متلاطم الأمواج ، وهذا شىء عسير ، فإنكم فى الدقائق الأولى ستشعرون بالاختناق ، وسيدرككم اليأس من الوصول إلى الشاطئ ، ألا فلتطمئنوا فقد صادف كثيرون قبلكم أمواجا شاهقة كهذه ، ولم يبتلعهم اليم . مستصمدون بالحذق والشجاعة حتى تسكن الريح .

أيها المنتصرون . لا تنسوا أن الانتصارات الإنسانية ليست سوى انتصارات جزئية زائلة ، وأن لا شىء من أمور هذه الدنيا يمكن أن ينظم تنظيما باقيا على الدهر ، وأن أى نصر مهما عظم

لايحدد المستقبل البعيد ، وأية معاهدة مهما أحكم وضعها لن تستقر بها العلاقات بين الدول أو تعين الحدود بين الممالك لزمن طويل ، وأن أية ثورة مهما امتدت لا تمنح السعادة الأبدية إلى الشعب أو الجماعة ، إياكم أن تستسلموا إلى الأمانى فتطغوا ، تظنون إن رجلا بعينه أو جيلا من الناس متى فرغوا من أداء ما فرض عليهم أصبح لهم الحق فى الكسل والنعيم المقيم . إن مرحلة الحياة لا تنتهى إلا فى الساعة التى يغشانا فيها ظلام الليل .

لا تتعجلوا ، فالثروات وأسباب الشهرة التى تأتى فى لحظة تذهب فى لحظة . إننى أعنى لكم العقبات ومواقف الكفاح ، فبالمعارك يصلب عودكم ومتى وصلتم إلى سن الخمسين أو الستين بدا عليكم مايبدو على الصخور التى تعرضت للأمواج والعواصف من دلائل الصلابة وآثار الكفاح ، وتكون الدنيا المادية قد شقت فى أجسامكم الأخاديد . سيكون كل منكم كيانا أخلاقيا لأنه ستكون لكم أخلاق متينة فتضحكون من أمواج الآراء المتضاربة . عندما يكون الإنسان شابا تستولى عليه الرهبة من كل شىء وتبدو العقبات الأولى كأنها إهانات ويبدو له الخبث الإنسانى مفزعا ، فحققوا لأنفسكم ملاذا باطنيا يعصمكم من قسوة الناس والأشياء . فكل امرىء فى مقدوره أن يبنى لنفسه فى أغوار تفكيره ملاذا يتحدى به أثقل المقذوفات وأحاديث الناس المسمومة بمهارة ، وماذا عسى أن تخشى النفس المطمئنة ؟ لا الاضطهادات

ولا الوشايات تستطيع أن تضعف من الأدلة التى تقدمها هـذه النفس القوية إلى عقل صاحبها .

انظروا إلى الحب نظرة جد لا نظرة خوف وحزن . سيدهشكم فى شبابكم طيش النساء وتدللهن وأكاذيبهن وقسوتهن ، قولوا لأنفسكم إن هـذه المظاهر المستمدة من طبائعهن كلها مظاهر سطحية ولو أنها واقعية ، وإذا أخذتم فى ملاحظتهن فاذكروا البحر الذى لا ينقطع سطحه عن التماوج والتقلب ، ولـكنه يصبح صديقا وفيا لمن يتعلقون به ويعرفون كيف يفهمونه . ابحثوا وراء الصفوف المتزاحمة من النسـاء المتسرعات اللواتى يكشفن فى كرم عن نفوس عفيفة تتردد فى إظهار وداعتها ومنح ثقتها ، وأقسموا يمين الإخلاص من أعماق قلوبكم إلى من ترونها جديرة بحبكم . لا تحسدوا دون جوان ، فقد عرفته ، لقد كان أتعس مخلوق وكان أضعف الناس نفسا وأكثرهم وساوس .

عليـكم بالاستقرار والثبات . فإنى أعلم أنه متى بدأت الأمور تسوء هم الإنسان بأن يرفع اليد بعد أن يأتى بالفأس وأن يبدأ الحياة من جديد مع امرأة ثانية وأصدقاء آخرين ، وأن يعيش فى بلاد غير البلاد . لا تسلموا قيادكم إلى هذه السهولة الخداعة . حقا إن بعض الحالات القصوى قد تحدث كوارث لا يمكن احتمالها وتجعل من الضرورى على الإنسان أن يبدأ حياة ثانية ، ولـكن الأفضل لأغلبية الناس أن يفيدوا مما فى أيديهم ، فإن من الحظوظ السعيدة

أن يشيخ الإنسان ويموت بين أولئك الذين درج وشب وكافح معهم .

وأخيرا عليكم بالتواضع والإقدام ، فإن الحب والتفكير والعمل والحكم ، كلها أمور عسيرة لن تصلوا منها فى هذه الحياة الدنيا إلى درجة الكمال التى كنتم تحلمون بها فى شبابكم ، ولكن مهما بدا لكم فيها من العسر فهى ليست مستحيلة . فقد قامت بها الأجيال العديدة من الناس قبلكم فأحسنت مرة وأساءت مرة ثم وصلت آخر الأمر إلى طريق الحياة الضيق المنير بعد أن ساروا طويلا بين صحراوين مظلمتين . فماذا تخشون ؟ إن المهمة قصيرة ومصير الكل للفناء .

انتهى الكتاب بحمد الله

معجم الأعلام

ابيقور Epicure (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) فيلسوف يونانى أسس مدرسة فى اثينا وسط حديقة وكان يعلم فيها الفلسفة وكان يرى الاخير إلا اللذة ولا شر إلا الألم وأن الفضيلة إنما تقصد لما فيها من اللذة والرذيلة إنما تجتنب لما فيها من الألم ولم يقصر قوله على اللذات الجسمية كما فهم بعض الناس من مذهبه .

أجاكس Ajax — يطلق هذا الاسم على اثنين من أبطال حرب تروادة .

أجاممنون Agamemnon — فى الأساطير اليونانية إنه كان ملكا على مدينتى ميسين وأرجوس وإنه كان قائد الأبطال الذين حاصروا مدينة تروادة .

أرسطو Aristote — أوأرستطاليس (٣٨٤—٣٢٢ ق م) أعظم فلاسفة اليونان الأقدمين ، رحل إلى أثينا ولازم أفلاطون يأخذ عنه العلم حتى مات أفلاطون . وأسس بأثينا مذهباً يسمى أتباعه بالمشائين لأنه كان يعلم وهو سائر فى مماش مظللة ، ويلقب بالمعلم الأول لأنه أول من جمع علم المنطق ورتبه واخترع فيه ، وقد دعاه فيلبس لتعليم ابنه الأسكندر المقدونى فعلمه نحو ثلاث سنوات وله كتب كثيرة فى فروع العلم المختلفة .

أفلاطون Platon (٤٢٩ — ٣٤٧ ق . م) من أشهر فلاسفة اليونان وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو وهو صاحب حوار : « كريتون وفيدون » و « فيدر وجورجياس » والوليمة وكتاب الجمهورية الشهير وفي كل منها يجعل أفلاطون سقراط يتكلم ويحاور .

آلان Alain — هواميل شارتييه الذي جاء ذكره في ترجمة المؤلف وهو أستاذه في الفلسفة . ولد سنة ١٨٦٨ ينظر إلى مشاهد الحياة بعين ساخرة بعيدة الغور وله مؤلفات كثيرة نشرها بعنوان أحاديث من ١٩٠٥ إلى ١٩٢٥ : « أحاديث عن التربية » و « عن السعادة » وعن الدين المسيحي ورسائل عن « العقل والشهوات » ، و « الحكم على الحرب » و « المواطن والسلطات » .

أوفيد Ovide (٤٣ ق . م — ١٦ ب . م) شاعر لاتيني صاحب كتاب « التحولات Métamorphoses » و « فن الحب » امتاز شعره بالسهولة والظرف أكثر مما امتاز بالالهام كان صديقا لفرجيل وهوارس ونال حظوة عند الامبراطور أغسطس ونفي سنة ٩ ميلادية لسبب خفي ومات في منفاه .

أوليس Ulysse — من أشهر شخصيات الأساطير اليونانية وهو أحد أبطال حصار مدينة تروادة من ملاحم الألياذة امتاز بحذره ومكره وهو أبو تليماك وزوج بينيلوب وكانت عودته إلى وطنه موضوع الأوذيسيه .

باتمور (كوفنترى) Coventry Patmore (١٨٢٣ — ١٨٩٦) شاعر انجليزى اتصل برسكن وبمصورى ذلك العصر كما اتصل أيضا بالشاعر تنيسون . تغلب على شعره النزعة الصوفية ويؤخذ عليه فى شعره أنه كثيرا ما يهبط من الجليل إلى التافه ولكن شعره لا يخلو من جمال .

باريس (موريس) Maurice Barrès (١٨٦٢ — ١٩٢٣) محلل نفسانى دقيق وكاتب عاطفى راق انتقل من تقديس الذات إلى عبادة الأرض والموتى وله عدا ذلك كتب قيمة فى الوطنية وكان عضوا فى الأكاديمية الفرنسية .

باستور Pasteur (١٨٢٢ — ١٨٩٥) عالم كيميائى فرنسى اشتهر بأبحاثه فى التخمرات وفى أمراض دودة الحرير والأمراض المعدية بوجه عام وعلى الأخص الوقاية من مرض الكلب وعلاجه وكانت أبحاث باستور فى التلوث بجراثيم الأمراض فاتحة عصر جديد فى طرق الوقاية والعلاج .

بت (وليم) William Pitt — الصغير ابن وليم بت الكبير (١٧٥٩ — ١٨٠٦) — عدو الثورة الفرنسية اللدود تحالف ثلاث مرات مع دول أوروبا ضد نابليون ولكنه لم يستطع أن يمنع انتصاراته ولم يتمكن من الحيلولة دون كساد التجارة البريطانية المؤقت

بتلر (صموبل) Samuel Butler (١٨٣٥—١٩٠٢) كاتب انجليزى

برتيير Berthier (١٧٥٣ — ١٨١٥) مارشال فرنسا . رئيس أركان حرب نابليون وكان موضع ثقته ولكن ذلك لم يمنعه من أن يوقع فى سنة ١٨١٤ على وثيقة الاعتراف بهزيمة نابليون . زعموا أنه انتحر ولعله قتل بمدينة بامبرج من أعمال باڤاريا .

برجسن Bergson (١٨٥٩ — ١٩٤١) — فيلسوف فرنسى تخصص بادئ الأمر فى الرياضة والطبيعة ولكن موهبته التحليلية مالت به إلى دراسة الفلسفة ، وضع كتاب « الزمن والإرادة الحرة » وكتاب « المادة والذاكرة » وكتاب « التطور المبدع » وأصبح أشهر رجال الفلسفة فى العالم فى عصره .

برسيفال Parsifal — درامة موسيقية ذات ثلاثة فصول لڤجنر وهى آخر مؤلفاته ومن أبدعها :

برنانوس (جورج) Georges Bernanos — كاتب فرنسى ولد سنة ١٨٨٨ ملكى من أشهر أعضاء حزب « الأكسيون فرانسيز » ومحررى جريدته صديق ليون دوديه انضم إلى فريق الفاشيست الفرنسيين سنة ١٩٣٦ ولكنه بعد أن تتبع الحرب الأهلية الإسبانية انقلب معارضا لرجال الدين غير أنه بقى مخلصا للكثلكة ، كتب قصصا ومقالات سياسية ورسائل أخلاقية وهو خصم

عنيف ، بليغ وأشهر كتبه « يوميات قسيس فى الأرياف » التى أشار إليها المؤلف نال بها جائزة الأكاديمية الفرنسية .

بروتس Brutus (٨٦ ق . م — ٤٢ ق . م) من مشاهير الرومان نقم على يوليوس قيصر فاشترك فى قتله بالرغم من أنهم زعموا أنه ابنه ، تعقبه انطونيوس واكتافيوس حتى هزموه هو وشيعته فانتحر بأن ألقى بنفسه على سيف مده له أحد أعوانه .

بروست Marcel Proust (١٨٧١ — ١٩٢٢) قصصى فرنسى سيكولوجى طريف أشهر كتبه : « البحث عن الوقت الضائع » .

بسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ — ١٦٦٢) عالم رياضى طبيعى وفيلسوف وكاتب فرنسى من كتاب الطبقة الأولى كتب وهو فى الثامنة عشرة رسالة فى القطاعات المخروطية ثم اخترع آلة حاسبة وإلى أبحاثه يرجع الفضل فى كشف قوانين ثقل الهواء وتوازن السوائل وحساب الاحتمالات والمكبس الأيدروليكى وفى أواخر حياته القصيرة عكف على الزهد والتقشف وشرع فى وضع كتاب فى تمجيد الدين المسيحى لم يتمه ونشرت منه مقطوعات بعنوان « أفكار باسكال » .

بلزاك Honoré de Balzac (١٧٩٩—١٨٥٠) قصصى فرنسى خصب ترك مجموعة من القصص بعنوان الكوميديا

الإنسانية وصف فيها أنواعا متعددة من الناس رجالا ونساء وحلل أخلاقهم وطبائعهم .

بلوم Léon Blum — سياسى فرنسى ولد سنة ١٨٧٢ جره اهتمامه بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية إلى الاشتغال بالسياسة فكان أحد أعضاء كتلة اليسار وزعيما للحزب الاشتراكى . رأس الوزارة من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٧ ثم فى ١٩٣٨ مرة أخرى ، له مؤلفات كثيرة فى الاجتماع والنقد الأدبى ومن أشهرها كتابه « فى الزواج » .

بوانكاريه Raymond Poincaré (١٨٦٠ — ١٩٣٤) محام وسياسى فرنسى تولى رياسة الجمهورية من ١٩١٣ إلى ١٩٢٠ ورياسة مجلس الوزراء سنة ١٩١٢ ثم من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ ثم من ١٩٢٦ — ١٩٢٩ وهو ابن عم هنرى بوانكاريه العالم الرياضى الشهير .

بودلير Charles Baudelaire (١٨٢١ — ١٨٦٧) شاعر فرنسى صاحب ديوان « أزهار الشر » يعد بالرغم من حساسيته المريضة فى مقدمة الشعراء الملهمين بروعة الصور وقوة الأداء والتعبير الموسيقى .

بوشيه Pouchet (١٨٠٠ — ١٨٧٢) من علماء التاريخ الطبيعى الفرنسيين ومن معارضى باستور .

بولانجيه (جورج) Boulanger (١٨٣٧ — ١٨٩١) قائد فرنسى تولى وزارة الحرب سنة ١٨٨٦ كان زعيما لفريق الناسيونالست ودبر مؤامرة لقلب الحكم لم تنجح فانتحر .

بولدوين Baldwin ولد سنة ١٨٦٧ وهو محافظ أشهر بصفاء الذهن وقوة العزيمة فى التنفيذ والنزاهة .

بوليب Polybe — مؤرخ يونانى ولد بين سنتى ٢١٠ ، ٢٠٥ ق . م وتوفى حوالى سنة ١٢٥ ق . م أخذ رهينة وأرسل إلى روما سنة ١٦٨ ق . م وبقى بها ١٦ سنة . ألف تاريخا عاما لزمنه لم يبق منه سوى خمسة أجزاء كاملة وامتاز هذا التاريخ بعمق البحث وشمول الحوادث مع الإيجاز.

بونار Abel Bonnard — كاتب فرنسى ولد سنة ١٨٨٣ عضو الأكادمية الفرنسية . أديب أخلاق وشاعر .

بيتان Pétain — ماريشال فرنسا ولد سنة ١٨٥٦ كان فى سنة ١٩١٧ قائدا عاما لجيشى الشمال والشمال الشرقى وتولى وزارة الحرب (١٩٣٤) ورياسة الدولة الفرنسية من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ وحوكم بتهمة التعاون مع الألمان وحكم عليه سنة ١٩٤٥ بالإعدام ثم خفف الحكم إلى السجن المؤبد لكبر سنه .

بيتهوفن Beethoven (١٧٧٠ — ١٨٢٧) — مؤلف موسيقى ألمانى شهير امتازت ألحانه التى لا تبارى بعمق الشعور وقوة الأداء ، قضى معظم سنى حياته فى ضنك وأصيب بالصمم فى أواخر أيامه .

بجوى Péguy (١٨٧٣ — ١٩١٤) — أديب فرنسى تولى رياسة تحرير نشرة «الكراسات نصف الشهرية (Cahiers de la quinzaine ، من سنة ١٩٠٠) » جمعت أعماله فى ١٥ مجلدا من الشعر والنثر وقضى نحبه فى الحرب العالمية الأولى .

بيرون (لورد) Byron (١٧٨٨ — ١٨٢٤) — شاعر انجليزى شهير جاء شعره عارماً عنيفاً يكشف عن مزاجه وحياته التعسة وامتاز بسخرية لاذعة لا مثيل لها . هجر وطنه وتطوع فى حرب استقلال اليونان ومات بمدينة موسولونجى .

بيفون Buffon (١٧٠٧ — ١٧٨٨) — عالم فرنسى فى التاريخ الطبيعى واسع الأفق خصب الإنتاج ، له كتاب قيم فى التاريخ الطبيعى وهو فى الوقت نفسه كاتب نبيل جليل القدر كان عضواً بالأكاديمية .

بيكون (فرنسيس) Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦) فيلسوف انجليزى لم يقنع بفلسفة أرسطو ولم يرض عن فلسفة القرون الوسطى فوجه همته نحو المسائل العملية فهو مؤسس

الفلسفة التجريبية . عينته الملكة اليصابات وكيلا للدعاوى فى ديوانها سنة ١٥٨٨ ثم مدعياً عمومياً ثم جعل لوردا . وفى سنة ١٦٢١ اتهم بالرشوة وحكم عليه بغرامة وبالعزل والحبس ثم عفى عنه الملك .

تاسيت Tacite (٥٥ ق . م — ١٢٠ ب . م بالتقريب) — مؤرخ لاتينى متشائم عنيف ولكنه متعمق شيق العبارة مبتكر الإنشاء .

تروادة Troie — من مدن آسيا الصغرى اشتهرت بالصمود لحصار اليونان عشر سنوات وخلد هوميرس ذكرها فى الإلياذة .

تشمبرلين Neville Chamberlain (١٨٦٩ — ١٩٤٠) تولى رئاسة الوزارة الانجليزية سنة ١٩٣٧ وهو ابن جوزيف تشمبرلن السياسى الانجليزى ومن أقطاب الأمبريالسم أى المذهب الاستعمارى . حاول أن يترضى المانيا ليحول دون وقوع الحرب العالمية الثانية فلم يوفق .

تولستوى Léon, comte Tolstoï (١٨٢٨ — ١٩١٠) قصصى روسى شهير أبدع فى تصوير الحياة الروسية وأخلاق الروس وعاداتهم يتجه فى الناحية الدينية والأخلاقية إلى التقرب من المسيحية الأولى . أشهر قصصه : « الحرب والسلم » و « أنا كارنين » و « البعث » .

تيريز (القديسة) Sainte Therèse (١٥١٥ — ١٥٨٢)

مُصلحة كرملية ولدت فى أسبانيا واشتهرت برؤاها وتصوفها وتعد كتاباتها من روائع اللغة القشتلانية .

جار (مارتان ده) Martin du Gard كاتب فرنسى شهير ولد سنة ١٨٨١ أولع بالأبحاث التاريخية ومن أشهر كتبه قصة « حياة أسرة تيبو » فى ستة مجلدات صور فيها تطور الأوضاع الاجتماعية وتمزق نسيج الأوضاع القديمة وقد رفعته هذه القصة هى وثلاث درامات إلى أعلى مراتب النبوغ ومنح جائزة نوبل فى الأدب . حواره يجمع بين السيولة والدقة . صور الحياة العصرية أكمل تصوير وأبرز أعنف فصولها . اسمه الأصلى چان باروا .

جالييني Gallieni (١٨٤٩ — ١٩١٦) — قائد وحاكم فرنسى ظهرت كفاءته فى السودان الفرنسى وفى السنغال وفى التونكين ثم عين حاكما عاماً لجزيرة مدغشقر فنظم حكومتها وفى سنة ١٩١٤ عين حاكما عسكريا لمدينة باريس ، فساهم فى انتصار فرنسا فى معركة المارن ثم تولى وزارة الحرب من ١٩١٥ - ١٩١٦ ومنح لقب مارشال بعد وفاته اعترافاً بفضله .

جرانديه Grandet — الأب جرانديه هو من أبرز أشخاص قصة أوجينى جرانديه لبلزاك ، مثال البخل أما بنته أوجينى فتمثل المحبة البنوية فى أروع مظاهرها .

جلادستون Gladstone (١٨٠٩ — ١٨٩٨) — سياسى انجليزى ، زعيم حزب الأحرار تولى رياسة الوزارة أربع مرات

جمبتا Gambetta (١٨٣٨ — ١٨٨٢) — محام وسياسى فرنسى عيز بمقدرته الخطابية . انتخب نائبا عن مدينة باريس سنة ١٨٦٩ ثم عضوا فى حكومة الدفاع الوطنى فى حرب السبعين حيث اشتهر بتنظيم المقاومة فى الأقاليم وبعد انتهاء الحرب السبعينية جعلته فصاحته وحميته الوطنية أقوى رجال الحزب الجمهورى نفوذا فتولى رياسة مجلس النواب سنة ١٨٧٩ ثم رياسة الوزارة الفرنسية سنة ١٨٨١

جوبيتر Jupiter — رب الأرباب فى الميثولوجيا المدرسية (الكلاسيك) يقابل زوس فى الميثولوجيا اليونانية .

جوردان (مسيو) Monsieur Jourdain — بطل الميزانتروب إحدى كوميديات موليير يمثل أحد رجال الطبقة المتوسطة الذى يريد التشبه بالأشراف فيسرع فى تعلم الأدب والرقص والموسيقى وكل ما هو من مستلزمات حياة النبلاء .

جوفر Joffre (١٨٥٢ — ١٩٣١) — مارشال فرنسا ظهرت مواهبه فى التونكين وفى السودان الفرنسى وفى مدغشقر كان قائداً عاماً للجيوش الفرنسية من ١٩١٤ إلى ١٩١٦ وكسب معركة المارن الأولى فى سبتمبر ١٩١٤ .

جوفنس Jouvence — حورية من حوريات الأساطير

القديمة حولها الإله جوبيتير إلى غدير ووهب ماءه خاصة لإعادة الشباب إلى كل من اغتسل فيه .

جيته Goethe (١٧٤٩ — ١٨٣٢) — أشهر كتاب ألمانيا ، مؤلف روايات : «فاوست» ، «فرتر» ، «هرمان ودوروتيه» ، «افيجيني» وبعض درامات وقصائد كثيرة من الشعر الغنائى ، نال إعجاب وصداقة أمبرڤيار وصار مستشاره ثم وزيرا لخارجيته . يمتاز أسلوبه بالصفاء والأناقة وينم عن خيال رحب وتفكير عميق . وكان مع هذا من أعظم العلماء قدرا .

دزرائيلى Disraeli (١٨٠٤ — ١٨٨١) هو اللورد بيكونسفيلد بن اسحاق دزرائيلى الكاتب الانجليزى اليهودى . قصصى وسياسى انجليزى تزعم مذهب حماية التجارة وتولى رياسة الوزارة الانجليزية سنة ١٨٦٨ وكان رئيسا لحزب المحافظين يتناوب رياسة الوزارة مع جلادستون زعيم حزب الأحرار.

دلاديه Daladier — سياسى فرنسى ولد سنة ١٨٨٤ وتولى وزارة المستعمرات سنة ١٩٢٤ ثم تولى رياسة الوزارة ثلاث مرات : ١٩٣٢ ثم ١٩٣٤ ثم من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٠

دنايه Danaé — فى الأساطير اليونانية أنها ابنة ملك أرجوس وأم پرسيه من جوبتير الذى دخل عليها البرج النحاسى

حيث سجنها أبوها وذلك بأن سحر چوبتير نفسه مطرا من الذهب.

دومينيك Dominique — قصة فرنسية لأوچين فرومانتان وهى من بدائع التحليل السيكولوجى الرفيع .

دون جوان Don Juan — شخص خرافى من أصل أسبانى يمثل رجل البلاط الزنديق الفاجر الذى لاهم له إلا إغراء النساء .

دوهاميل Georges Duhamel — شاعر وقصصى ومؤلف مسرحى فرنسى ولد سنة ١٨٨٤ عضو الأكاديمية الفرنسية تخرج طبيبا ثم مال بكليته إلى الأدب فصار من ألمع رجال فرنسا . .

ديجول Charles de Gaulle — قائد فرنسى ولد سنة ١٨٩٠ رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة سنة ١٩٤٤

ديكارت Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠) — فيلسوف ورياضى فرنسى يعد مؤسس الفلسفة الحديثة . لم يرض عن فلسفة أرسطو التى كانت شائعة فى عصره . كان يؤمن بالله وبخلود الروح وقد أثارت تعاليمه رجال الدين فحاربوه وله استكشافات قيمة فى الطبيعة والرياضة .

ديكازDécazes (١٧٨٠ — ١٨٦٠) سياسى فرنسى تولى رياسة الوزارة فى عهد لويز الثامن عشر وامتاز حكمه بالسير على المبادئ الحرة .

راسين Jean Racine (١٦٣٩ — ١٦٩٩) — شاعر تراجيدى فرنسى كان معاصرا وصديقا لبوالو ولافونتين وموليير خالف كورنيي فى طريقته فبينما كان كورنيي ينشد المواقف المعقدة التى تضطرب فيها شخصيات لها صفات فوق صفات البشر كان راسين يميل إلى الحادث البسيط الواضح تحركه شهوات يبدع راسين فى وصفها وصفاً يطابق الواقع .

رتز (كردينال) Cardinal de Retz (١٦١٣—١٦٧٩) سياسى وكاتب فرنسى قام بدور هام فى الحرب الأهلية التى نشبت فى فرنسا بين أنصار لويز الرابع عشر (وكان لا يزال قاصرا) وبين البرلمان . سجن فى الباستيل ولـكنه فر من سجنه ثم تصالح مع الملك . صاحب مغامرات ودسائس ترك سيرة « مؤامرة فيسك » كما ترك مذكرات شخصية قيمة .

رسل Bertrand Russel — رياضى بارع وفيلسوف إنسانى اشتراكى معاصر سليل أسرة « رسل » وهى من أعرق الأسر فى انجلترا . أبى إلا أن يكسب قوته بعمله لأنه ينكر نظام الوراثة كان أستاذا بجامعة كامبردج ولـكن الجامعة تبينت فيه ثورة

نفسية على ميول أمته فهو يحب السلام وأمته تتسلح لتغاص فى الحروب ففصلته عن عمله فأخذ يجوب الأقطار متخذا من العالم جامعة يلقى فيها تعاليمه وآراءه .

روزفلت Franklin Roosvelt (١٨٨٢ – ١٩٤٥) — انتخب رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٣ وأعيد انتخابه سنة ٣٦ ثم سنة ٤٠ ثم سنة ٤٤ .

روكروا Rocroi — عاصمة مقاطعة الأردن بفرنسا اشتهرت بموقعة حربية هزم فيها كونديه الفرسان الإسبان سنة ١٦٤٣ .

رومان Jules Romains — شاعر فرنسى معاصر ولد سنة ١٨٨٥ وله غير شعره قصص ومسرحيات ، وأروع تحفه الفنية هى مسرحياته . زار أكثر بلاد العالم وقابل أعلام المعاصرين فوصف مارآه، وماسمه فى ١٦ مجلدا تعد ملحمة متصلة لحياة مشاهير القرن العشرين فى العالم .

ريشليو (كردينال) Cardinal de Richelieu (١٥٨٥ – ١٦٤٢) — وزير لويس الثالث عشر ومن أعظم رجال الدولة الذين أنجبتهم فرنسا . وطد سلطة العرش المطلقة وامتاز حكمه بإصلاحات شاملة فى المالية والجيش والتشريع وكان محبا ونصيرا للآداب فأسس الأكاديمية الفرنسية .

ريكاميه (مدام) Mme Récamier (١٧٧٧ – ١٨٤٩) من سيدات فرنسا الأديبات اشتهرت بذكائها وجمالها وصالونها الذى جمعت فيه فى عهد إعادة الملكية ألمع رجالات فرنسا وكانت صديقة وفية لشاتوبريان .

رينال (مدام) Mme Renal — بطلة قصة « الأحمر والأسود » لستندال (أطلبه فى حرف السين) .

رينان Ernest Renan (١٨٢٣ – ١٨٩٢) كاتب فرنسى وفليسوف ذومهارة عجيبة غير أنه جرىء فى افتراضاته يعتنق مذهب المثالية العلمية تربى تربية دينية ودرس الفلسفة واللاهوت وتاريخ الأديان واللغات القديمة وعدل بعد بحثه العلمى عن الانخراط فى سلك رجال الدين وألف كتاب « مستقبل العلم » وكتاب « ابن رشد ومبادؤه » وأشهر كتبه تاريخ الديانة المسيحية ومنه قسم فى تاريخ المسيح ترجم إلى اللغة العربية . وكان يرى أن المسيح إنسان راق لا إله فقام عليه رجال الدين وحرموه من الكنيسة ولعنوا من يقرأ كتبه .

سالسبرى Salisbury (١٨٣٠ – ١٩٠٣) — دبلوماسى وسياسى انجليزى بقى رئيسا لحزب المحافظين زمنا طويلا .

سان سيمون Saint-Simon (١٧٦٠ – ١٨٢٥) — فليسوف فرنسى إمام مذهب سياسى اشتراكى سمى أتباعه

السانسيمونيين وهم يدعون إلى توزيع أكثر عدالة للثروة بين أفراد الشعب بحسب حاجاتهم وكفاياتهم .

سترافنسكي Strawinsky — موسيقي روسي ولد سنة ١٨٨٢ وضع عدة أوبرات وتأثر بفنه كثيرون من معاصريه .

ستندال Stendhal (١٧٨٣ — ١٨٤٢) قصصي فرنسي ، سيكولوجي نير له روح روائية متوثبة ، صاحب قصة «دير بارم» وقد ترجمت أخيرا إلى العربية وقصة « الأحمر والأسود » .

سليمين Célimène — مثال الشابة الحسناء المتدللة المغتابة في كوميديا الميزانتروب لموليير .

سنت بوف Sainte Beuve (١٨٠٤ — ١٨٦٩) — ناقد أدبي فرنسي شهير بدأ بقرض الشعر ثم وضع قصة سماها « لذة » ثم عكف على النقد الأدبي وله فيه مجموعة ممتعة عنوانها « أحاديث يوم الاثنين » .

سوريل Julien Sorel — بطل قصة « الأحمر والأسود » لستندال وعشيق مدام رينال .

سوفوكل Sophocle (٤٩٥ — ٤٠٦ ق م) — شاعر وروائي من أشهر الروائيين اليونانيين كتب أكثر من مائة كتاب أكثرها روايات تمثيلية من نوع التراجيدي :

سوينبورن Swinburne (١٧٣٧ — ١٩٠٩) — شاعر انجليزى شهير .

شاتوبريان Chateaubriand (١٧٦٨ — ١٨٤٨) فيكونت ده — كاتب فرنسى عظيم القدر يمتاز إنشاؤه بالإشراق والخيال الحافل والحساسية والبلاغة وقوة الوصف كان لكتاباته أثر عظيم فى ازدهار الأدب الرومانتيكى ساح فى أمريكا ثم عاد إلى وطنه فى إبان الثورة الفرنسية ثم اضطر إلى الهجرة ثم عاد مرة أخرى إلى وطنه وعندما أعيدت الملكية عين سفيرا فى لندن ثم وزيرا لخارجية فرنسا (١٨٢٢ — ١٨٢٤) .

شوبان Chopin (١٨١٠ — ١٨٤٩) — موسيقى بولونى من أصل فرنسى . لألحانه طابع رومانتيكى عميق التأثير يغلب عليه النغم الحزين .

شيشرون Cicéron — أخطب خطباء الرومان ولد سنة ١٠٦ ق . م . ليس له نظير فى الخطابة القضائية ولكنه دون ديموستين فى الخطابة السياسية ، ترك رسائل شرح فيها فنه الخطابى كما ترك رسائل أخرى فلسفية وأسلوبه مثال للكتابة الكلاسيكية

فابيوس Fabius — قنصل رومانى كان حاكما بأمره مرتين . ندبه مجلس السناتو لقيادة الجيوش لصد هجمات انيبال فهزمه فى

عدة مواقع بين سنتى ٢١٧ ، ٢٠٣ ق . م بصبره ومصابرته فلقب بالصبور .

ڤالبرى (پول) Paul Valéry — شاعر فرنسى ولد سنة ١٨٧١ . عضو الأكاديمية الفرنسية .

ڤالبريان Mont Valerien — أعلى الآكام المحيطة بمدينة باريس ارتفاعه ١٣٦ مترا . محصن .

فاوست Faust — درامة ألمانية شهيرة لجيته اقتبست منها أوبرات كثيرة فى عدة لغات

فايول Fayolle (١٨٥٢ — ١٩٢٨) مارشال فرنسى كان قائداً للجيش السادس على نهر السوم سنة ١٩١٦ ثم قائداً لجيش إيطاليا سنة ١٩١٧ ثم لمجموعة الجيوش التى زحزحت العدو إلى نهر الراين سنة ١٩١٨

ڤجنر Wagner (١٨١٣ — ١٨٨٣) — مؤلف موسيقى ألمانى عبقرى كتب بنفسه قصائده التى لحنها وكان يستمد موضوعاتها فى أغلب الأحيان من الأساطير الشعبية الجرمانية

فرنك Franck (١٨٢٢ — ١٨٩٠) — مؤلف موسيقى فرنسى مجدد فى الفن الفرنسى

ڤرونسكى Wronsky — بطل قصة أنا كارنين لتولستوى

ضابط فى الحرس الرومى وعشيق أناكارينين البطلة

فليل Villèle (١٧٧٣ — ١٨٥٤) — كونت . سياسى فرنسى تولى رياسة رزارة فرنسا فى عهد إعادة الملكية من ١٨٢١ إلى ١٨٢٨ ، رئيس الحزب الملكى المتطرف ، لم يرض عنه الشعب لإصداره بعض قوانين تعسفية

فوريه Fauré (١٨٤٥ — ١٩٢٤) — موسيقى فرنسى له ألحان رقيقة نفاذة ساحرة .

فوش Foch (١٨٥١ — ١٩٢٩) — مارشال فرنسا كان فى الحرب العالمية الأولى قائداً للجيش التاسع فقائداً لمجموعة جيوش الشمال وفى سنة ١٩١٨ تولى القيادة العامة لجيوش الحلفاء فى فرنسا حتى النصر .

فولتير Voltaire (١٦٩٤ — ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف وشاعر فرنسى ، امتاز بالجرأة وحب الاستطلاع والمرونة . زار انجلترا وبروسيا حيث بقى ضيفا معززا فى بلاط فردريك الثانى وقضى أمجد سنى حياته فى فرنى بالقرب من جنيف . تناول معظم فروع الأدب : التراجيدى والتاريخ والقصة والنقد والملحمة والشعر الغنائى والترسل . كان له تأثير أدبى واجتماعى ضخم لشدته خصوصا ضد تعصب رجال الدين ولدفاعه عن الحرية الشخصية وإيمانه بالتقدم . لم يفقه كاتب آخر فى تمثيل الذكاء الفرنسى وفى صفاء أسلوبه

ورشاقته وميوله الإنسانية وسخريته العميقة اللاذعة .

فيجارو Le Figaro — جريدة فرنسية هجائية أسست سنة ١٨٥٤ ثم أصبحت منذ ١٨٦٦ سياسية يومية أدبية .

فرجيل Virgile (٧١ — ١٩ ق . م) — أشهر شعراء الرومان يتخير موضوعاته من كل ماهو رقيق ونبيل ويمتاز بذكائه وحبه للطبيعة وكمال إنشائه وانسجام ألفاظه .

فينى Alfred de Vigny (١٧٩٧ — ١٨٦٣) شاعر وقصصى وروائى فرنسى بدأ حياته ضابطا فى الجيش على عادة أولاد النبلاء لم يترك مؤلفات كثيرة ولكنها كلها أمثلة للسمو الأخلاق النادر . أشهر مؤلفاته « عبودية العسكرية وعظمتها » و « سان مار » عدا شعره ودراماته .

كانت (عمانويل) Emmanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) من أشهر فلاسفة الألمان ومؤسس فلسفة النقد وكان أستاذا للفلسفة فى جامعة كونجزبرج وكان يعيش عيشة غاية فى دقة النظام حتى إن أهل قريته كانوا يضبطون ساعاتهم على وقت خروجه من بيته.

كيافيه (مدام ده) Mme de Caillavet — صديقة أناتول فرنس وقد أثرت فى اتجاه ميوله الأدبية .

كايو (جوزيف) Joseph Caillaux — سياسى فرنسى

شهير ولد سنة ١٨٦٣ تولى وزارة المالية فى وزارة والدك روسو ثم فى وزارة كليمنسو وعلى أثر حادثة أغا دير ١٩١١ وضع أسس اتفاقية مع ألمانيا رفضها مجلس الشيوخ فاستقال وعاد للحكم ١٩١٣ فى وزارة دومرج ولما وقع حادث قتل مدام كايو للصحفى كالميت لحملاته العنيفة على زوجها اضطر كايو إلى الاستقالة سنة ١٩١٤ ولما كان معروفا بميله للاتفاق مع ألمانيا فقد قبض عليه سنة ١٩١٧ وحكم عليه بالسجن سنوات ومصادرة أملاكه ولما صدر الأمر بالعفو عن الجرائم السياسية ١٩٢٤ رد إليه اعتباره وكلف بالسفر إلى واشنجتن لتسوية ديون فرنسا ثم اعتزل السياسة سنة ١٩٢٥ .

كبلنج Rudyard Kipling (١٨٦٥ — ١٩٣٦) —

شاعر وقصصى انجليزى صاحب « كتاب الأدغال » وغيره وهو لسان حال صادق للأمبريالزم الإنجليزى السكسونى .

كرومول Oliver Cromwell (١٥٩٩ — ١٦٥٨) —

حامى جمهورية انجلترا ، عضو البرلمان الإنجليزى ، دبر الثورة ضد الملكية وهزم جيش الملك وألف مجلس العدل الذى حكم على شارل الأول بالإعدام . أخضع إرلنده وإيقوسية وحل البرلمان وحكم المملكة حكما ديكتاتوريا .

كلود برنار Claude Bernard (١٨١٣ — ١٨٧٨)—

عالم فسيولوجى فرنسى . أثبت علاقة البنكرياس بهضم المواد النشوية

وعلاقة الكبد بهضم المواد الدسمة كما أثبت وجود مجموع عصبي مستقل غير المجموعة العصبية المخية الشوكية ويعد كتابه المدخل إلى دراسة الطب تحفة علمية .

كلوديل — Paul Claudel — دبلوماسي وأديب فرنسي ولد سنة ١٨٦٨ صاحب قصة « الرهينة » وقصة « الإخطار الموجه إلى مريم » وغيرها .

كلوفيس Clovis — رابع الأمراء الميروفنجيين الذين حكموا بلاد الغول (فرنسا القديمة) فى القرن الخامس الميلادى بعد الاحتلال الرومانى ، هزم الرومانيين فى سواسون كما هزم بعدهم الألمان والبرجنديين فى وقائع أخرى وأسس مملكة الفرنجة وحكم بلاد الغول بأجمعها ودافع عن الكثلكة وعمد فى مدينة رنس وبعد موته عادت المملكة فقسمت بين أبنائه كما كانت عادة سكان الغول .

كليمنسو (جورج) Georges Clemenceau (١٨٤١ — ١٩٢٩) سياسى فرنسى تولى رياسة الوزارة مع وزارة الحرب سنة ١٩١٧ فأعد جيوش النصر للحلفاء فاضطرت ألمانيا إلى التسليم سنة ١٩١٨ وتولى المفاوضة عن فرنسا حتى تم وضع معاهدة فرساى .

كورنى (بيير) Pierre Corneille (١٦٠٦ — ١٦٨٤) — أبو التراجيديا الفرنسية . كان والده قد أعده للمحاماة ولكنه

انصرف عنها ومال إلى التأليف للمسرح ونال تعضيد رشليو فى أول الأمر ثم صار خالق الفن الدراماتيكى فى فرنسا إذ ابتدع التمثيل التحليلى السيكولوجى فأشخاص رواياته أبطال إنسانيون تحركهم أسمى العواطف فيتغلبون بقوة إرادتهم على شهواتهم التى تدفع غيرهم إلى الشر . يمتاز شعره بالقوة وفى كثير من المواضع بالسمو .

كوفييه Cuvier (١٧٦٩ — ١٨٣٢) — عالم فرنسى فى التاريخ الطبيعى واضع أسس علم التشريح المقارن وعلم الحفريات الجيولوجية .

كونديه (الأمير) Prince de Condé (١٦٢١ — ١٦٨٦) — الملقب بكونديه الكبير . اشتهر وهو شاب بانتصاراته فى موقعة روكروا . وفريبورج وغيرها ، ثم اشترك فى حرب الفروند فى جانب النبلاء ضد الملك ولكنه أعيد بعد حين إلى مرتبته من القيادة فكتب له الفخر فى انتصارات جيوش فرنسا فى حرب الفلاندر وهولاندة .

كونراد (جوزيف) Joseph Conrad (١٨٥٧ — ١٩٢٤) — قصصى إنجليزى من أصل بولندى قضى شطرا من حياته بحارا ولم يكن يعرف اللغة الإنجليزية إلى سن العشرين تقريبا

ثم أصبح باجتهاده من مشاهير كتابها . ألف قصصا كثيرة منها طائفة عن سياحاته فى البحار .

كونستان (بنجامان) Benjamin Constant (١٧٦٧ — ١٨٣٠) سياسى وأديب فرنسى كانت له مكانة عظيمة فى حزب الأحرار فى عهد إعادة الملكية ، ذو مواهب سامية وذكاء متوقد يشوبه كثير من التشكك .

أشهر مؤلفاته قصة تحليلية تسمى « أدولف » .

لابروبير La Bruyère (١٦٤٥ — ١٦٩٦) — كاتب أخلاق فرنسى قضى حياته مع حفيد كونديه الكبير مؤدبا ثم سكرتيرا له . ترجم أوصاف طباع الناس لتيوفراست اليونانى وأضاف إليها تصوير طباع أهل عصره فى أسلوب حى يتألف من جمل قصيرة حاسمة وانتخب عضوا بالأكاديمية الفرنسية .

لاتوربى La Turbie مشتى فى مقاطعة نيس بفرنسا

لاربو (ڤاليرى) Valery Larbaud — شاعر وقصصى فرنسى معاصر ولد سنة ١٨٨١ . كتبه سلسلة متصلة مستورة لتاريخ حياته ووصف رحلاته الطويلة .

لاروشفوكو Larochefoucauld (دوق ده) [١٦١٣— ١٦٨٠] — أشهر أعضاء أسرة لاروشفوكو العريقة . لعب دورا

هاماً فى الحرب الأهلية بين النبلاء والعرش المسماه بحرب «الفروند» واشترك فى القتال الذى دار فى ضاحية سانت أنطوان فأصابه عيار نارى أفقده البصر مدة فقضى بقية حياته فى البلاط وكتب «مواعظه» فى تلك الحقبة .

ليبنتز Leibnitz (١٦٤٦ — ١٧١٦) — فيلسوف ألمانى درس الفلسفة والرياضيات والقانون ثم اشتغل بالأمور السياسية واخترع الآلة العادّة وله مذهب فى الفلسفة وفى تكوين العالم وكان له الفضل على العلماء الذين أتوا بعده بطريقته العلمية وبتوجيه النظر إلى علم النفس

لينين Lenine (١٨٧٠ — ١٩٢٤) — اسمه الأصلى ڤلاديمير أوليانوف . رئيس مجلس قوميسيرى الشعب للاتحاد السوڤيتى الروسى . اسقط حكومة كيرنسكى المؤقتة وأقام بمعاونة تروتسكى النظام البلشفى فى روسيا .

ليوتى Lyautey (١٨٥٤ — ١٩٣٤) — مارشال فرنسا . اشتهر فى الهند الصينية ومدغشقر والجزائر ونظم حكم الحماية الفرنسية فى مراكش من سنة ١٩١٢ وحافظ فيها على سلطة فرنسا فى الحرب العالميـة الأولى وتولى وزارة الحرب من ١٩١٦ إلى ١٩١٧ .

مارت (القديسة) Sainte Marthe — أخت السيدة مريم العذراء أم المسيح عليه السلام .

ماريفو Marivaux (١٦٨٨ — ١٧٦٣) — مؤلف مسرحى فرنسى شهير كتب مسرحيات كثيرة مؤسسة على أبحاث نفسية صحيحة ، قلمه رشيق ولغته سهلة يتكلف الأناقة فيها أحيانا .

مالارمه Mallarmé (١٨٤٢ — ١٨٩٨) — شاعر فرنسى شهير أحد طلائع المذهب الرمزى الذين منهم بودلير وفرلين .

موريس (وليم) William Morris(١٨٣٨ – ١٨٩٦) — شاعر ومصور وكاتب انجليزى اشترك بنصيب كبير فى نهضة الفن الزخرف .

موزارت Mozart (١٧٥٦ — ١٧٩١) — مؤلف موسيقى نمساوى شهير ترك من روائع فنـه « عرس فيجارو » و « دون چوان » عدا ألحانه الدينية وترنيماته البيتية . براه السل فمات فى الخامسة والثلاثين بمدينة ڤينا .

موسيه (الفردده) Alfred de Musset (١٨١٠ — ١٨٥٧) — شاعر فرنسى شهير تكشف أشعاره عن نفس روحانية ساخرة شهوانية حزينة . يصف فى كتابه « اعترافات أحد أبناء العصر » لون الشر الذى تألم منه أبناء جيله . كوميدياته

وأمثاله تواليف مسرحية غاية فى الرقة كثيرة البدوات مليئة بالسحر ...

مولير Molière (١٦٢٢ — ١٦٧٣) إمام الكوميديا الفرنسية كان مؤلفا وممثلا ومديراً لفرقته فى وقت واحد . خاض الفن الكوميدى من أدناه إلى أقصاه ، من التهريج والدعابة إلى أسمى درجات الكوميديا . لا يبارى فى إبراز الشخصيات والابتكار والانسجام المسرحى وتوقد الخيال وسلامة الذوق والبعد عن التكلف ابتدع شخصيات خالدة وأغنى لغة قومه بما وضعه من الألفاظ والمصطلحات والأبيات التى جرت مجرى الأمثال . نهض برسالته فذلل ما أعترضه من العوائق وانتصر على أعدائه بتعضيد لويس الرابع عشر .

مونترلان Montherlant (Henri comte de) — شاعر وقصصى ومؤرخ ولد سنة ١٨٩٣ تأثر بشاتوبريان وموريس باريس يدين بالسلطة التقليدية والمذهب الكلاسيكى والناسيونالسم وعندما قويت جبهة الأمة ارتد ضد طبقته . يعد مؤرخ طبقة النبلاء الفرنسيين ومعارضاً للاستعمار الفرنسى .

مونتينى Montaigne (١٥٣٣ — ١٥٩٢) — أخلاقى فرنسى من النبلاء اشتهر بمقالاته (Essais) التى وصف فيها نفسه

ووصف الإنسانية معه وهو أبيقورى تغذى بالحكمة القديمة، وكان متسامحا يحض على التربية الحرة .

ميريديث Mérédith (١٨٢٨ — ١٩٠٩) — شاعر وقصصى إنجليزى كان سيكولوجياً متعمقاً وأشهر قصصه : « الأنانى » .

نستور Nestor — أسن الأمراء الذين شهدوا حصار تروادة تعزو إليه الأسطورة الحكمة والخطب الطويلة التى ألقاها فى اجتماعات الرؤساء. وقد ورد ذكره فى الإلياذة والأوذيسة

نواى (مدام ده) Mme de Noailles (١٨٧٦ — ١٩٣٣) شاعرة وقصصية فرنسية ثانية اثنتين هما أشهر شهيرات شاعرات فرنسا فى القرن التاسع عشر .

هانوتو (جبرييل) Gabriel Hanoteau — مؤرخ فرنسى شهير ، عضو الأكاديمى ولد سنة ١٨٥٣ ألف كتابا فى تاريخ الكردينال ريشليو وأشرف على وضع كتاب تاريخ الأمة الفرنسية وآخر فى تاريخ المستعمرات الفرنسية .

هكسلى (أولدس) Aldous Huxley — كاتب انجليزى ولد سنة ١٨٩٤ كان من محررى مجلة الاثينيم ثم كان الناقد المسرحى

لجريدة الوستمنستر جازيت وله مؤلفات كثيرة ترجم منها أخيرا إلى العربية : « الوسائل والغايات » .

هوش Hoche (١٧٦٨ — ١٧٩٧) — قائد فرنسى تولى قيادة جيش الموزيل أثناء الثورة الفرنسية فحالفه النصر وفى عهد الإرهاب اشتبه فى أمره وسجن ثم أفرج عنه وكلف إخماد ثورة الفانديه ثم تولى قيادة الحملة الموجهة إلى إرلنده فتوفى فى السنة نفسها وهو من أعظم شخصيات الثورة وأطهرهم ذيلا .

هيلو (بارون) Baron Hulo - شخصية الشيخ الداعر وصفها بلزاك فى قصة « الأهل الفقراء » .

هوميروس Homère — شاعر يونانى يروى أنه عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد وينسب إليه الرواة « الإلياذة » و « الأوذيسة » ويمثلونه شيخا مكفوف البصر يتنقل بين المدن يتغنى بأشعار هاتين الملحمتين .

هيلانه Hélène — أميرة يونانية بارعة الحسن اختطفها باريس فكان ذلك سببا فى تجريد حملة على مدينة ترواده لتخليص هيلانه كما يقول الرواة .

وسلر James Whistler (١٨٣٤ — ١٩٠٣) — مصور أمريكى شهير صاحب صور إنسانية ولوحات أخرى اشتهر بانسجام

ألوانه . عاش فى فرنسا فترة من الزمن ثم استقر به المقام فى لندن وفى أخريات حياته عاش فى باريس .

ولز (هـ . ج) H. G. Wells (١٨٦٦ — ١٩٤٦) —

قصصى إنجليزى من ألمع كتاب القرن العشرين اعتنق الاشتراكية واندفع بكل قوته فى طلب إصلاح المجتمع فألف كتبا علمية كما ألف فى الأخلاق والاجتماع فله : « آلة الزمان » ، « الاشتراكية والزواج » ، « عالم جديد مكان عالم قديم » ، « يوتوبيا حديثة » وغيرها كثير .

ولسن Woodrow Wilson (١٨٥٦ — ١٩٢٤) —

انتخب رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة سنة ١٩١٢ ، وقرر انضمام بلاده إلى صفوف الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى وساهم فى وضع معاهدة فرساى .

ولنجتون Duc of Welligton (١٧٦٩ — ١٨٥٢) —

قائد إنجليزى شهير تولى قيادة الجيوش الإنجليزية فى البرتغال وفى إسبانيا ضد الفرنسيين وانتصر عليهم فى بعض الوقائع وأخيرا تولى قيادة الجيوش المتحالفة التى هزمت نابليون فى موقعة واترلو سنة ١٨١٥ . اشتهر بقوته البدنية وعزعته التى لا تلين فلقب بالدوق الحديدى .

ويجاند Weygand — قائد فرنسى ولد سنة ١٨٦٧ عاون المارشال فوش فى حرب ١٩١٤ ثم وجه إلى پولونيا سنة ١٩٢٠ فساهم فى كسر الهجوم البلشفى وعين منـدوبا ساميا فى سوريا سنة ١٩٢٣ ثم وكيلا لمجلس الحرب الأعلى (١٩٣١ — ١٩٣٥) وهو عضو الأكاديمى .

فهرس الموضوعات